مذكرات

إبراهيم منعم منصور

الجزء الأول



إبراهيم منعم منصور

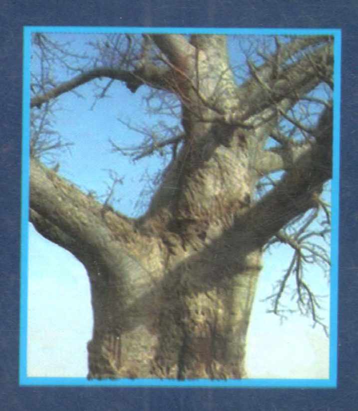
هذه المذكرات

إبراهيم منعم منصور

الأستاذ إبراهيم منعم منصور علم من أعلام السودان وله خبرات وتجارب متعددة ومتنوعة داخل السودان وخارجه .إضافة إلى أنه ينتمي إلى واحدة من أكبر الأسر المتوارثة للإدارة الأهلية وهي أسرة منعم منصور ناظر قبيلة الحمر ذات الثقل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كردفان . واشتهرت قبيلة الحمر بالفروسية وتربية أجود أنواع المواشي في السودان.

إن المذكرات التي كتبها الأستاذ إبراهيم منعم منصور تعكس تنوعا في التجارب وفي كل فصل من فصول المذكرات يذكر ما له وما عليه وينتقد نقدا بناء على المستوى العام الذي كان مشاركا فيه أو مراقبا له وقد استجاب الكاتب للدعوات المستمرة والحاح المقربين والأصدقاء لضرورة كتابة مذكراته لأنهم يرون فيها تجربة لجيل كامل ساهم في النهوض والإخفاق في التجربة السودانية

مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية
جامعة ام درمان الأهلية





شركة مطابع السودان للعملة المحدودة
978-99942-57-39-3

مذكرات

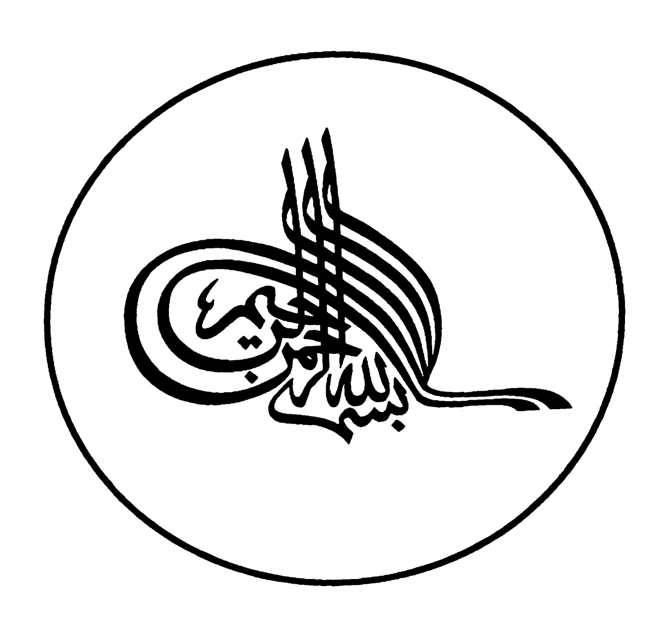
إبراهيم منعم منصور

الجزء الأول

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
(٢٠١٨م)

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان
٩٢٣,٣ إبراهيم منعم منصور ، ١٩٣٨-
أم .م
المسيرة: مذكرات إبراهيم منعم منصور/إبراهيم منعم منصور.-
أمدرمان: مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية ، ٢٠١٧
١٢٠٠ص، /بض، ٢٤سك
ردمك: 978-99942-57-39-3
١. إبراهيم منعم منصور، ١٩٣٨
٢. الاقتصاديون السودانيون.

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة


بسم الله الرحمن الرحيم


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

المحتويات

الخير لا ينتهي.................... والشكر لن ينتهي

وبعد أن انتهيت من الكتابة وبدأت مهمة تجميع الأوراق تكرمت شركة (يام للاستثمارات – يحيى عبد المجيد وشركاه) باستضافتي شهوراً عدة في أحد مكاتبها تحملت فيها الماء والكهرباء والمشروبات وثقل الضيف مما يعجز عنه شكر اللسان.

ودلفت يتقدمني أخي ودليلي بروفيسور علي محمد الحسن إلى الجامعة السودانية الأصلية: جامعة أم درمان الأهلية وفي مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية كان لقاؤنا بالبروفيسور المعتصم أحمد الحاج الذي تولى إدارة المركز بعد البروفيسور إبراهيم حسن عبد الجليل الذي ظل المرض يلازمه ويتحمله بصبره وابتسامته المعهودة فله منا دعاء وكأنما البشاشة والبشر هما الواجهة للمركز فقد استقبلنا المعتصم ومعاونوه: شباباً وشابات بأكثر مما نحن أهل له من ضيافة، ثم بدأ في شرح مفصل ودقيق لكيفية إخراج الكتاب من الغلاف والواجهة والترتيب الداخلي والحجم... ثم الخطوات الوثائقية ..... واختيار المطبعة .... والإجراءات التي تسبق الطباعة ..... والكثير مما ظل يسرده في ابتسامة دائمة أذابت رهبة هذه المرحلة من أذهاننا.

وبعد جلسة وجلسات عشت عظمة هذا الفريق ولم أتعجب للكم الهائل في العدد والقيمة العلمية في شتى صنوف المعرفة للكتب والإصدارات التي نشرها في هدوء العلماء. ولعلي أنضم إلى الناقد الحادب على المركز الذي صرخ مطالباً (بالدعاية والإعلان) لهذا الإنتاج إذ لا يكفي تخصيص ركن له في أحد المكتبات الكبرى بالخرطوم.

أعود فأتقدم- عن حق- بأكثر من وافر الشكر- وبأكثر من أجلّ التقدير للأخ المعتصم لما قام به نحونا: وهو لا يظل يعتبره قدراً من واجب.

وشكراً لرجال شركة مطابع السودان للعملة المحدودة لما قدموه من نصائح وما قاموا به من جهد في هجير شهر رمضان المعظم.

إبراهيم منعم منصور

١٤ رمضان ١٤٣٨هـ

٩يونيو ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذه الأوراق التي زادت عن الألف أو كادت وجعلت اسمها (المسيرة) كتبت في أوقات مختلفة وفقاً لظروف الصحة واليسر ... والفراغ عندما انتهي من بعض الأعمال التي استوجبتها دواعي المعيشة.

وعليه فإني ألتمس من القاريء الذي يتصفحها أن يقرأ كل جزء في إطاره الزمني – وفي وضعه المكاني. وكما ذكرت أن بعض الأجزاء قد لا تهم بعض القراء وقد لا (تفيدهم) على عكس ما هو دوماً في (الكتب) ولكنها ذات رسالة لغيرهم قد لايهمهم فيها إلاّ ما لا يهم أولئك.

في بعض الأحيان تتداخل الأحداث – توقيتاً وتاريخاً – فيسبح تيارها مسافات قبل أن يوقفه سد من الواقع فيعود إلى مجراه مرة أخرى وهو أمر قد يكون معيباً في سرد الأحداث – وقد تكون فيه درجة بدائية من التشويق – آملاً ألاّ يؤدي في كلا الحالين أو في أي منهما إلى ضجر يتوقف فيه عن القراءة.

وبالمثل فقد شملت (المسيرة) في طياتها على أبواب ليس في العادة من تشتمل عليه الذكريات والسير إذا أقحمت ما أسميتها (الإستراحات) تقطع سرد الأحداث خشية الملل أو راحة للبعض من متابعة موضوعات ليست بذات الأهمية لهم.

إستراحة الغيبيات: قد يتساءل البعض ما أهميتها – وقد يتعجب آخرون عن مجرد إثباتها في سيرة رجل (متعلم) ولا أقول مثقف. إن الأحداث التي قابلتني والأشخاص الذين التقيت بهم كما أوضحت يمثلون (واقعاً) معاشاً في الحياة. قد ننكرهم جدلاً ولكنهم حقيقة وعملوا على تشكيل وجدان الكثير من الناس ليس فقط في السودان وإنما في كل الدنيا. وهم

موجودون في حياة بعض القيادات السياسية العالمية: في البيت الأبيض وفي الكريملن وفي بعض البيوتات الحاكمة في الجزيرة العربية الكبرى رغم المذاهب الدينية التي تستنكرها علناً وفي الهند وباكستان. غير أني تعرضت فقط لما كان له صلة في حياتي الخاصة – أو في بعض النواحي السياسية العامة.

أما (الفرص الضائعة) فهي أحداث قابلت البلاد أو قابلتني وكنت طرفاً فيها – شاهداً أو مشاركاً – وكان من الممكن أن أسردها من خلال (المسيرة) إلاّ أنها وجدت طريقها إلى النشر مبكراً في الصحف من قبل أن أفكر في كتابة هذه الذكريات. وقد تمت كتابة كل منها حدثاً مستقلاً ولو لم يقنعني المعشر الكرام بأن أكتب (المسيرة) لربما تم نشرها في كتاب مستقل. غير أنه لسوء حظها وسوء حظ القاريء دخلت في توقيت كتابة المسيرة.

شملت هذه الصفحات فصلاً صغيراً عن الإدارة الأهلية وهو حديث كان من الممكن الاستغناء عنه لأنه قد ضمه الفصل الكبير عن دار حمر. غير أن البعض قد لا يهمه قراءة ذلك الفصل الكبير – أو قد لا يصل في قراءته إلى الجزء الخاص بالإدارة الأهلية، فقد رأيت إبقاء هذا (الخاص) لمن يريد فقط أن يتعرف عليه.

بدأت حياتي العملية في وزارة التجارة والصناعة والتموين. وكما ذكرت فقد انفصلت (الصناعة) وظلت التجارة والتموين. ولكن حتى بعد انفصال الصناعة فإن السرد الذي ذكرته عن هذه الوزارة له جانب أعتقد – رغم تغير الزمن وأدوات المعرفة – أنه هام للقارئ وللبلاد – كما أنه جانباً آخر هام أيضاً للقارئ وللبلاد.

أما الجانب الهام الأول فهو (**المأموريات**): هي رحلات تعليم – وعمل – وتدريب – وانصهار قومي للخريج الجديد الذي يلتحق بوزارت (اتحادية) في الوقت الحاضر ذات أثر مباشر في حياة ومعاش الناس وفي أحيان في التخطيط الاقتصادي القومي. كانت هذه

المأموريات هامة في ذلك الزمن، ولكنني أراها أكثر أهمية في (هذا الزمن) حيث أصبح السودان (ولايات) تزداد بين حين وآخر وتجنح من واقع عملي إلى (إنفراد) إن لم يكن إلى شبه (استقلال) وانكفاء على الذات (في (فهم متفرد) للفدرالية. في مثل هذا الزمن وقد ازدانت كل ولاية بجامعة أو أكثر فإن الخريج الجديد حتى ولو لم يلتحق بالخدمة في الوزارة الاتحادية أحوج ما يكون لمعرفة بلاده كلها وليس منطقته المحدودة. أما إذا التحق بالوزارة الاتحادية فإن هذه المأموريات تصبح أمراً حتمياً في تقديري في (هذا الزمن). التقارير ليست بتقارير إن وجدت والمعلومات عادة (ملونة) والمعايشة والاحتكاكات مع المواطن والمسئول في مختلف المستويات في الولايات مسألة لا غنى عنها لممارسة مسئولة للوزارة التي تخطط اتحادياً للصناعة – أو للتسويق الداخلي والخارجي وتوفير مختلف احتياجات الاستهلاك والمدخلات. ولا يخفى إن المعلومات التي وفرتها المأموريات كانت مدخلاً لمشروعات صوامع الغلال في كل من القضارف وبورت سودان وتعليب الفواكه في كريمة والكرتون في أروما وتنظيم تجارة وتصدير الحبوب الزيتية والصمغ العربي وتقنين تجارة الحدود – ومعرفة نمط واستهلاك بعض السلع في بعض مناطق السودان.

لقد كان لوزارة التجارة (سلطات) ورثتها كما يتبين في داخل هذه الصفحات من آثار (الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥) ولكن بعضها ظل صالحاً حتى في (هذا الزمن) بسبب الظروف التي تمر بها البلاد: من قبل الإنقاذ وطوال فترة الإنقاذ حتى اليوم (٢٠١٦م.) خاصة بعد التبشير بدخول منظمة التجارة الدولية (العولمة) وخاصة ونحن نعيش عصر الانفتاح والتحرير وحرية التجارة والخصخصة وهلمجرا.

فيما يختص بمنظمة التجارة العالمية فإن لديها (باب خاص) بحماية اقتصاديات الدول النامية في الزراعة والتصنيع لفترات انتقال بعد قبولها في العضوية ريثما تتكيف اقتصادياتها

وتستعد للانتقال للاندماج الكامل في منظومة الحرية العالمية. واستخدامات (سلطات) وزارة التجارة بالرشد الوطني والتنسيق العالمي لا تتعارض مع وجودنا – إذا قبلنا – في المنظمة.

ستظل المشكلة هي (سياستنا الداخلية) فسواء كنا داخل أو خارج المنظمة فإن حالة (الحرب) التي نعيشها وحالة (التجييش) المستمرة التي تتبناها الحكومة تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تؤدي السياسات المتبعة فيما يسمى بالتحرير والخصخصة إلى إيقاف التدهور في سعر صرف الجنيه السوداني وإلى استقرار في مستوى معيشة المواطن أو تقديم خدمات له في أهم مستلزماته في الصحة والتعليم ورعاية الطفولة والأمومة ... أوحتى إلى (أمان وأمن) ناهيك عن حلم التنمية المستدامة.

في ظل هذا الواقع المعاش بعيداً عن التنظير والشعارات فإن البلد أحوج ما تكون إلى تتبع وإحصاء كافة سلع الإنتاج المحلي وترشيد استخداماتها: في الاستهلاك أو المدخلات أو التصدير: خاماً أو مصنّعاً بمختلف الدرجات وإدارة عمليات التسويق في الاحتفاظ بالفوائض وتخزينها وتنسيق نقلها من أماكن الوفرة تجنباً لفجوات العجز وتركيزاً للأسعار وتوازناً لدخول المنتجين.

وبالمثل فإن عدم الترشيد للواردات وعدم وجود (ميزانية وارد) أو عدم التقيد حتى بالمباديء العامة في حسن استخدام الموارد الشحيحة من النقد الأجنبي ونحن في حالة (حرب) نظل نتجاهلها وفي حالة (حصار) تسببنا فيه بسياساتنا الداخلية التي بدورها أخرجتنا من دائرة (الإعفاء من الديون) بل حتى من جولات (نادي باريس) في ظل هذه الظروف من غير المعقول أن نلقي عبء ترشيد الواردات وحسن توجيه الصادرات وأسبقيات استخدامات النقد الأجنبي: نلقي كل ذلك على البنك المركزي وتعطيل الوزارة

المركزية التي كانت تقوم بإدارة سياسات التسويق الداخلي والخارجي والاستيراد والتصدير ورصد احتياجات الاستهلاك والفوائض واتجاهات السوق ... للأسف أصبحت البلاد تديرها الأجهزة الأمنية والبنك المركزي. ومن يسمح له وقته بتصفح باب صلاحيات وزارة التجارة يفتقد الكثير على الساحة ودون تعارض مع (التحرير) بل هو (التنظيم الواعي للتحرير).

لقد أسهبت في توضيح مسائل بعضها غير (مألوف) في الكتب وبعضها أصبح من (التاريخ). غير أني أريد أن أختم هذه المقدمة بكلمة حق وعرفان. فقد ظل الأخ الفاضل البروفيسور علي محمد الحسن يسألني أن أسجل مذكراتي - بل أصبح يشجعني وزاد على ذلك ذكرت في مكان بإلحاح محبب وعندما بدأت وانتهيت من الكتابة بدأت حيرتي في ماذا أفعل: مئات من الأوراق المتناثرة وكان لابد أن ألجأ إليه ولسان حالي يقول: ها أنذا قد كتبت فماذا أفعل. تلقّى الأمر من بعدي: د. علي محمد الحسن هو (بروفيسور) وليس (بروف) ولا أستطيع أن أقدمه ولكني أنقل عن الفرنجة قولهم:

With some people if you do not know them it is your mistake and you are to blame.

وإذا صحت الترجمة: عن بعض الناس إذا لم تعرفهم فإنك مخطيء ولا تلومن إلا نفسك.

كانت الأوراق المتناثرة أكثر من ألف. قرأها كلها قراءة أولى - ثم قراءة ثانية. ثم بدأ يرتبها في أبواب. ويجمع ما تداخل منها في منعطفات. نبهني لتصحيح خطأ جسيم بشأن أحد القيادات العربية. وقد جلست إليه في عدة لقاءات. علمت منه كيف تصنع (كتاباً): أبواباً وعدد صفحات. وكيف يكون حجماً يتداوله القاريء. عقد المقارنات مع كتب لأشخاص سبقوني. لفت نظري لأبواب بعينها. ولموضوعات لا تشملها المؤلفات في العادة.

كيف يكون الشكل الخارجي – والفهرس الداخلي – والاتصال بدور النشر – والعلاقة معها ... و ... وغير ذلك مما لم أكن أعرف أو أعرف الوصول إليه واستمعت (تلميذاً) وحيداً في (الفصل) ومرة آزرني إبني محمد المنصور واستمع للأستاذ وتعجب لتأدب والده في حضرته ... وخرجت بأن أوكلت له أمر الألف صفحة أو تزيد كله ليخرجه بالشكل والحجم الذي وافقت عليه ليكون (كتاب) – لكن بحق لم يتدخل في الأفكار والآراء إن كان ثمة هناك رأي أو فكر فيما سطرت. شكره لا تسعه الكلمات وسيظل في صدور الأسرة كلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

في آخر صفحة من الطبعة الأولى للكتاب إشارة إلى الشخص الذي بدأت به في تقديم المسيرة الأخ البروفيسور علي محمد الحسن. ولكن عند تصفح البداية لم أجد ولم يجد القارئ (مقدمة الطبعة الأولى): اختفت. حذفها الأخ علي من واجهة الكتاب.

أول من لفت نظري لغياب مقدمة للكتاب أدبية وقارئة هي زوجتي فاطمة الحلو. جادلتها ثم تبين صدقها. تبين لي أن الأخ علي وجد فيها وهو يراجع المسودة الأخيرة ما اعتبره ثناءً (زائداً) في نظره شمل معظم المقدمة بطريقة غير مباشرة وبطريقة صارخة في آخرها فقام بحذفها كلها من الكتاب.

اتصل بي العديدون شاكين أن حجم الكتاب (كبير) لا يستطيعون القراءة وهم مستلقون على ظهورهم في حالة استرخاء وطالبوا بتقسيمه إلى جزئين أو إلى عدة أجزاء في كتاب واحدة وها أنذا استجيب لهم. وذكر بعضهم أنهم افتقدوا (الصور) لعدة مناسبات ولأفراد أسرتي الصغيرة كما هي العادة: وهم على حق.

ورأى آخرون أنه كان يجدر أن تكتب شخصية كبيرة مقدمة (غير التي كتبتها ولم يرضاها بروفيسور علي) ولكن عالمين بالعلم قالوا أن كتب (المسيرة) لا تكتب لها شخصية كبيرة مقدمة إلا بعد صدورها وذلك على غير المألوف في الكتب العادية.

وفي موضوعات الكتاب تلقيت هجوماً غاضباً من أحد مثقفي دار حمر هو الأستاذ مرجب (يحضر للدكتوراه) أني أهملت أحد (بطون بيوت حمر- بني بدر) وركزت على آخر وهم (الجخيسات) عندما أشرت إلى أنهم الوحيدون الذين لم يشملهم حل الإدارة الأهلية لأنهم (حمر الرحل) وذلك في نظره بسبب ما قاله شرتاي الجخيسات في حق الناظر منعم منصور. والحقيقة هي أن الذي اختار الشرتاي هم رجال الحكومة التي كانت في الأبيض عند زيارة سمو الشيخ زايد. وقد اعتمدت على معلوماتهم. وأضيف لعلم سيادته هناك (بطن

بيت آخر في حمر هم الصبحة) أيضاً من الرحل ولكن يبدو أن من تم اختيارهم كانوا الأكثر عدداً في الأنعام. وعلى كلٍ أشكر للأخ الباحث ما قاله لاهتمامه رغم عباراته غير المألوفة في التخاطب- ورغم وعيده بأنه سيكون له شأن آخر إذا اكتشف خطأ كهذا.

وقارئ من دار حمر حجب (انفعاله) اسمه بأن (القرعان) ليسوا من حمر: حجب اسمه رغم تهدئتي له أن كل من سكن الدار وارتضى عرفها بها في ذلك الشوام والسعوديين يعتبرون من حمر (فروة النمر) : لم يقتنع ولم يهدأ رغم إني ذكرت له إن (ضامن) قبيلة حمر في سوق المواشي بالعاصمة القومية من قرعان حمر.

وغاضب آخر كان مصراً على خطئه في تشابه الأسماء بأن رئيس هيئة الحسبة والمظالم (٢٠١٧م) هو ابن الشيخ أحمد أبو زيد أكبر من تبرع بأرض لقيام مدرسة حنتوب: وقد لاحظت- بكل أسف- كل من أدلى برأي من أبناء دار حمر كان حاملاً عليّ باتهام إما بالغرض أو بالجهل أو بكليهما. ومع كلٍ فلهم الشكر لاهتمامهم.

وسعدت أن تلقيت أيضاً العديد من التعليقات ومن تصحيح لبعض الأخطاء وقد ألحقت ذلك بهذه الطبعة وأبرزها:-

- من الأخوين مولانا دفع الحاج يوسف ومولانا عمر شمينا أن قصيدة أم ضفائر من تأليف الأستاذ عبيد عبد النور وليس خليل فرح.
- وقد شاركهما في الملاحظة الأخ عثمان بليل وزاد أن قصيدة (أنا لن أحيد) للشاعر محي الدين فارس وليست للشاعر الفيتوري.
- كما أن مترجم حكايات كانتربيري هو الأستاذ محمد الخضر وليس دكتور موسى عبد الله حامد. وعندما طغت السياسة أصبح (أخ الوالي عبد الرحمن الخضر).
- وبالمثل فإن أول انقلاب قاده عبد الرحمن كبيدة كان في الديمقراطية الأولى وليس في عهد حكومة الفريق عبود.
- خال السيد محمد المكاوي مصطفى هو عبيد عبد الرحمن وليس عبد الرحمن الريح.

- الأمير عبد القادر منعم منصور ومعه الأخوان على منعم وعبد الحميد منعم أفادوا إن الذي اشترى دار حمر من سلاطين دارفور هو الحاج منعم وليس مكي أبو المليح.
- شاركهم في ذلك ابننا المؤرخ السيد أحمد حمدان ولفت نظري أن هناك (فقرة أو ملزمة) سقطت عند ذكر الأسرة وزوجات وذرية الناظر منعم وتختص بالأخت روزة وأمها وبالوالدة مادريتي وذريتها. لهم جميعاً الشاكر أجزله.

ولعل القارئ يعذرني إذ أن في مثل هذه المسيرة الطويلة المتشعبة لابد من وجود أخطاء لغوية أو في الأسلوب أو في السرد أو فيها جميعاً أو غيرها: غير أني حاولت بقدر الإمكان ألا تكون هناك أخطاء في الحوادث تؤثر على حقائق الأمور- وأقبل التصويب وأعتذر- أو أخطاء متعمدة في حق بعض الذين جمعتني بهم الحياة والعمل. وقد وصلني (غضب) أحدهم بأني لم (أنصفه) ولكني أؤكد له أني ذكرت في حقه الحقائق التي واجهتني في جوانب و(سترته) في جوانب أخرى: في حقي وفي حق دار حمر... وفي حق السودان: عملاً بما أُمرنا به في الأثر.

أعتذر للقراء الكرام أنه سبب (حجم الكتاب) فقد غابت عن الطبعة الأولى (ملاحق) تدعم بعض ما ورد في الكتاب. ولنفس السبب غابت في هذه الطبعة.

هناك (تكرار) جاء مرات بسبب تداخل بعض الحوادث في السرد قد يتجاوزه بعض القراء إلى ما بعده. وقد يتبرم منه آخرون ألتمس منهم المعذرة- كما جاء التكرار في مرات أخرى بسبب ذكر حوادث أثناء سرد المسيرة ثم ذكرها مرة أخرى كجزء يصعب تجاوزه أثناء ذكر الفرص الضائعة. وقد حاولت التخفيف منه. ولكي (أثقل) على القارئ تكراراً على تكرار أكرر مرة أخرى الالتماس لكل من لديه (فرصة أو فرصاً ضائعة) من التي نشرتها في صحيفة الحرية ولم يجدها في هذا الكتاب أن يرسلها باسمي إلى مركز محمد عمر بشير في جامعة أم درمان الأهلية وله الشكر مكرراً أيضاً.

ولا أختم دون أن أذكر الاستقبال الكبير الذي وجدته الطبعة الأولى في الداخل والخارج وفي أكثر من قارة وبلد إذ نفذت في أقل من ثلاثة شهور ووضعتني ووضعت المركز الناشر في حرج من تلبية طلبات لشخصيات وجهات علمية لها مكانتها. ويرجع الفضل للدار السودانية للكتب ولدار المصوراتية ولاثنين من شباب دار حمر: عطية وحلاب في التوزيع.

وكما جاء في الأثر من لا يشكر الناس لا شكر الله.

فالشكرر أجزله للإخوة والزملاء الذين بشّروا بالكتاب في الصحف الورقية أولهم د. حسن عابدين ثم د. صديق أم بدة- د. الحاج مصطفى- السيدة آمال عباس العجب- الأستاذ خالد التجاني- الأستاذ محجوب عروة- الأستاذ يوسف عبد المنان إذ جذب اتهامه لي بالعنصرية... و... أثار فضول فئة أخرى من القراء لمعرفة المزيد. أما التعليقات في وسائط الاتصالات فلم أستطع متابعتها ولكل من ساهم فيها جبل من الشكر والتقدير.

ولقيت دعماً معنوياً أزال مني رهبة مواجهة القراء لأول مرة من بعض شيوخ وشباب الصحافة في جلسات وحوارات مضيئة: محمد لطيف- النور أحمد النور- خالد التجاني- مصعب الصاوي- مشاعر عبد الكريم وآخرين شرفوني في داري لأول مرة وخانتني الذاكرة في الأسماء.

ولابد من تقدير خاص لمن أرادوا أن يقيموا تقديماً وترويجاً للكتاب في (تدشين) وهم بالترتيب الزمني: اتحاد دار حمر (بروفيسور عبد الرحيم أحمد سالم وعطية محمد حمد)- نادي الدبلوماسي (حسن جاد كريم)- معهد الدراسات الأفريقية جامعة الخرطوم (بروفيسور حسن مشيك)-جامعة أم درمان الأهلية (بروفيسور كرار عبادي)- مركز مأمون بحيري (د. صابر محمد الحسن ود. مكي مدني الشبلي). ولأسباب أقنعني بها الناشر لم نجد داعياً للتدشين.

كما أبدى د. قاسم محمد نور والأستاذ عارف حمدان من هيئة الإذاعة والتلفزيون- كلاً على حدة- أن يكون لي لقاء معهما في الإذاعة القومية بشأن الكتاب. وإلى أن نلتقي بهما- كلاً على حدة- خالص الشكر على الاهتمام والمبادرة.

وأنا في الموقف الذي كنت فيه ما بين المطبعة والمركز والتوزيع لابد لي من شكر خاص لشخصية خاصة هي (طه علي البشير): لدى العموم هو (نادي الهلال) في قمته، ولدى الخصوص هو (الاتحادي الأصل) وبجانب صفات مضيئة أخرى هو (هدهد حنتوب الجميلة)... لا أزيده.

هل غاب بروفيسور علي محمد الحسن أو بروفيسور معتصم أحمد الحاج (وكتيبته من الشباب والشابات) أو السيدة آمال عباس: أبداً كانوا دوماً حضوراً رغم إن الاسم ظل:

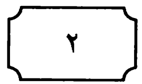
مذكرات إبراهيم منعم منصور

١٤ مارس ٢٠١٨م


مسطورات
MUSTORAT



الفصل الأول
المسيرة



(مدخل)

بعد أن تركت العمل المنتظم بساعات دوام محددة وجدت زمناً أكثر للجلوس مع أسرتي وأهلي وأصدقائي. ويتطرق الحديث عن وقائع وأحداث- وعن شخصيات وعن مناطق وبلدان داخل وخارج السودان وأجود عليهم في كثير من الأحيان بمعلومات جديدة على بعضهم وإضافات أو تصحيح لما عند غيرهم ويتجه الحديث في أحيانٍ كثيرة إلى تساؤلات بعضها يحمل قدراً من العتاب: لماذا لا تكتب مذكراتك ؟ خاصة إذا ظهر لي في إحدى الصحف لقاء مع أحد الصحفيين أو مقال عن موضوع معين. وعندها أجلس مع بعض شباب الأسرة أحثهم على التعليم وأحكي لهم عن الظروف على أيامنا والهجرة بعيداً عن الأهل في عمر الصبا- أقل من الشباب- داخل السودان ثم بعيداً عن السودان في (دار الريف) كما كانت تسمى(مصر) ونحن على عتبة الشباب. ثم جاء دور بدايات الحياة العملية وأنا في العاصمة المثلثة- في الخرطوم. ودارت عجلة الخدمة العامة ثم العمل السياسي والمجادلات والصراعات والاتهامات والاعتقالات. وأنواع من الحكم والحكام والحكومات وتنقل بين الحكومة والمؤسسات والقطاع الخاص والعمل الخاص.

اتضح لي أن كل من أراد لي أن أكتب ذو اهتمام خاص بجزء خاص- واحد أو أكثر- من هذه المسيرة. شباب الأسرة وبعض الأهل وكذلك بعض الأهل من امتزجنا بهم في العاصمة المثلثة كانوا يريدون أن يعرفوا ولو قليلاً عن أهلهم أو (حمر) لا تفاخراً وإنما لتطمئن القلوب كما يقولون في علاقاتهم بالناس أو علاقات الناس بهم. هل لهم فعلاً جذور في السودان وتاريخ أم مجرد(غرابة) قذفت بهم ظروف الحياة المعيشية إلى العاصمة. بعض زملائي في العمل تعجبوا لخروجي المبكر من (شغل الحكومة) إلى القطاع الخاص بعد سنوات لم تؤهلني لنيل (المعاش) خاصة وأنني درست المرحلة الجامعية في جمهورية مصر

العربية وليس في كلية الخرطوم الجامعية حيث يعرف الناس بعضهم البعض.. مصر: كيف وصلتها ومكثت أربع سنوات وفي الإسكندرية. جماعة من الذين شجعوني جذبهم صعودي إلى قمة أكبر صرح صناعي في البلاد وقتها وهو مصنع النسيج السوداني وتوابع مؤسسة الخليج العالمية من شركات صناعية وزراعية وخدمية. وبعضهم كان يريد فقط أن أكتب عن مرحلة ثورة مايو والرئيس جعفر نميري وما يروى عنه من قصص بعضها أشبه بالأساطير، وبخروجي مرتين من الحكم أثناء مايو. تعلق آخرون بتجربة العمل مع الجماعة في ثورة الإنقاذ وخروجي منها أيضاً ولكن هذه المرة مطروداً ليلاً بالتلفون: ولقد لبيت بقدر ما أستطيع رغباتهم جميعاً. غير أني كنت مهتماً بالكتابة- لنفسي أيضاً- لأسجل مع زملاء عزيزين بدأت معهم المسيرة بعد سن العاشرة بقليل وامتدت عقوداً مع بعضهم حتى قارب العمر الثمانين. لا زلت أريد أن أعرف أنا قبل الآخرين كيف اجتاز ابن قرية (صقع الجمل) مدينة النهود مركز غرب كردفان حياة الداخلية في مدرسة الدويم الريفية الوسطى التابعة لمعهد بخت الرضا، ثم على ضفاف النيل الأزرق في مدرسة حنتوب الثانوية ثم هلمجرا مما فاضت به هذه الصحائف.

بعض ممارسات العمر المبكر كانت حافلة بتجاوزات الصبا والشباب كما كانت دوافع بعضها (استكشافية) : هل فعلاً من الممكن أن نقوم بها دون أن يكتشفنا زملاؤنا الكبار دعك عن أساتذتنا؟ ونجد أننا قد نجحنا: نجاحاً بعد نجاح. مما أغرانا بالابتكار في كل خطوة بعد أخرى بعضها لم تكن سوية. وفي مرحلة كنا كمن يتمثل بقول الشاعر أيليا أبو ماضي (ولكم تشيطن كي يدار القول عنه تشيطنا) نباهي بذلك من كان يظن من أولاد (البحر) إنه من الطلبة (الشفته) من دورنا- أو ممن هم أكبر منا. وعندما نتقدمهم في نتائج الامتحانات في

حنتوب تعلوهم الدهشة، وكنا نشبههم بمن كانوا يسقطون من أول كأس في تجربة حياتنا الصغيرة (تحت التربيزة UNDER THE TABLE) كما وصف الأديب الإنجليزي أوليفر قولدسميث (OLIVER GOLDSMITH) من لا يحتملون كؤوس الراح في روايته التي كانت ضمن مقررنا في الأدب الإنجليزي(SHE STOOPS TO CONQUER) وهكذا كان الحال في سنوات الدراسة بأرض الكنانة حيث كنا نعتبر أنفسنا نحن الذين عشنا في الداخليات وسطى (أساس) وثانوي (رجالاً) بالنسبة للكثيرين الذين كانت أول محطة لهم خارج بيت الأسرة هي مصر أم الدنيا. فمنهم من انكب يدرس حتى انكفأ- ومنهم من تمرد ومنهم من تاه ولكنهم في النهاية مسكوا الدرب بعد تجارب حلوة ومرة في أغلبها واجتازوا العقبة. واحتفلنا مع بعضنا آخر كل سنة بمن تخرجوا ناجحين وكانوا بحمد الله في كل مرة كل الدفعة في الإسكندرية.

تعرضت لكل هذه المناحي من الحياة خدمة لأبنائنا الذين لازالوا يجاهدون في سبيل العلم والعمل فإن لم يكونوا هم السائرون فربما أبناؤهم أو أحفادهم. فالمسيرة سواء في زمننا أو زمنهم زمن ناس (بابا) و (ماما) ليست دائماً ممهدة كما أنها ليست على الدوام وعرة. أما في الحياة العامة في السودان. فلم أشأ أن أكتب عن تجارب تعرضت فيها لخلافات واختلافات وصراعات مع أخوة وزملاء لو لا إنها أصبحت جزء من (التاريخ) تناولها الأثير: إذاعة وتلفزيوناً. ونشرتها الصحف ووكالات الأنباء المحلية والعالمية. واستقرت في دور الوثائق بالسودان وفي مكتبة (الكونجرس) بالولايات المتحدة. ومنها ما تناولته تقارير السفارات إلى بلادها وما أفرجت عنه قوانين الحظر فنشر في عام ٢٠١١م ومنها شرائط تسجيل لما دار في مجلس الشعب وما دار في مجلس الوزراء واجتماعات في القصر الجمهوري. وكان لابد لي أن

أتناول هذه الأحداث التي تشكل في نظر من تناولتهم من زملاء- في تقديري على الأقل- نكأً لجراح والحمد لله نحن الذين جمعتنا ظروف العمل العام في مايو طمر الود والخير الذي حبانا به الله كل الحفر والبؤر التي تعثرنا خلالها يوماً ما وصرنا في زمن قياسي في صفاء حقيقي رغم ما يتخيله البعض. ولكن رغماً عني قمت بإعاة كتابة أجزاء من هذه المسيرة وتعرضت لأسماء عزيزة كان لابد لي أن أودع خزائن التاريخ أيضاً وجهة نظري فيما حدث لكي تجلس جنباً إلى جنب مع ما صار جزءاً من التاريخ.

وهناك وثائق كان لابد لي من نشرها أيضاً رغم أني لم أكن اهتم كجزء من تربيتي في بداية عملي في الخدمة المدنية بجمع مستندات (الحكومة) ولم ألتفت كثيراً لنصائح أخي د.منصور خالد الذي تعرفت عليه لأول مرة وأنا وزير في مايو بأن (احتفظ) بأية ورقة مهمة كتبتها أنا أو عثرت عليها أثناء عملي لأنها ستكون يوماً ما ذات شأن. تذكرت ذلك أيضاً عندما ارتكبت خطأ قبول منصب رئيس مفوضية تخصيص ومراقبة الإيرادات المالية إثر تحليل(خاطئ) للأحداث بأنه أصبح من (واجب) أي مواطن يمكنه القيام بأي عمل للدولة بعد توقيع اتفاقية السلام مع الحركة الشعبية في ٢٠٠٥م- أن يقوم بذلك. كنت أعتقد أن القوم (جادون) في تحقيق الوحدة وفي إشاعة واستدامة (السلام). أقول تذكرت أمر الوثائق عندما سالني يوماً نائب رئيس الجمهورية الأستاذ علي عثمان(إنت بتكتب ليه نحن لينا ١٥ سنة دولة الحزب الواحد لا نكتب إلا القرارات. يعني عاوز بعدين تنشر مذكراتك؟) كانت المناسبة هي إنني كرئيس للمفوضية لابد أن أكتب لمؤسسة الرئاسة. واحياناً بنص إتفاقية السلام تقارير دورية أسرد فيها (كل شيء) كما أنني تعلمت كما قلت له أن أكتب فيما كان يعرف في دور الحكومة باسم (المذكرة الداخلية INTER DEPARMENTAL SHEET

وتختصر(ID SHEET) والتي يبدي فيها الموظف في أدنى السلم رأيه ويرفع إلى رئيسه إلى أن يصل إلى الأعلى وتعود إليه المذكرة فيها آراء الجميع ومسبباتها والقرار النهائي. المهم في هذا الحديث أنه شحذ همتي لكي أكتب مذكراتي من حيث لا يقصد. ويستحق الشكر من حيث لم يقصد.

هناك (الفرص الضائعة) والتي شكلت أيضاً جزءاً عاصرته من تاريخ هذه البلاد سردتها في صحيفة الحرية على مدى سنتين أو تزيد فيما يقارب المائة حلقة أو أكثر وكان لابد لي أيضاً أن أودع ما عثرت عليه منها كجزء من هذه المسيرة. وبين هذه وتلك كانت هناك مقالات فرضتها عليّ بعض الأحداث بعضها واستطعت جمع البعض الآخر أضفتها داخل المسيرة. ومن وقت لآخر يتطوع أخ أو صديق ويبعث لي بورقة أو مذكرة أو حديث في صحيفة يذكرني بما ضاع من ذاكرة الثمانين فأشكره وأعده أن أجد للجميع مكاناً لأنه- وهذا حق- إن لم يكن ما جاءني به مهماً لما احتفظ به هو زمناً.

وأنا أكتب على سجيتي دون أن أتقيد بأصول فنية متبعة في مثل هذه الحالات لأني- بصراحة لا أعرفها- تعرضت لشخصيات انتقلت إلى رحاب الله. راعيت الصدق والخوف من الله في التعرض لها. ورغم أننا أمرنا أن نذكر محاسن موتانا إلا أننا أفتينا بأن التعرض للشخص العام في الشأن العام في مجرى التاريخ- على قيد الحياة أو فارقها- لا غبار عليه ما دام الحديث صادقاً وفي أمر العباد. وعلى كل نسأل الله المغفرة في الحالين. وفي جميع الأحوال فقد نأيت عن إلقاء التهم أو الشتم وإنما سردت الأحداث كما عاصرتها وكما حدثت دون (تلوين) كما يقول الصحفيون وتركت للقارئ الحرية.

تضخم حجم الكتاب ولم يزعجني لأني كنت عازماً منذ البداية أن أضمنه (مسيرتي) ولهذا اخترت اسم (المسيرة) وبعد أن بدأت الكتابة وجدت أن النهج الذي سرت فيه جعلني أسترسل أحياناً في تفاصيل أحداث تنقلني ليس فقط من عام إلى آخر ومن مكان إلى آخر بل من عقد من الزمان إلى رصيفه بل إلى عقود تحركه ذاكرة لا تتوقف إذا بدأت وهي تسعدني- شخصياً- بتذكر مواقف قد لا يرتاح لها القارئ وقد تبعده عن موضوع كان يتوق أن يصل إلى نهاية قريبة له.

رفضت فكرة تقسيم المسيرة إلى أجزاء في كتب منفصلة أو مراحل في الحياة رغم أن حياتي في البداية قبل أن أصبح (شخص عام) كانت مرحلة تختلف نوعاً ما عن مرحلة الشخص العادي ولكن في الأجزاء الأخيرة منها كانت تمهيداً وتداخلاً بين المرحلتين. وكما ذكرت فيما سبق فليأخذ كل ما يراه وليترك ما لا يبغاه: إذ إن كل الخطى مجتمعه كونت شخصيتي وأثرت في الشخص الذي قادته حتى اليوم.

بعد التشجيع (للجلوس) ثم الكتابة بصورة جادة من داخل العائلة الصغيرة: الزوجة فاطمة والابن الأكبر محمد المنصور. سرعان ما تدافع الآخرون بشتى السبل. سارة تصحبني إلى القاهرة للترويح وعملياً لإعداد الوجبات وتهيئة المناخ للكتابة. ومحمد المهدي يطبع حتى كلت عيناه مما استطعت أن أسطره في الخرطوم. ومحمد المأمون صحبني مرة وعندما استقر به الاغتراب في دولة الإمارات يسأل مشجعاً عن التقدم الذي تم، وسوسن وهي مشغولة في الإعداد للدكتوراه في الإدارة لا تنسى أن تعد أطباقاً من مأكولات تعلم شهيتي نحوها. وعندما لا تجد الصغيرة (١١ عاماً) سماح ما تساهم به تطلب مني أن أتوقف وأرتاح قليلاً لكي (تسمع) لي ما تقرر عليها من (سورة الشورى) نعم والله!! هكذا المنهج أو

أراجع معها (الغُنَّة) في (سورة النازعات) علماً بأني متأكد أن وزير أو وزيرة التربية لو فوجئت دون إخطار(بتسميع) سورة الشورى أو(غُنَّة) النازعات لفشلت. لا بل لسقطت.

وأنا في مصر حيث بدأت الكتابة يحضر ويشجعني ثم يستضيفني بالإسكندرية الدكتور محمد فارس فاروق أبا يزيد ابن الأخ والصديق الذي ستجيء الإشارة إليه في مرحلة الدراسة. أما الاخ والصديق محمود يوسف العشي في مدينة نصر بالقاهرة ليس فقط رعايتي بل ومساعدتي في التحرك مع سائقه الوفي (وحيد) وفي العثور على محمد (الذي قاد بدايات طباعة وتنظيم مكونات هذه (المسيرة) باقتدار. وظل إخوة وأخوات كرام بالخرطوم ومصر يتساءلون دوماً مشجعين بحنان وإشفاق. محي الدين سالم- إحسان حسين- آمال عباس العجب- عبد القادر منعم منصور- محمد الحسن أحمد الحاج- إبراهيم صديق الدليل- أحمد أبوسن- إدريس حسن- عبد الله حيدوب- التجاني آدم طاهر- الماحي أحمد جحا- إبراهيم حامد مصطفى- صديق أم بده- فوزية يوسف جلال الدين- حامد منعم منصور- عبد القادر منصور- ثريا بشير حامد-محمود حسين (مليجي)- محمد سعيد عبداللطيف- سيد أحمد الرشيد- فؤاد أحمد مكي ومحاسن عبد الرحيم- وبإلحاح محبب علي محمد الحسن والشريف الدشوني ومصطفى رجب من شباب النهود.

ولمن يريدون أن يدخلوا مجال الكتابة في هذا المجال أنصحهم- بل آمرهم إنِ صح التعبير- أن يكونوا صفاء في (البال) ورخاء في (الجيب) خلال فترة(الجلوس) والكتابة. واستعداداً لذلك فقد تطرقت خلال بعض جلسات التفاكر و(الونسة) في (الغربة) مع أخي العزيز والفقيد الخالد عثمان أحمد سليمان مدير مجموعة البركة بجدة قبل أن ينتقل إلى رئاستها في البحرين، تطرقنا لموضوع (الكتابة) ولكني أوضحت له أن (الكتابة) التي يعنيها ليست في

سهولة تسطير المقالات الصحفية التي قرأها وإنما تحتاج إلى وقت(صاف) وإلى .. وإلى .. وإلى.. قاطعني بهدوئه الجاد أن بنك البركة الخرطوم سوف يتولى (إلى... وإلى.. وإلى...) وما عليّ إلا أن أقدم بذلك (ميزانية) إلى رئاسة البنك في الخرطوم وسوف يصدر لهم التوجيه. فعلت وقد فعل. ولكنهم منذ الوقت (١٩٩٧) لم يفعلوا رغم تذكيره لهم. وأقسمت عليه في لقاء بعد ذلك بألا يفعل لأنه قطعاً لديهم (رأي) وعليه وعليّ احترامه. وعندما حزمت وبدأت تيسر كل شيء والحمد لله.. كذلك تفضل عليّ الأخ العزيز فريد عمر مدني سكرتير مجلس إدارة شركة سكر كنانة برجاء أن أكتب هيكل المسيرة وأبدى استعداده لكي يقوم بمهمة صياغة ما أكتبه وستتولى الشركة مقابلة (إلى.. وإلى... وإلى..) ولكني اعتذرت له وشكرته وبأني سأتولى بقدر ما أعرف أمر الصياغة. وبحمد الله لم أتلق عرضاً بعدهما من أي جهة واكتفي الجميع- مشكورين- بحق التشجيع الأدبي والمعنوي. وكلاهما زاد له أهميته قبل أن يكل القلب فيعمى فقد جاء في الأثر: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت. وبعد الراحة قليلاً أبدأ في (القنيص- أو القنص أو البحث عن مورد) وبحمد الله وجدت عند البحث في (الدفاتر القديمة) التي يلجأ إليها (التاجر عندما يفلس) كما يقولون عدة مصادر: كل منها أوصلني إلى مرحلة ولم أتوقف بحمدالله: إلى أن وصلت بالمسيرة إلى ما وصلت إليه. فالشكر لله والشكر للجميع.

اخترت اسم (المسيرة) وهو بحق مسيرة إلا أن الوالد الكبير أمين التوم قطب الانصار وحزب الأمة قد سبقني في اختيار الأسم لمذكراته فكان الأمر (مذكرات إبراهيم منعم منصور) وتقبلته.

المشهد الثاني
القاهرة، الرحاب

في هذا اليوم يسر لي الله أن أبدأ كتابة هذه الذكريات وهذه المذكرات بعد أن هممت بذلك أكثر من مرة. وقد بدأت في التفكير في الكتابة في أوائل سبعينات القرن العشرين عندما دخلت حياتي منعطفاً جديداً لم أكن قد خططت له: وهو أداء القسم وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية في أول وزارة لثورة مايو ١٩٦٩م بعد الاستفتاء على اختيار جعفر محمد نميري رئيساً للجمهورية في سبتمبر ١٩٧١م: ذلك الاستفتاء الذي جاء بعد هزيمة ثورة التصحيح بقيادة الرائد هاشم العطا (١٩-٢٢ يوليو ١٩٧١م) في يوم ٢٢ يوليو ١٩٧١م والذي عرف فيما بعد باسم يوم العودة.

كان أداء القسم صباح يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٧١م في القصر الجمهوري الذي أصبح اسمه قصر الشعب. حياتي قبل ذلك التاريخ كانت خاصة بي: بعده أصبحت(شخص عام) والشخص العام في مجتمع السودان، وربما في البلاد، كتاب مفتوح.

يبدأ الجميع دون استثناء في تقليب صفحاته. من هو ؟ من أين جاء؟ كيف نشأ ؟ كيف تم اختياره؟ وما هو العمل الذي كان يشغله ؟ متزوج من أي أسرة؟ أله أطفال؟ أين يسكن ؟ أملاكه... وسوف أحاول أن أشفي - بقدر الإمكان- غليل الجميع كما يقولون.

كل مجموعة وربما كل فرد في مجتمع السودان له اهتمامات ببعض أو كل ما سردت. ولهذا سوف أبدأ بتسطير هذا الجزء الخاص من الكتاب المفتوح قبل دخول العمل العام وسوف لا ابتكر نهجاً جديداً بل أسير فيه بطريقة تقليدية متتبعاً خطواتي حتى أصل إلى اليوم الفارق: يوم أداء القسم.

ثم أدلف بعد ذلك إلى الجزء الثاني من المسيرة: هذه المذكرات أو الذكريات وأترك من يتصفحها أن يحكم أي الجزئين أحب إليه إن كان ثمة فائدة في أي منهما.

ويقيني أن المستهدفين في أي منهما أو في كليهما يهمهم أن يعرفوا ما دار في هذه المسيرة: غثاً أو ثميناً.

عندما تفتحت مداركي للحياة وجدت نفسي في دار كبيرة (حوش) به عدد من القطاطي بعضها للسكن وتتناثر على بعد أمتار من بعضها البعض تحيط بها أسوار قصيرة من قصب (النال) وبعضها للضيوف منفصلة تماماً بسور له باب عن أماكن السكن ويتوسط الإثنين سكن خاص لصاحبه، ويسمى المكان اختصاراً (حوش الشيخ).

البلدة تسمى صقع الجمل. وإختصاراً أيضاً (الصقع) وتعود التسمية كما علمت إلى أنها كانت عاصمة لقبيلة (حمر) التي أنتمي إليها في القرن التاسع عشر قبيل المهدية أثناء حكم الناظر إبراهيم ود المليح وكانت الجمال تنوخ فيها وتجتر كعادتها ثمار شجرة (الحميض) وكذلك النباتات وترمي بهما من فمها (أو تصقعها) كما يطلق عليها.

ومن كثرة صقع الجمل في تلك القرية جاءت التسمية (صقع الجمل) . غير أن الناظر منعم منصور بعد أن استقر قليلاً في الصقع حيث تولى قيادة القبيلة في عام ١٩٢٧/ ١٩٢٨م رحل إلى مدينة (النهود) حيث المركز الإداري الذي به قادة الحكومة ممثلو الحكم الثنائي (البريطاني المصري) وأسس داراً جديدة هي(حوش الشيخ) الحالي.

بقيت والدتي في الصقع ومعها بجانبي أكبر بنات الشيخ (عازة) والتي لقبته القبيلة بعد ولادتها باسم (أبو العازة) وأكبر أبنائه من بعدها (منصور) ثم فاطمة والتي ولدت يوم تنصيبه ناظر عموم دار حمر فأطلقت القبيلة عليها لقب (الملكة) إذ قالوا أن شيخ منعم يوم

أصبح (ملك) ولدوا له (ملكة). ولا يزال اللقب سارياً عليها ونسى الجميع اسم فاطمة. و(الملكة) هي والدة المرحوم عوض الله حسين وإخوانه مصطفى وإسماعيل (أزهري) ومحمود (المليجي) وعبد الرحمن ووالدة السيدة إحسان حسين زوجة السفير محي الدين سالم وأختها عواطف.

تزوجت (العازة) الشيخ إبراهيم ناصر محمد الشيخ ناظر قسم حمر العساكرة وتركتنا وسكنت (أبوزبد). ثم تركنا(منصور) وذهب للدراسة في مدرسة النهود الأولية وبعدها إلى مدرسة الأبيض الوسطى.

كان لوالدي مزرعة كبيرة تعرف باسم (زرع الشيخ) يقع شمال الصقع كما كانت لديه أعداد من الأبقار والضأن ترعى حول الصقع. وأخرى من الإبل ترعى أو (تنشق) مع إبل أحد أصدقائه ويدعى(أحمد ود حدير باوي) من فرع القبيلة الذي يسمى(الجخيسات) والذي ينتمي إليه رجل القانون جبر الله خمسين وكان الشرتاي في ذلك الوقت والد مولانا جبر الله. وله قصة وفاء جديرة بالتأمل لابد من روايتها حتى في هذا الوقت المبكر من الذكريات.

بعد قرار تصفية الإدارة الأهلية في عام ١٩٧٠م جاء إلى السودان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة في أول زيارة له كرئيس دولة إلى دولة أخرى. وتم تنظيم استقبال كبير له بمدينة الأبيض عاصمة مديرية كردفان حشدت له القبائل بالإبل يتقدمها زعماؤها على هجن أصيلة وعلى ضرب (النحاس) رمز القبيلة وقد كان أكثر الفروع الثلاثة أنعاماً الذي لم تطاله تصفية الإدارة الأهلية في قبيلة حمر أن يكون في المقدمة ورئيسه الشرتاي خمسين فضيلي. الفرعان الآخران هما بني بدر والصبحة. وشكراً للاخ مرحب لإفادته ولكن الشرتاي خمسين رفض أن يذهب إلى الأبيض وأن يتقدم القبيلة

(ويدق) النحاس و(شيخ منعم حي) إذ إن في ذلك عدم وفاء منه وإذلالاً للقبيلة. كل المسئولين بالأبيض، عسكريين ومدنيين، لم يقنعوه ثم انضم إليهم (شيخ منعم) ولم يقبل. وأخيراً حاولوا (شيخ منعم) أن يذهب لاستقبال ضيف البلاد على مقدمة القبيلة فرفض إذ إن الحكومة قامت بتصفية الإدارة الأهلية وليس له موقع رسمي يسمح بذلك. ولما كان اشتراك قبيلة حمر هاماً للاستقبال فقد أقنع أحد المسئولين (شيخ منعم) بأن يسمح لابنه الأكبر ونائبه منصور أن يتقدم الركب خاصة ولأن شرتاي خمسين قبل بالحل الوسط وقد كان.

كنا نعيش في هدوء وتحيطنا رعاية من والدتي (الحاجة أم بريمة) وأختها فاطمة التي أطلق عليها لفرط حلاوتها(عسل قضيم) وزوجها ابن خال والدي (عثمان جمعة) أو كما نسميه (عتمان).

على الشرق من حوش الشيخ يقع (حوش الشرتاي بخاري علي) شرتاي منطقة الصقع وعلى الجنوب مساكن متناثرة لأقاربنا وأقارب الشرتاي بخاري. على الشمال حوش الشيخ (منصور إسماعيل) وهو ابن ناظر حمر المعروف باسم (إسماعيل قراض القش) وهو رئيس محكمة الصقع وتقع الشفخانة بين حوش الشيخ وحوش الشيخ منصور.

شرق حوش الشيخ منصور كان يقع ميدان كبير في نهايته القصوى السوق وبقربه (الدونكي) وهي بئر حفرت مع تنصيب الشيخ منعم في عام ١٩٢٨م ظلت تسقي الأنام والأنعام حتى اليوم. غير أن الميدان الكبير الذي كان فضاء ما لبث أن دبت فيه الحركة وعلمنا أنه سوف تبنى فيه (مدرسة صغرى) تتكون من فصلين لتعليم أبناء القرية والقرى التي حولها القراءة والكتابة والحساب والقرآن. وسوف تلحق بالمدرسة داخلية للأولاد الذين تبعد قراهم عن الصقع.

كان ذلك كما علمت في عام ١٩٣٨م أو ١٩٣٩م. كنت وقتها صغيراً ومع ذلك أذهب صباحاً إلى (المسيد) الذي يشرف عليه الشيخ إبراهيم الدسوقي التاجر الكبير ووالد المرحوم أمير إبراهيم والدكتور الدرديري إبراهيم.

وفي المساء أذهب مع (الريح) ابن أخت (عثمان جمعة) زوج خالتي إلى مسيد (فكي عمر العوض) والد المرحوم التجاني عمر والمهندس عبد المنعم والتاجر أيضاً في الحي الشمالي الغربي.

كان أبي يزور الصقع في بداية فصل الأمطار وهو إجازة المحاكم ويشرف على الزراعة ويتفقد القطعان وتبدأ عملية (الزراعة، رمي البذور في الأرض) وعملية (الحش، نظافة الحشائش) التي تنمو مع هطول الأمطار وكذلك عملية (قطع وجمع ودق قناديل الدخن) وهو القوت الرئيسي. تبدأ كل واحدة من هذه العمليات بالنفير. و(النفير) هو استنفار جماعي لكل أهل القرية والقرى المجاورة أحياناً للعمل جميعاً في مزرعة شخص واحد، ثم يتحولون إلى آخر وثالث وهكذا حسب ترتيب يتفقون عليه وفق المساحات والمزارع المتجاورة. ويبدأ الجميع بزرع الشيخ، ووفقاً لإمكانيات كل شخص ومساحة زرعه يكون نوع وعدد الذبائح بدءاً بالتيس من الماعز إلى الخروف والعجل.

يبدأ العمل مع الشروق ثم الإفطار قبيل الزوال ثم وليمة كبرى قبيل الغروب غالباً ما تصاحبها (مريسة) أو(عسلية) أو كلاهما ويعود الجميع شبعى منتشين. والمريسة مشروب من الدخن أو الذرة يعطى أحساساً بالشبع وإنتشاء لا يرى القوم فيه بأساً ربما حتى اليوم.

وفكرة (النفير) لا تقتصر على الزراعة وحدها بل تشمل أيضاً كل عمل يستقطب فيه جهد الجماعة كبناء المنازل أو داخليات الطلبة أو منازل المعلمين. أما تحديد مسار الطرق بين

القرى الكبيرة ثم نظافتها من الحشائش والأشجار: تلك الطرق التي تربط في الغالب بين القرى التي بها رئاسات للمحاكم الأهلية وتسلكها قوافل وسيارات الحكومة أو اللواري التجارية وفي سبيل نظافة هذه الطرق تتولى الإدارة الأهلية استنفار سكان القرى التي تمر بها بحيث تقوم كل مجموعة بنظافة منتصف الطريق إلى المجموعة الأخرى وهكذا إلى أن يتم تحديد مسار الطريق والذي يصبح في حد ذاته ما يسمى(خط النار) أي الحاجز للنار التي تنشب من أن تنتقل من منطقتها إلى أخرى.

هذه العملية كانت تحظى بمكافأة رمزية من المجلس الريفي للشرتاي في كل منطقة ولمشائخ القرى وسكانها. كما كانت تجد استحساناً أدبياً من مسئول مصلحة الغابات. غير أنها للأسف الشديد تم إلغاؤها بقرار من الخرطوم عام ١٩٦٥م أصدره مسئولو ثورة أكتوبر ١٩٦٤م باعتبار أن هذه(سخرة) لا تساوي مكافأتها جهد العاملين ناسين الفائدة القومية التي عادت في الماضي وتعود للبلاد وللمنطقة في الحاضر من تيسير النقل ودرء آثار النيران. ربما كان القرار الإيجابي هو زيادة المكافآت ما أمكن.

عمل مماثل كان يباشره الناس بإشراف رجل الإدارة الأهلية وهو الشرتاي، في أغلب الأحيان (شيخ الحلة) الذي هو أدنى منه مرتبة نظافة وتعميق الحفائر الكبيرة التي تسقي عدة قرى خلال فترة من الزمان بعد فصل الأمطار. (الرهد) كما يطلق عليه منخفض طبيعي تتجمع فيه المياه المطرية من عدة مجاري (خيران) وتستمر مياهه وفقاً لحجمه ووفرة الأمطار عدة شهور. كان العمل تطوعياً كالعادة ولا يستغرق أكثر من (ضحوة) عدة ساعات بعد الشروق ولا يحظى باحتفاليات كبيرة مثل (النفير في الزراعة) وقد كنت أشهد غالبية هذه الأعمال الجليلة التي يصحبني إليها (عم عثمان، أو عم عتمان) كما كنا نناديه.

وقد كان له نفوذ اجتماعي كبير بصفة القرابة التي تربطه بالشيخ، وبصفته المشرف على زراعته وأنعامه وإدارة (الحوش) في غيابه بالنهود. وبصفته (عديله) في خالتي والتي لم ينجب منها فتزوج عليها وأنجب عبد القادر أحد كبار ضباط الجمارك في بورت سودان وحسين المزارع الكبير صاحب الأنعام في قرية (بوطة) التي تنتمي إليها والدته وتقع في الطريق بين الصقع وغبيش.

لم يكن هناك طفل في عمري بالحوش إلى أن أحضر والدي في إحدى زياراته لنا ولداً يقاربني في العمر اسمه عبدالرحمن. وقد أخبرني إنه أخي من زوجة له في النهود تدعى (فاطمة كتيرة) وكثيرة لقب عرفت به لكرمها وحسن تعاملها طوال حياتها.

وهنا علمت أن أم عبد الرحمن ليست هي زوجة أبي الوحيدة بالنهود بل له زوجة أخرى تدعى (أم النصر) وهي ابنة عمه الناظر إسماعيل محمد الشيخ الشهير باسم قراض القش. وزوجة رابعة من قرية (تربة حمراء) شمال شرق النهود رزق منها بابنة واحدة هي (روزة) والدة معتصم علي المدير خبير التأمين بالمملكة العربية السعودية وافترقا بعد ولادتها.

وعلى عكس (حواء أبو نوفة) والدة روزة فإن (كتيرة) من الأبيض أهل والدها من (العسيلات) ويمت أهل والدتها بالقربى لآل عتباني، وهي الوحيدة حتى ذلك الوقت من غير قبيلة حمر إلى أن انضمت إلى الأسرة (بلالة) بنت الشيخ محمدين أحد كبار شيوخ الطريقة الإدريسية بحي ود أرو بأم درمان وله ضريح في مقابر أحمد شرفي.

نعود لأخي عبد الرحمن الذي قضينا معه أوقاتاً طيبة في اللعب والمزاح وقد كان شجاعاً ودوداً إلى أن استلقى يوماً على الفراش مريضاً بحمى شديدة لم يفلح المساعد الطبي

في علاجها فقضى نحبه بين حزني ودهشتي إذ كنت أعتقد أن الموت والمرض الذي يفضي إليه من شأن الكبار.

وما هي إلا شهور وقد جاء والدي في بداية موسم الأمطار ليحضر بداية الزراعة كعادته حتى فجعت في والدتي التي أصابتها صاعقة في يوم مطير وقضت عليها وأنا وأختي الملكه جالسان بقربها نرتعد من الصوت المدوي والنور الأبيض الساطع الذي لمع أمامنا. وفي لحظه رأيناها ترفع أصبعها السبابة إلى أعلى وتقع على الأرض.

جرينا إلى بيت خالتي الذي يقع على بعد أمتار من منزلنا داخل الحوش الكبير وصفنا لها المشهد بقدر ما سمحت به أنفاسنا المتلاحقة فعادت معنا وصرخت واجتمعت حولها النسوه من داخل وخارج الحوش وأرسلت من يخطر والدي وزوجها وهما في الزرع الكبير.

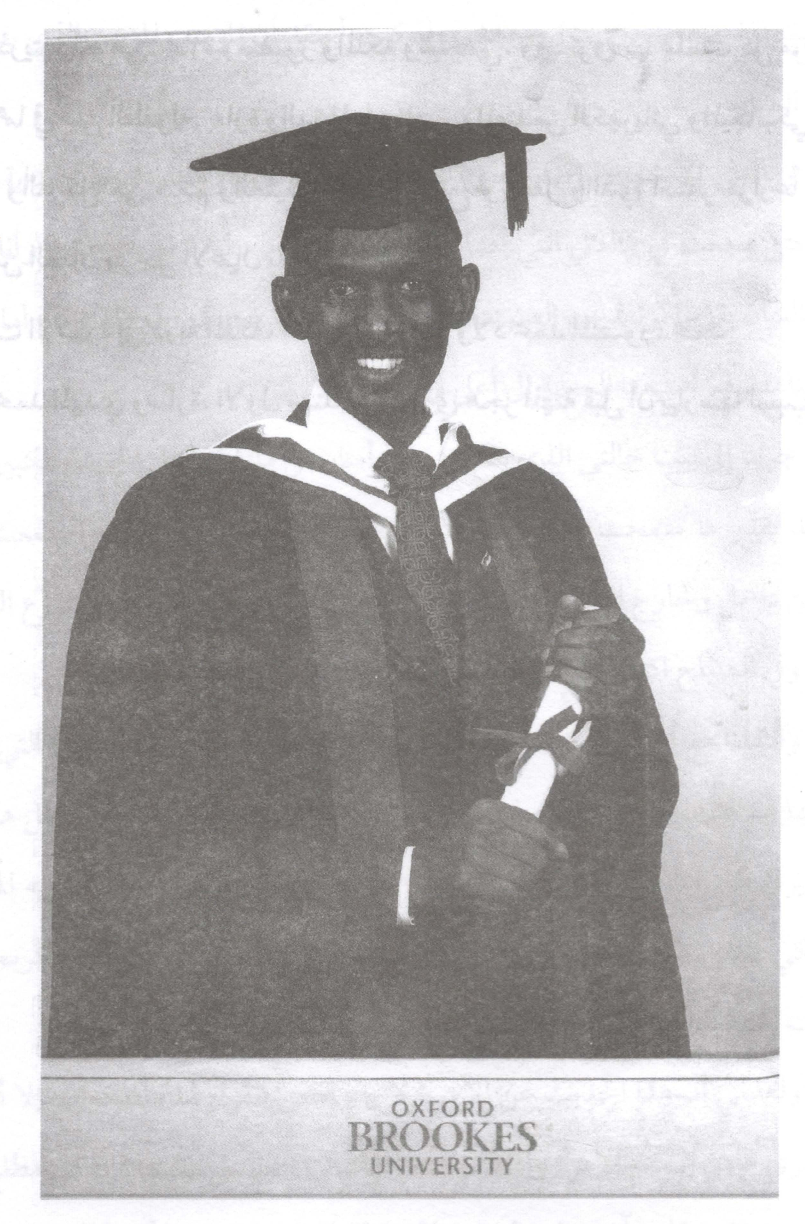
وفي الصباح اكتشفت أن والدتي لحقت بأخي عبد الرحمن : ماتت.

وانتقلنا مع أختي الملكة من المنزل المشؤوم إلى السكن مع الخالة العزيزة التي شملتنا مع زوجها عم عثمان بحنان لا يوصف وكنا كلما رأينا أو سمعنا صوت أمطار تهطل هرعنا إلى سريرها يرقد كل منا على جنب ملتصقين بها لحمايتنا إلى أن جاء يوم غادرتنا فيه الملكة إلى النهود لكي تتلقى مبادئ التطريز والحياكة والتدبير المنزلي على يدي الوالدة الكريمة كتيرة التي كانت المتعلمة الوحيدة بين زوجات والدي في ذلك الوقت.

ولعلمي أن هذا الحديث عن الأسرة لا يهم بعض القراء لهذه المذكرات إلا أن هناك طائفة أخرى فيمن يهمهم الأمر. وإذا قدر لهذه المذكرات أن تصل نهايتها فإن كل مطلع عليها سوف يجد مبتغاه ويقلب آخرون صفحات لا علاقة لها باهتماماتهم. الأسرة المباشرة، وليست الممتدة، كبيرة والحمد لله ماشاء الله.ولقد ذكرت والدتي الحاجة أم بريمة وهي أولى زوجات

والدي وذريتها منه هي: عازة ومنصور والملكه وشخصي. وقد توفى كما علمت كل من عزيزة ومكي وهما في سن الطفولة. عازة والدة المعلم ناصر والمهندس الكهربائي والميكانيكي مرشد ومنصور والد كل من منعم والعقيد المتقاعد الفاتح وجعفر والذي استقر مزارعاً ومالكاً لقطعان من الضأن ورجل الأعمال بالنهود خالد.

وقد سبقت الإشارة إلى ذرية الملكه، أما أنا فلي من الأولاد محمد المنصور، محمد المأمون، محمد المهدي وسارة. الأول مهندس معماري هجر المهنة قبل أن يمارسها لسبب



محمد المنصور- الابن الأكبر – يوم حصوله على درجة الماجستير من أوكسفورد جامعة بروكس في ديسمبر ٢٠١١م- الصورة أخذت في مهرجان التخرج في يونيو ٢٠١٢م

سياسات حكومة الإنقاذ في الخدمة الإلزامية التي قضاها قبل دخوله الجامعة، والثاني تخصص في تقنية المعلومات ولم يمارسها إلا لفترة محدودة ثم اتجه إلى البرمجة الإذاعية والتلفزيونية. والثالث ظل وفياً لمهنة الإدارة والمحاسبة منذ تخرجه الأكاديمي. وبالمثل لم تترك أختهم سارة مهنة الهندسة المدنية التي تخصصت فيها رغم حصولها على ماجستير الإدارة. ثم تزوجها صلاح بن الخليفة علي بركات بالعيلفون.

والزوجة الثانية هي أم النصر والدة إسماعيل و محمد الشيخ وأحمد وآمنه وأسماء ونفيسة، ثم (حواء أبو نوفة) والدة روزة، ثم الثالثة دار السلام والدة حليمة وعلي وأم فرسان وعشة والماحي. وقبل أن استرسل فإن إسماعيل ومحمد الشيخ وأحمد وروزة وحليمة كلهم يكبرونني سناً. وكنت أتعجب وأنا في الصقع كيف عندي كل هذا النفر من الإخوة والأخوات وأنا لا أعرف منهم إلا عبد الرحمن. ومن كتيرة كانت سيدة وعبدالقادر وحامد وعدوية ورقية وسعاد.

إسماعيل كان مساعداً للضابط الإداري في مجلس ريفي حمر ومحمد الشيخ شرتاي في الصقع وأحمد نائب أمير قبائل حمر. وآمنه والدة المحامي صلاح الدين محمد صالح وحسن المحاسب ووالد كل من خبير وأخصائي الأعصاب والمخ ناصر وتوأمه ياسر مهندس الإنشاءات. ثم الأخت أسماء التي أثار اسمها العديد من التعليقات في أوساط الحوش إذ كان جديداً تماماً على المسامع في تلك الأيام.

وكما أسلفت فإن روزة والدة خبير التأمين معتصم علي إبراهيم المدير، وحليمة والدة كل من المهندس والضابط المتقاعد عبد المنعم أحمد جحا وكذلك الماحي أحمد جحا المهندس الزراعي ورجل الأعمال والطبيب حيدر. وبعد حليمة كان على خبير النسيج المتقاعد ومن

أعيان مدينة الدروشاب بالخرطوم بحري وأم فرسان والدة المصرفي عبد الرحمن علي عبيد الله ثم الماحي رجل التعليم المتقاعد وإمام مسجد والده بالنهود وعائشة زوجة الشرتاي أحمد المحبوب ووالدة محبوب رجل الأعمال.

أما سيدة فهي زوجة عبد الرحمن عمر أول نائب من دار حمر عن الدائرة الشمالية في البرلمان السوداني الأول الذي أعلن الاستقلال ومن رجالات حزب الأمة وتولى قبيل تقاعده مهمة ضابط التسوية لأراضي مشروع سكر عسلاية. وعبد القادر هو أمير قبائل دار حمر وأمير أمراء السودان ورجل الإدارة الأهلية اللامع. وكان حامد آخر باشكاتب لمركز النهود قبل تصفية المراكز فانتقل إلى مجلس ريفي دار حمر وعدوية هي زوجة البرلماني رجل حزب الأمة اللازم الزين مردس.

أما زوجته (بلالة) بنت الشيخ محمدين الإدريسي فقد أنجبت له (محمدين) رجل الأعمال والقرشي خبير علم النفس بالإمارات وعمر القانوني بالإمارات وعبدالحميد وزير الصحة بولاية شمال كردفان ممثلاً للحركة الشعبية لتحرير السودان قبل انفصال دولة جنوب السودان ومحمود الذي يعمل بالتجارة في النهود وعبدالعزيز الميكانيكي.

ومن البنات نور زوجة قاضي المحكمة الشرعية العليا عبدالله محمد أحمد كبير وإخلاص زوجة الدكتور أحمد علي محمد عبيد الله الوزير الإقليمي ورئيس مجلس ولاية شمال كردفان وعلوية زوجة قطب حزب الأمة التجاني إبراهيم ناصر.

كان والدي يحتفظ في العادة بثلاث او اربع زوجات رزق منهن جميعا بالولد أو البنت أو كليهما إلا في حالتين سرحهما بإحسان. وله من زوجته (أم أخوان) بنت واحدة هي (جدية) المتزوجة من محمود صلاح بخاري أخ السفير أحمد صلاح بخاري وله زوجته

(مادريتي) الطاهر الوحيد في ابنائه الذي نال تعليماً فوق الجامعي بدرجة الماجستير من جامعة (بونا) بالهند ثم أبوبكر المعروف باسم (بكري) ومن البنات أرض الشام زوجة رجل التعليم التجاني حمد داوود واقبال وكلثوم.

وكانت آخر زوجات والدي(حواء) رابح خلفت له ناصر الفني الكهربائي في العين الإمارات ومن البنات فتحية وسمية ويسرى وإسراء ومروة وقد كن صغيرات وكذلك ناصر وقد أوصانا بهم خيراً عند وفاته عليه الرحمة في عام ١٩٨٠م، هذه هي الأسرة المباشرة وقد كنت التاسع في ترتيب البنات والأولاد والخامس بين الأولاد.

تم اكتمال بناء (مدرسة صقع الجمل الصغرى) وجاء المدرس الوحيد ونزل معنا ضيفاً في الحوش لأنه كان غير متزوج. وظل اسمه محفوراً في ذاكرتي إلى أن توفاه الله عام ٢٠٠٩م ألا وهو طيب الذكر المرحوم التجاني محمد زين.

وافتتحت الدراسة عام ١٩٣٨م بفصل ضم تلاميذ كباراً في السن أغلبهم فوق الثانية عشرة وكانوا (حيران) مبرزين في مسيد الشيخ الدسوقي أو فكي عمر واستهوت أهلهم فكرة المدرسة وأقبلوا عليها بشغف. وكنت في الرابعة من عمري واعتبرت صغيراً على المدرسة رغم أني كنت ارتاد المسيد صباحاً ومساء في صحبة الأخ (الريح) والذي انضم للمدرسة وتركني أذهب وحيداً في الصباح إلى مسيد الشيخ الدسوقي.

ولكن الأستاذ التجاني، وكنا نسميه شيخ التجاني وهو لقب كل مدرسي المدارس الأولية بدأ بعد عودته من المدرسة يعلمني (الحساب) إذ وجد أن عندي مبادئ بالكتابة وببعض قصار سور القرآن.

ومع بداية السنة الدراسية الثانية التحقت بالمدرسة وقد كنت مزهواً بوضعي الجديد إذ أصبح لي طقم ملابس للمدرسة مكون من إثنين جلابية دبلان أبيض وإثنين (عراقي) للألعاب خاصة كرة القدم والتي لم أبدأ ممارستها وسط كبار التلاميذ والذين انضم إليهم بعض شباب الصقع. كذلك أصبحت لي (شنطة) من الدمورية أضع فيها (كتاب الأطفال) وجزء عم من القرآن الكريم وأحياناً يسمح لي شيخ التجاني بإحضار (لوح الأردواز) وقلم (الأردواز) لكي أتلقى تعليماً إضافياً في المنزل.

كما ذكرت فإن شيخ التجاني كان المدرس الوحيد وكان يقوم بتدريس ثلاث حصص في اليوم للفصل الواحد: حساب، لغة عربية ودين.

وعندما أصبح لديه فصلان في السنة الثانية كان يستعين ببعض كبار تلاميذ السنة الثانية ممن كانوا متقدمين في حفظ القرآن في المسيد يساعدونه في تدريس اللغة العربية أو الدين لتلاميذ السنة الأولى.

ولا أذيع سراً، فقد أفشيته من زمن، أن أحد هؤلاء التلاميذ المدرسين كان الدكتور الدرديري إبراهيم علي (الدسوقي) ابن التاجر الكبير الشيخ الدسوقي صاحب المسيد بالصقع، وكان معه أخوه الأكبر، أمير، والذي كان يساعد بدرجة أقل لانشغاله بمساعدة والده في المسيد وفي التجارة.

ولحسن حظنا في المدرسة، على عكس المسيد، لم يكن شيخ التجاني يجلد تلاميذه بل كان ودوداً ناصحاً حبب إلى الجميع الدراسة لهذا لم يجد شيخ الدرديري فرصة لكي يجلدنا رغم الأخطاء التي تبرر ذلك فنجونا من يده ومن سوطه ولكن لم ينج أحد من لسانه.

ونسبة لعدم وجود مدرسة للبنات، بل لم توجد أبداً في دار حمر مدرسة صغرى للبنات، فقد سمح شيخ التجاني لأولياء الأمور الذين لديهم بنات صغيرات أن يلتحقن مع الأولاد في نفس الفصل لتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والدين خاصة أن البنات لا يلتحقن بالمسيد وقد استجاب البعض وكان لدينا على ما أذكر ست زميلات، يجلسن في آخر الفصل، وأفاد التعليم واحدة منهن وأصبحت (داية).

بانتهاء السنة الثانية علمت من شيخ التجاني أني، وشيخ الدرديري، سوف نذهب لتكملة الدراسة في مدرسة النهود إذ إن المدرسة بالنهود بها أربعة فصول وليس سنة أولى وثانية مثل المدرسة الصغرى.

وعندما وصلنا لمدرسة النهود أجري لنا امتحان كانت نتيجته أن ألحق شيخ الدرديري بالسنة الرابعة رأساً لتميزه الواضح وألحقت بالسنة الثالثة.

وقد كان بالنهود مدرستان: مدرسة شرقية وتقع شرق المدينة ويدرس فيها أبناء النهود والمدرسة الغربية ويدرس فيها التلاميذ الذين يأتون من القرى المحيطة بالنهود في الغالب الأعم وبها داخلية لمن ليس له أقارب في المدينة.

عند وصولي للنهود كنت في غاية الانبهار رغم إني ودعت بالبكاء والدموع من خالتي وعم عثمان والريح، ورغم حزني لفراقهم وفراق أصحاب المدرسة والمسيد وفراق شيخ التجاني إلا أني وجدت أشياء جديدة ومثيرة. معظم المباني من الطوب، ومباني الحكومة (المركز) من الحجر والطوب الأحمر، وكذلك السوق، وسوق الطاحونة، والأذان، و(النوبة) كل ليلة جمعة وليلة إثنين، المدرسون على خلاف شيخ التجاني يلبسون(القفطان)

ويعضهم(عباية) وواحد فقط(رداء وقميص) تماماً مثل مفتش المركز وهو أستاذنا الجليل مهيد بانقا.

لابد من وقفة مع الدرديري: الأخ والزميل الدرديري إبراهيم كان كبيراً في السن بالنسبة لنا كما كان لديه، شخصية مميزة، وله نوادر بسبب ذلك أنه كان عندما يترك المدرسة بعد الدوام لا يلبس (العراقي والسروال) بصفتهما زي المنزل بل يلبس الجلابية والقفطان والعمة (القلووظ) كما كانت تطوى ويذهب عصراً إلى (نادي السلام) وهو النادي الذي أنشأه إداريو مدينة النهود عام ١٩١٦م من بقايا مواد بناء المركز والمسجد ومنازل الموظفين البريطانيين والمصريين والسودانيين.

وافتتحه الرحالة المصري (أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي لفاروق الأول فيما بعد) يأتي إليه التجار (الشوام، سوريون ولبنانيون لم يحضروا تقسيم الشام إلى سوريا ولبنان) والتجار اليونانيون ويعض أعيان النهود وموظفو المركز والمعلمون ومعهم الدرديري.

ولما كان (حريفاً) في لعب الدومينو فقد كان يتسابق الجميع لكي يكون زميلاً لهم رغم أنه عضو جديد. ويبدو أنه كان يقسو على الجانب المهزوم بلسانه المعروف فقد اختزن أحد أعضاء النادي صورته وكان يحاول اللعب ضده، غير أن هذا العضو تأكد أنه أحد تلاميذه خاصة بعد أن سمع صوته في إجابة على اللاعب في النادي، وبالطبع لم ينكر الدرديري أنه هو فانهال عليه الأستاذ تقريعاً ومنعه ليس فقط من ارتياد النادي بل أيضاً من ارتداء القفطان الذي يلبسه بعض المعلمين وكبار التجار.

النادرة الثانية للدرديري كانت مع اللواء أحمد عبدالوهاب نائب القائد العام للجيش السوداني وأحد أبرز رجال الجندية السودانية كانت الكلية الحربية تخرج طلبتها بعد سنتين

دراسيتين تقتصر فيهما كما يبدو على العلوم العسكرية البحتة. وأرادت قيادة الجيش أن تدخل علوماً حديثة كالاقتصاد والإدارة ودراسات متقدمة في الجغرافيا و.. فأعلنت عن حاجتها لخريجين جامعيين ممن نالوا تدريباً عسكرياً في المرحلة الثانوية (الكاديت) للتدريس بعد قضاء فترة عسكرية مدتها ستة شهور بالكلية الحربية.

اجتاز الدرديري مع زميل له كل الاختبارت وأخطروا بالذهاب إلى معاينة نهائية مع نائب القائد العام اللواء أحمد عبدالوهاب ويمكنهم في هذه المقابلة سؤال سعادته عن أي أمر لأنهم وفقاً للنظم العسكرية سوف لا يجدون مثل هذه الفرصة.

بادر الدرديري بأن (الجماعة ديل قالوا لينا الحد الأقصى الذي نصله في الجيش هو رتبة قائم مقام شرف، عقيد شرف) رد عليه سعادة اللواء بأنه إذا أراد أن يشير إلى أحد في الجيش فيتحدث برتبة (موش الجماعة ديل) ثم إلى أي رتبة يريد ان يصل. قال الدرديري بفصاحته المعهودة أنه يعمل في وزارة المالية والطريق أمامه فاتح إلى درجة الوكيل في المجموعة الأولى: يعني لواء في الجيش.. وقبل أن يسترسل قاطعه سعادة نائب القائد العام أنت ملكي ونوصلك قائم مقام (عقيد بلغة اليوم). ولسه عاوز تكون لواء في الجيش السوداني، دا ما يبقاش جيش، أنا لغيت الوظائف دي، أتفضلوا أطلعوا برة. مسكين الجيش السوداني لقد أكرم الله اللواء أحمد عبدالوهاب، إذ لم يحضر الزمن الذي أصبح فيه الملكي ليس فقط لواء بل فريقاً. المهم عاد أخونا الدرديري إلى المالية ثم البعثة وبنك السودان والدكتوراه والاغتراب.

ترى هل كان إذا استمر في الجيش، بآرائه وشخصيته، أن يستمر ليصل حتى إلى قائم مقام شرف دون أن يطاح به في انقلاب أو يطيح في انقلاب.

أنكر الدرديري هذه الرواية ونسبها إلى زملاء يمزحون مؤكداً أن (اللواء) عبود القائد العام هو الذي نصحه بعدم الخدمة في الجيش لقلة فرص المستقبل فيه بالنسبة له.

غير أن أهم ما استرعى انتباهي أن(الحوش) في النهود كله من الطوب وكذلك الغرف للسكن بالداخل وللضيوف في فنائه الواسع. بدلاً عن(الراكوبة) الكبيرة التي يتم فيها استقبال الزوار في الصقع. كان في النهود، ولا يزال ديوان تحيط به برندة دائرية وفي ركن بين الحوش الداخلي والخارجي برميل كبير يملأ يومياً بالماء الذي تحتاجه الأسر والضيوف من الآبار التي تقع شرق الدار.

وعند حضوري من الصقع كان داخل الحوش ثلاثة بيوت لثلاث زوجات: البيت (الصبحاني) أي الشرقي وبه أم النصر أكبرهن، والبيت (الريحاني) أي الشمالي وبه دار السلام والبيت (الغرباني) أي الغربي وبه كتيرة، وفي الوسط بيت أقل حجماً اكتشفت أنه بيت الحاج عبدالله وهو خالي لأمي. وكان ملازماً لوالدي منذ أن كان في قرية (أبو جفالة) قرب أبوزبد وقبل أن يتولى النظارة ثم سافر معه إلى صقع الجمل وجاء معه إلى النهود وكان المسئول عن إدارة الحوش واستقبال الضيوف وتأديبنا نحن الصغار.

تعرفت بعد وصولي إلى النهود على إخوتي الآخرين الذين لم أكن أعرفهم أو حتى أسمع عنهم وهم الكبار: إسماعيل ومحمد الشيخ وأحمد. والصغار حسن وعبد القادر وعلي والماحي وحامد وكذلك إخواتي روزة وحليمة وأم فرسان وآمنه وعائشة.

وكنت الوحيد الذي ليست له أم وسطهم ووضعت ضمن مجموعة أم النصر غير أني كنت أتلقى رعاية خاصة من فاطمة كتيرة وأيضاً من دار السلام وزوجة خالي عبدالله وسمعت لأول مرة كلمة يتيم.

وكانت خالتي قد حضرت لتطمئن على ترتيب إقامتي وذهابي للمدرسة مع إسماعيل ومحمد الشيخ وأحمد، تحت قيادة أحد أبناء القبيلة العديدين الذين يسكنون معنا في غير الداخلية واسمه حامد الناير، وسأتعرض لهذا الاسم عند كتابة قصة الغزو الليبي أو غزو المرتزقة عام ١٩٧٦م.

كنا نتسلم نحن الخمسة مبلغ خمسة مليمات أو نصف قرش للإفطار بالمدرسة ويقوم حامد الناير بشراء(اللقيمات والفول السوداني) وبطيخة صغيرة وغالباً ما يوفر مليم أو أكثر. ثم عادت خالتي فاطمة إلى الصقع ومعها أختي الملكة بعد أن تعلمت أسس الحياكة والتدبير المنزلي.

اندمجت في جو المدرسة بسرعة ساعدني عليه الإعداد الجيد الذي شملني به أستاذي شيخ التجاني فكان ترتيبي الثالث في امتحان النقل من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة.

لا أذكر من سبقني في المركز الثاني ولكن أول الفصل أبرز تلاميذه كان حامد سليمان موسى وهو من أبناء الحي الشرقي في النهود وكان كبيراً في السن فارع الطول لم يشفع له نبوغه في الالتحاق بالمدرسة الوسطى لكبر سنه فانخرط في سلك التعليم مدرساً في المدارس الصغرى وكانت بيننا ولا تزال مودة ويزورني كلما سمحت ظروفي بزيارة النهود ويسميني لصغر حجمي (أم سيسي) وهو اسم لفأر صغير في كتاب المطالعة أيامنا والمسمى (كتاب الأطفال) وأسميه (قرنتش) وهو اسم لقرد كبير في نفس الكتاب.

رشحني صغر حجمي لكي أكونن التلميذ الذي يتسلق على ظهور ثلاثة من زملائه في يوم الاحتفال بعيد جلوس ملك بريطانيا في ذلك الوقت واهتف ثلاثاً: يعيش جلالة الملك جورج السادس وتهتف الجماهير التي تحضر المناسبة من خلفي وبالطبع كان يتقدمهم مفتشون إنجليز ثلاثة

ومأمور المركز السوداني ونائبه وناظر عموم حمر وعمدة النهود. ويسبق الاحتفال ألعاب رياضية ومباراة في كرة القدم بين المدرسة الشرقية ومدرستنا الغربية ثم رواية توزع بعدها الجوائز.

وقد كان زملاء الدراسة في ذلك الوقت برزوا فيما بعد الدكتور الشيخ أحمد جحا والبروفسور عمر حسن جحا ورجل الأعمال محمد أحمد جحا المشهور باسم دقيس والشاعر الدكتور تاج السر الحسن وجميعهم من المدرسة الشرقية.

أما من المدرسة الغربية فقد برز الدكتور البيطري محمد البشير مفرح والبروفسور محمد أحمد الحاج وإبراهيم منعم منصور والإحصائي نعيم الله البشاري والدكتور عوض السيد مصطفى والقطب الاتحادي بشير محمد خير حسن (طلمبة).

وقد كان الناظر منعم منصور يتوقع أن يصل إلى المراحل الدراسية المتقدمة عدد أكبر من المدرسة الغربية التي تمثل أهل الدار أكثر من أهل المدينة النهود إلا أنه علم أن أكبر العقبات هو العمر المتقدم إذ إن الأهالي يحتفظون بأولادهم للمساعدة في رعي الأغنام والزراعة ما أمكن قبل أن يدفعوا بهم إلى المدرسة كما أن الفقر يحول دون متطلبات التعليم من ملابس ومصاريف.

وكان من نتيجة ذلك أن دعا إلى (مال التعليم) وهو نصف قرش ارتفع إلى قرش ثم قرشين يجمع من كل من هو في كشف ضريبة القطعان لتيسير تعليم أبناء المنطقة وهو ما آمل أن أتعرض إليه بتفصيل أكثر عند الحديث عن الإدارة الأهلية.

بانتهاء العام الدراسي الثالث وزعت علينا في المدرسة كراسة أنيقة مبوبة على أيام أسابيع شهور الإجازة الثلاثة اسمها (المدونة الطبيعية) وشرح لنا الاستاذ مهيد أستاذ

(الطبيعة) أن نرصد كل يوم بعض الظواهر الطبيعية مثل اتجاه الريح،السحب، الأمطار: خفيفة أو متوسطة أو غزيرة، حرارة الجو: حار، بارد...إلخ.

وبعد عودتنا قام الشيخ مهيد بانقا بالاطلاع على المدونة وكتب تعليقاته لكل تلميذ حسن، ردئ، اجتهد أكثر.

ولما كبرنا تعجبت كيف أننا في تلك المرحلة كان التعليم الأولي (الأساس) بهذا المستوى في أوائل أربعينات القرن العشرين، ليس هذا فحسب بل أننا قبل وبعد نهاية السنة الدراسية نسير في طابور: كل فصل في يوم إلى مستشفى النهود حيث يتم فحص البول لكل تلميذ، ويكشف عليه (المساعد الطبي) أو الحكيم باشا (الطبيب) بالسماعة ثم يعطي كل منا جرعة من شراب (الكينا) للوقاية أو العلاج من الملاريا.

ثم يتم التطعيم (مرة واحدة) ضد (الجدري) أما التلميذ الذي يشعر بأي مرض فيعطى (دفتر أورنيك مرضي) يذهب به إلى المستشفى يتعرض فيه إلى كشف دقيق ويكتب الطبيب تعليقه: إما دواء شغل، أي منح الدواء ويعود للدراسة أو: راحة أو: يحجز بالمستشفى للعلاج.

كانت الإجازة في الصقع هذه المرة حافلة بنشاطات جديدة فقد رأى عم عثمان أني قد أصبحت رجلاً أصحبه إلى السوق كل يوم جمعة ويوم اثنين، كما أصحبه إلى (الدونكي) عندما تأتي أنعام الأسرة للشراب.

وعندما يحين الوقت للمشاركة في(نفير) حفر(رهد) أكون من المشاركين ويقدمني لأهل المنطقة. وعادة حفر الرهد كانت ممارسة بشكل دقيق ومسئول من كل المواطنين القادرين. وكان حول الصقع أربعة حفائر أو رهود. والرهد منخفض طبيعي تتجمع فيه مياه

الأمطار وبعد جفافه وقرب نزول الأمطار يتم إزالة الرمل والطين والأشجار والحشائش منه ومن (الخيران) التي تجلب له الماء.

وقد كان أصغر الرهود هو رهد صقع الجمل، يليه إلى الجنوب قليلاً رهد قرية (أبوعشار) وبقربه آثار آبار (ود المليح) التي اندثرت. ويبعد عنه جنوباً بقليل رهد قرية (بوطة) وإلى الشرق منه أكبرها جميعاً رهد قرية (أم دباللو) ويستمر الماء متوفراً في هذه الحفائر عدة شهور بعد الخريف.

وقد علمت أنه قد هجر الناس هذه العادة الحميدة ولم يتم تطوير واستغلال هذه الحفائر بطريقة علمية حديثة إذ وصفها البعض ضمن ما وصفوا من حميد العادات والعرف بأنها (سخرة).

وفي محيط الأسرة فإنه عند عودتي إلى الصقع بعد إجازة السنة الدراسية الثالثة وجدت أنه قد بنى داخل الحوش منزلان جديدان واحد لجدتي (فطومة) وآخر لخالتي(حواء) وزوجها جمعة سالم. وقد جاءت فطومة جدتي لأمي ومعها خالتي، ولم أكن أعرفهما أو سمعت بهما من قبل، من قرية (ابوجفالة) من ضواحي أبوزبد كما أسلفت لتكونان بجانبنا.

وقد كانت جدتي ذات مال وفير تمثل في عدد الأبقار التي صاحبتها وعدد من الماعز التي اشترتها في زمن وجيز عند عودتها لاعتقادها أن لبن الماعز أفضل للصغار والكبار من لبن الأبقار ولأن، وهذه حقيقة، سمن لبن الماعز لا يجمد مثل سمن لبن الأبقار.

وقد شاع أنها جاءت بكيس كبير من قماش (التيل) مملوء بالريالات الفضية فئة العشرين قرشاً. وعندما تقدمت في العمر قليلاً أكبرت فيها الروح التي جعلتها تصفي

زراعتها الكبيرة وتجارتها المتواضعة وتترك دار إقامتها الطويلة وتأتي لتكون بجانبنا في صقع الجمل بعد وفاة والدتي.

هذا بالرغم من أن الحوش في الصقع به أيضاً منزل جدتي لأبي (أم وادي) وكانت تحفنا أيضاً برعايتها وخاصة شخصي الصغير خوفاً من أن يكون مصيري مثل أخي الأكبر منصور الذي ذهب بعيداً إلى (دار الصباح) إلى الأبيض حيث التحق بالمدرسة الوسطى وقبلها إلى أبوزبد التي تزوج فيها قبل الذهاب إلى المدرسة الوسطى. زواج أبناء المنطقة بهذه الطريقة كان الأمر الغالب: فعلها محمد البشير مفرح ونعيم الله البشاري.

وتسكن مع جدتي (أم وادي) ثلاث بنات: كلتوم- عائشة- أم أخوان وقد علمت بأنهن حفيداتها من ابنتها الوحيدة وشقيقة والدي والتي توفيت قبل أن أولد. وكانت تقوم بتربيتهن إذ إن والدهن (محمد فرحنا) تركهن في رعايتها ويزروهم من وقت لآخر، إذ سكن لظروف عمله في النهود. عائشة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة (٢٠١١م). تسكن مع أسرتها في واد مدني حيث كان يعمل ابن عمتها وزوجها خبير التدريب المهني عبدالله آدم قبل وفاته. ونتزاور حالياً في الأفراح والأتراح.

حديث موجه إلى أفراد الأسرة والأهل ولابد منه وعذراً لمن لا يعنيه أو أضاع وقته.

وأنا أودع المدرسة (الأولية) بمدينة النهود لابد أن أذكر أن دخل علينا يوماً أستاذنا (الشيخ إبراهيم عمر عبد الرحمن) مدرس (العربي والديانة) وأفادنا بلغة مبسطة أننا جميعاً (سودانيون) وكلنا من آدم وآدم من طين ولا يريد أن يسمع منا أنه من (قبيلة) كذا أو كذا.

تعجبنا في البداية ثم رويداً رويداً حفظنا (الدرس) وأنه إذا سألنا أي شخص(جنسك شنو ؟ نقول سوداني). وكان يفاجئ بعضنا أثناء (الحصة) : فلان جنسك

شنو؟ فإذا أخطأ وذكر القبيلة نال (كفاً) ساخناً إلى أن أصبحنا جميعاً في الفصل (سودانيين)[1] ثم جاءنا رغم أنه ليس بمدرس (الجغرافيا) بقصيدة الأستاذ عبد الرحمن علي طه عن (سبل كسب العيش في السودان) وحفظناها إلى أن جاءتنا لاحقاً في درس الجغرافيا. لابد لي بعد سبعين عاماً- أن أوردها هنا بمناسبتها وملابساتها لعلها - لعلها - ولعلها- تلهم حكامنا اليوم في الإنقاذ شيئاً يتداركون به ما أعادوا به البلاد قرناً إلى الوراء.

(١) ورد في الجلسة رقم (٤٧) للجنة التنفيذية لمؤتمر الخريجين في يناير ١٩٤٠م أن السيد/ محمد عامر بشير فوراوي اقتراح : " أن يتوجه المؤتمر إلى الشعب بنداء عن الجنسية السودانية والتمسك بها بدلاً عن ذكر القبائل" وبعد مناقشة الموضوع تم تكليف العضو مكي شبيكة بتحضير بيان في ذلك الموضوع. (محاضر مؤتمر الخريجين- جزء مفقود- ص٨٨).

سبل كسب العيش في السودان ووحدة السودان

عدة رحلات قام بها من أساتذة بخت الرضا: عبدالرحمن علي طه- الشيخ مصطفى (شيخ الشيخ) عثمان محجوب- سر الختم الخليفة- مكي عباس- أحمد إبراهيم فزع- النور إبراهيم- جالسون إسمث.

ثم صاغ حصاد ما عادوا – شعراً الأستاذ عبدالرحمن علي طه وأوضح هنا أمام كل بلدة اسم المضيف.

الرحلة الأولى: القولد في المديرية الشمالية (صديق)

الرحلة الثانية: ريرة في البطانة مديرية كسلا (القرشي)

الرحلة الثالثة: الجفيل في شمال كردفان (سليمان)

الرحلة الرابعة: بابنوسة في جنوب غرب كردفان (ابن الفضل)

الرحلة الخامسة: يامبيو في المديرية الإستوائية (منقو)

الرحلة السادسة: محمد قول في شمال البحر الأحمر (حاج طاهر)

الرحلة السابعة: ود سلفاب: وسط الجزيرة (أحمد)

الرحلة الثامنة: أم درمان (إدريس)

الرحلة التاسعة: أتبرة- أو (عطبرة) المديرية الشمالية وعاصمة السكة الحديد(عبدالحميد)

تقول القصيدة:-

في (القولد) التقيت (بالصديق) أنعم به من فاضل، صديقي
خرجت أمشي معه للساقية ويا لها من ذكريات باقية
فكم أكلت معه الكابيدا وكم سمعت أوررو والودا

***

ودعتــــه والأهــــل والعـــشيرة ثــم قـــصدت مــن هنــاك ريــره
نزلتهـــا و(القـــرشي) مـــضيفى وكــــان ذاك فى أوان الـــــصيف
وجدتــه يــسقى جمــوع الإبــل مــن مــاء بئــر جــره بالعجـــل

***

ومــن هنــاك قمــت (للجفيــل) ذات الهــشاب النــضر الجميـــل
وكـــان ســفري وقــت الحــصاد فـــسرت مـــع رفيقـــى للبـــــلاد
ومـــــرّ بي (ســـليمان) علــــى مختلــف المحــصول بالحــب إمــتلأ

***

ومــــرةً بارحـــــت دار أهلـــــى لكي أزور صــاحبى (ابــن الفــضل)
ألفيتـــه وأهلـــه قـــد رحلـــوا مــن كيلــك وفى الفــضاء نزلـــوا
فى بقعــــة تـــسمى (بابنوســـــة) حيــث التقــوا ذبابــة تعيــســـة

***

مـــا زلـــت فى رحلاتـــى الـــسعيدة حتــى وصــلت (يــامبيو) البعيــدة
منطقـــــة غزيــــــرة الأشــــجار لمـــا بهـــا مـــن كثــرة الأمطــار
قـــدم لى (منقـــو) طعـــام البفــرة وهــــو لذيــــذ كطعـــام الكـــسرة

***

وبعـــدها اســـتفر بـــى رحـــيلي حتــــى نزلـــت فى محمـــد قـــول
وجدت فيها صاحبي (حـاج طـاهر) وهـــو فتـــى بفـــن الـــصيد مـــاهر
ذهبـــت معــــه مــــرةً للبحــــر وذقــــت مــــاء لا كـــماء النهـــر

***

رحلت من (محمد قول) لـ(ود سلفاب) لألتقى بسابع الأصحاب
وصلته والقطن فى الحقل نضر يروى من الخزان لا من المطر
أعجبنى من (أحمد) التفكير فى كل ما يقوله الخبيرُ

***

ولست أنسى بلدة (أم درمان) وما بها من كثرة السكان
إذا مرّ بي (إدريس) فى المدينة ويا لها من فرصة ثمينة
شهدت أكداساً من البضائع وزمراً من مشتر وبائع

***

وآخر الرحلات كانت أتبره حيث ركبت من هناك القاطرة
سرت بها فى سفر سعيد وكان سائقي (عبدالحميد)
أُعجبت من تنفيذه الأوامر بدقة ليسلم المسافر

***

كل له فى عيشه طريقة ما كنت عنها أعرف الحقيقة
ولا أشك أن فى بلادى ما يستحق الدرس باجتهاد
فابشر إذن يا وطني المفدى بالسعي مني كي تنال المجدا

ونحن نتغنى بهذه القصيدة الدسمة بجغرافية ووحدة البلاد أطل علينا شاعر آخر من أساتذة بخت الرضا بأبيات من الشعر تؤكد لمعاني ووحدة جنوب وشمال البلاد فحفظناها نشيداً في الوجدان والقلب ولا نزال نرددها رغم ما شاب علاقات شطري البلاد.. وسنظل.

أنت سوداني وسوداني أنا

ضمنا الوادي فمن يفصلنا

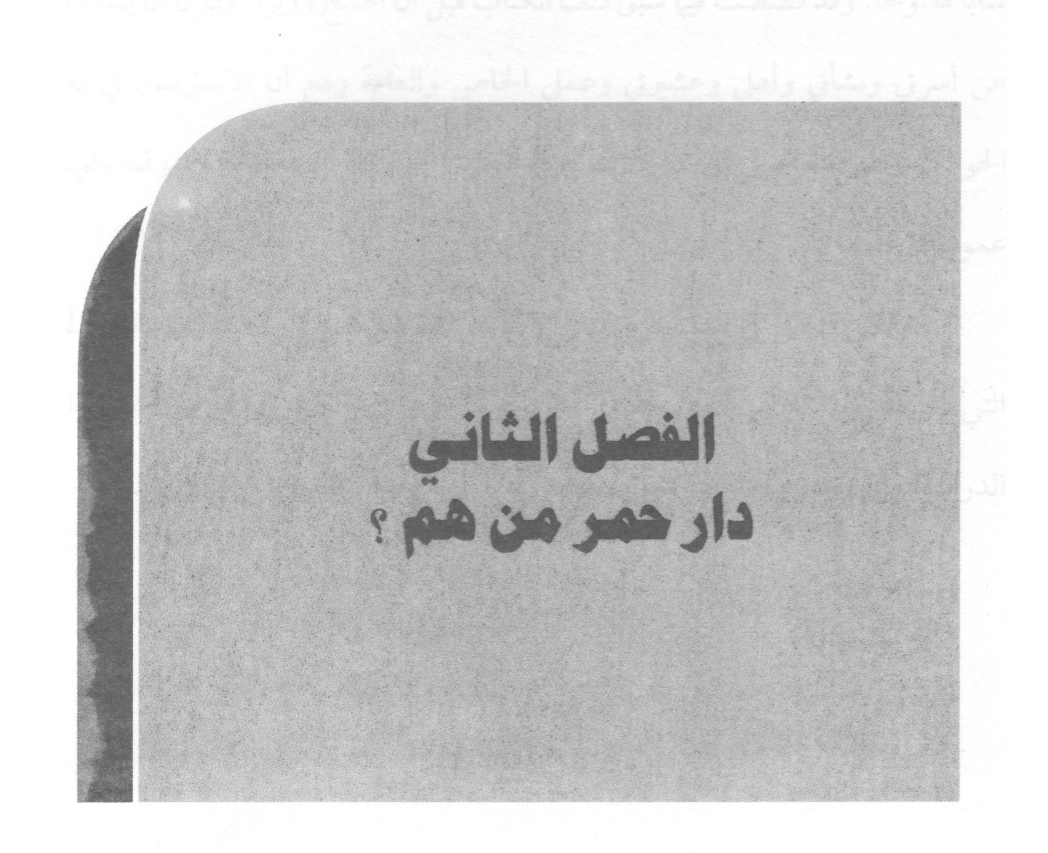
نحن روحان حللنا بدنا

منقو قُل لا عاش من يفصلنا

قُل معي لا عاش من يفصلنا

ربما لهذا دُمرت بخت الرضا قلعة (قومية) التعليم والبلاد.

ومن محاسن الصدف أن وجدت في سفارة السودان بواشنطن وأنا وزير للمالية شخصاً يعمل بها اسمه (صديق عبدالرحيم) حرمته لائحة شئون الخدمة من تذاكر مجانيّة للسفر في إجازته إلى السودان لأنه (تعيين محلي). هاجر إلى أمريكا واشتغل في السفارة. لو كان في السودان وتم تعيينه ونقل إلى واشنطن يمنح التذاكر المجانية. سألت "دا صديق بتاع (القولد)"؟ قالوا "نعم". أصدرت تصديقاً مالياً استثنائياً بمنحه التذاكر، ارتاح السفير عمر صالح عيسى لأنه يعلم أنه أحد معالم تاريخ البلاد.



الفصل الثاني
دار حمر من هم ؟

كنت قد بدأت الكتابة بذكر حياتي قبل أن أصبح (شخصاً عاماً) ملكي، لا سلطان لأحد عليها. ولكن بمجرد أن يلج الشخص العمل العام في منصب سياسي بالدولة يصبح كتاباً مفتوحاً. وقد قصصت فيما سبق ذلك الكتاب قبل أن أصبح وزيراً. ودون أن يسأل أحد عن أسرتي ونشأتي وأهلي وعشيرتي وعملي الخاص والعام. ومع أن الاسترسال في بعض الحوادث والمواقف جرني إلى تداخلات بين الخاص والعام إلا أن هذا الجزء سوف يكون في عمومياته عاماً.

ولكي أدخل في هذا الجزء الثاني لابد أن (أعرف نفسي) وأجيب على التساؤلات التي أشرت إليها: الأمر الذي جعلني أعود مرة أخرى إلى الوراء إلى ما قبل بدء المراحل الدراسية وإلى (حمر) و(دار حمر) وإلى مسقط رأسي قرية (صقع الجمل) مركز النهود.

كما ذكرت فإنه بدخولي المدرسة الأولية- الغربية- بالنهود في عام ١٩٤٢م أصبحت أعود إلى الصقع في كل إجازة سنوية أو نصف سنوية ويطوف بي عم عثمان كل المحافل فخوراً وحانياً وخاصة وأنه حتى ذلك الوقت لم يرزق ذرية من خالتي فاطمة. ويقيم لي المآدب وأحياناً الحفلات ويدعو كاتب المحكمة عبدالسلام الخيري وأبناء عمي منصور إسماعيل (قراض القش) وهما أحمد المنصور وإسماعيل الشهير باسم (حدبة) كذلك المساعد الطبي عبدالقادر محمد بلتة والمشهور باسم عبدالقادر الشايقي. وظلت تربطنا صداقة ودرجة نقية من الإخاء مع ثلاثتهم رغم فارق السن بيننا وبين عبد القادر الشايقي. فإذا لم تكن هناك سيارة قادمة إلى الصقع كنت أركب جملاً عليه كل مظاهر الأبهة من (فروة ريف بيضاء) وسيف رغم أنني ما كنت استطيع استخدامه لو حمي الوطيس وإنما (أهز) به داخل غمده تفاخراً. وكان للعم عثمان نفوذ كبير في الصقع وفي القرى المجاورة كما ذكرت من قبل وكان يمتلك أعداداً مهولة من الأبقار تقارب ما يملكه الوالد وكذلك قطيعاً من الماعز التي يعتبر لبنها أفضل من لبن البقر وكذلك السمن المستخرج منه. وبعد فترة من ترددي في الإجازات على الصقع اتضح لي في مناسبة زيارة أحد مفتشي المركز البريطانيين أن عم عثمان أحد أفراد الحرس الرئاسي للناظر منعم في محكمة صقع الجمل إذ كان عليه أن يخلع الجبة والملفحة والعمة ويلبس الزي العسكري وكان يشمل حزاماً أحمر اللون يسمى (الشالاية) ويربط من فوق الشالاية الحمراء (سير) من الجلد في وسطه دائرة من النحاس الأصفر. وكان كل مفتش يعلق (أن اللبس بتاع عثمان نظيف والشالاية والسير يلمعوا) ولم يكن يدري أن عم عثمان لا

يرتدي الزي إلا عند حضور المفتش الأول الذي يصل خبره مقدماً بأنه سوف يستعرض القوة العسكرية في الصقع.

كان شيوخ ورجال الإدارة الأهلية يستخدمون أقرب الأشخاص لديهم في وظائف (حرس) تصرف لهم الأزياء الرسمية ويتقاضون مرتبات من الدولة. هم من جهة لديهم صفة رسمية إذا لزم الأمر تجعل لهم مكانة رسمية واجتماعية خاصة في مجتمع القرى ويمكنهم من إصدار التعليمات والأوامر متى دعت الحاجة وإلى حمل السلاح المرخص والقانوني لقيادة عمليات (الفزع) أو تعقب الجناة الفارين من وجه العدالة. وفي أحيان استقبال قوافل العرب الرحل من القبائل الأخرى الذين قد يتجاوزون المسارات المتفق عليها بين الزعامات. في غير هذه المناسبات أو ما يشابهها فإنهم (شيوخ) لهم مكانتهم يلبسون كما تلبس الزعامات بل هم أنفسهم زعامات بالفعل بفضل النفوذ وهيبة الحكم.

ومن هؤلاء في صقع الجمل (الشيخ عثمان جمعة) أو شيخ عثمان كما ينادى.

وحضور المفتش- الأول أو الثاني- أو ضابط المجلس والإداريين من بعدهم كانت مناسبة للصغار- للجري وراء العربة التي يحضر بها من مكان لآخر وكثيراً ما كانوا يلحقون بها بسبب الرمال. أحد المفتشين واسمه مستر ميال- أصبح فيما بعد وكيل حكومة السودان بالقاهرة (أشبه بالسفير قبل الاستقلال) اختار أن تبنى له استراحة على رأس (قوز) من الرمال تجد العربة والناس مشقة في الصعود إليه ولكن تحس بالراحة والهواء النقي بمجرد الصعود إلى القمة والاستراحة. بنقله عادت الاستراحة إلى مكان داخل صقع الجمل ولكن لا يزال (القوز) يحمل اسم (قوز ميل).

كان الإداريون- عندما كانوا إداريين وليسوا حكاماً- يصلون إلى صقع الجمل من النهود عصراً إذ تبدأ الرحلة في العادة بعد الساعة الثانية ظهراً موعد انتهاء الدوام وتستغرق حسب مهارة السائق ساعتين تقل أو تزيد. ويتجه إلى (الاستراحة) وهـــي (قطية كبيرة) من قصب الدخن وملحق بها (راكوبة) هواية مع قطية أصغر لسكن طباخ المفتش والسائق العسكري الوحيد الذي يصبحه من الشرطة. وعند وصوله يجد نصف دستة من بيض الدجاج و (زيراً) مملوءاً بالماء و(حزمة حطب وقود) وكورة لبن. ويستقبله الشرتاي أو رئيس المحكمة بكوب من عصير الليمون وبراد شاي سادة ويتركه بعد تجاذب الحديث حول الأوضاع العامة بالمنطقة. وفي الصباح الباكر تبدأ جولة الإداري قبل شروق الشمس بزيارة (السلخانة) ويتأكد بأن المخلفات تدفن بحيث لا تنبشها الكلاب والجوارح وأن الذبيح يحمل بطريقة (صحية) إلى (الجزر) بعد السلخانة يذهب الإداري إلى (الدونكي- محطة المياه) ويتعرف من الكاتب المسئول على أن احتياجاته من الزيوت والسيور متوفرة ثم عن تقريره للقطعان من أنعام العرب الرحل التي يتوقعها واستعداداته لاستقبالها والتعاون مع الشرتاي في ذلك ومن الدونكي إلى (السجن) لمقابلة المحكومين والأهم من ذلك (المنتظرين) الذين لم تحدد مواعيد لتقديمهم للمحكمة سواء بسبب غياب الشهود أو أي أسباب أخرى. ودائماً يستمع الإداري إلى شكاوي من كلا المحكومين والمنتظرين وكذلك المحكومات ويدونها ليبلغها إلى القاضي المقيم بالنهود أو إلى ناظر عموم حمر الشيخ منعم منصور إذا كانت قضايا إدارية.

موضوع المنتظرين في (انتظار) العدالة كان يجد من الحكام البريطانيين على وجه الخصوص اهتماماً بالغاً إذ إن الشخص إما متهم أو بريء أو محكوم وإذا كان محكوماً لابد أن ينفذ فيه (الحكم) على الفور ولا يترك معلقاً. فالمحكوم له حقوق حتى لوكان الحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت إذ لابد أن (ينفذ) فيه بأسرع ما يمكن حتى لا يعيش في آلام (IN Agony) وأعجب عن من قتل نفساً زكية بغير نفس يجد الرحمة في موته من حكام وهناك النفس الزكية التي لا تجد الرحمة في حياتها من حكام. أصدر السكرتير القضائي منشوراً إلى جميع مديري المديريات (الولاة) بأن يصل إلى مكتبه في الخرطوم أي حكم بالإعدام خلال أسبوع على الأكثر من تاريخ إبلاغ الحكم للمتهم. حدث أن ترأس مدير مديرية كردفان محكمة كبرى بعضوية كل من الفاتح البدوي (والد سعاد الفاتح) قاضي درجة ثالثة بحكم الوظيفة (مأمور) والناظر ميرغني زاكي الدين ناظر قبيلة البديرية قاضي درجة ثالثة حيث حكمت المحكمة على المتهم بقتل زوجته عمداً بالإعدام شنقاً حتى الموت. كانت الجلسة يوم خميس. وفي انتظار طباعة الحكم وتوقيعه من القضاة الثلاثة تلقى الناظر زاكي الدين خبر وفاة فاستأذن مسرعاً قبل أن يوقع للذهاب إلى ضواحي مدينة أم روابة. تبع أيام العزاء عطلة عيد الأضحى المبارك وعند عودة الناظر بعد العزاء وعطلة العيد وتوقيع الحكم وإرساله بالقطار إلى الخرطوم كانت قد مرت فترة تقارب الأسبوعين قبل أن يستقر الحكم في مكتب السكرتير القضائي وإرساله إلى رأس الدولة (الحاكم العام) للمصادقة عليه وبدلاً من الموافقة تلقى مدير كردفان تلغرافاً:

It is against all canon laws of humanity that the convict should remain in a peril of his life for complete fortnight simply for breakdown in the administrative system and judiciary of Kordofan province. Will you please inform the convict that under no circumstances the death penalty shall be inflicted on him. Life sentence instead.

وفحوى البرقية إذا صحت الترجمة هي أنه ضد كل القوانين الإنسانية أن يظل المحكوم عليه في خطر على حياته بسبب خلل في النظام الإداري وفي الجهاز القضائي بمديرية كردفان. أرجو إخطار المحكوم عليه أنه في هذه الظروف سوف لا يطبق عليه حكم الإعدام ويستبدل بالسجن المؤبد.

ونعود إلى جولة الإداري في الغالب يكون (جرس الفسحة) ضرب لخروج التلاميذ للفسحة من المدرسة- الصغرى ثم الأولية- لتناول وجبة الإفطار فيلحق بهم ليتأكد من أنهم (شبعوا) بترك بقايا في الصحون ولا يهمه إذا كان الإدام لبناً طازجاً أو لبناً رائباً أو ملاح شرموط المهم أن يرى الرضا على وجوههم من كفاية الأكل. ومن داخلية الطلبة يتجه الركب إلى (الشفخانة) لسؤال المساعد الطبي عن احتياجات الدواء وانتظام وصوله وعن الأمراض التي ظهرت واحتوائهم للأمراض المستوطنة كالملاريا ويجري الصغار -وكنت يوماً أحدهم- وراء عربة الإداري من مكان لآخر في سرور وبهجة إلى أن ينتهي به المطاف إلى (السوق) حيث ينتظره المواطنون ومعهم الشرتاي أو رئيس المحكمة من الصقع ومن القرى المجاورة ويلتفون حوله ليس لتقديم الشكاوي فحسب وإنما لإبداء الرأي في كل ما حدث منذ آخر زيارة له وما يريدون أن يحدث- ونقدهم الهادف- وقد يشطح- في وجود الشرتاي أو رئيس المحكمة دون أن يتدخل الشرطي المصاحب له من منعهم ويتناقش الجميع في هدوء تعلو فيه الأصوات أحياناً ثم تعود لطبيعتها لهيبة الحكم وبعد أن ينتهي البرلمان الشعبي والمتكرر كل زيارة- يدون الإداري مذكراته ويعود إلى الاستراحة ليجد الشرتاي أو رئيس المحكمة قد استضافه بذبح (خروف) وتناول معه بصحبة بعض الأعيان (الشية والمرارة وعصيدة بملاح التقلية) والشاي والقهوة. ويتبادل الإداري مع المسئول المحلي الآراء فيما

قابله في زيارته الصباحية- وفيما دار في السوق. وعند مغادرته منتصف النهار يكون الطباخ قد تسلم جزءاً من الخروف طازجاً ومشوياً زاداً للطريق. استمر هذا النهج في الإدارة والتواجد الدوري وسط المواطنين دون حراسة ودون تدخل من رجال (الأمن) لمنع المسئول من الاستماع إلى الناس ومنع الناس من لقاء المسئول- استمر إلى أن أصبح الحاجز بين المواطن والإداري يتمثل في رئيس اللجنة الشعبية- رئيس الشورى- مسئول الأمن ثم المعتمد. وأصبح الجميع (حكاماً) إذا حاول المواطن أن يهمس أو يجهر برأي أو نصيحة أو تعليق اعتبر مهدداً للأمن وقد لايعرف أهله مكانه أبداً أو بعد حين. سردت هذه التجربة التي عشتها صغيراً وشاباً وحتى كهلاً في اجتماع دعاني له- مشكوراً- د.بابكر محمد توم رئيس هيئة مستشاري مجلس الوزراء وأخبرتهم أنه قبل وصولي إليهم قابلت أحد هؤلاء الإداريين وتحدثت إليه لكي أتأكد أنني لم أنس شيئاً فضحك قائلاً: نسيت شيء غير ظاهر وغير معلوم لك. ذلك أني- كإداري- إذا وجدت مثلاً أن حبوب الملاريا سوف لا تكفي بسبب تزايد المرضى أكتب خطاباً إلى (المفتش الطبي) وأطلب إرساله له على ظهر (جمل) سريع ليتسلمه (الباشكاتب) ويطبعه ويكتب في آخره (أرسل المسودة حامد أفندي على شاش ضابط المجلس وهو في مأمورية on Treck وسوف يوقع على الخطاب عند عودته) وعند العودة أوقع على نسخة الخطاب وترسل للتأكيد.

الحاكم والقدوة:

قلت للسادة المستشارين- بعد أن شكرتهم على دعوتهم للاستماع لتجربتي ولأي ملاحظات أراها على الموضوع الحالي- قلت لهم إن المطلوب الآن هو تواجد مسئول وسط

الناس فعلاً لا قولاً فلا يعقل أن يكون بين المواطنين والمسئول ٣-٤ مستويات حكم (لا) مستويات خدمة (فالجميع قد امتطوا العربات اللاندكروزر) كحكام وأنهم تدربوا ليحكموا لا ليخدموا Trained to rule and not to serve واقتنع العديدون أن من محاسن الحكم قهر المواطن حتى يخلو الجو من أي صاحب رأي أو نقاش. ولخصت لهم الأمر أن البلد ملآى بالمتعلمين والفنيين والمخططين والتنفيذيين ولكن الذي ينقصهم هو (القدوة) التي تجعلهم يخدمون بلادهم دون خوف ودون تحكم. لم ألحظ أي تجاوب أو تعارض في وجوه الحاضرين فضربت لهم مثلاً آخر للقدوة- وآسف أنه لا علاقة له بصقع الجمل وإنما بالنهود وبالسودان عامة. زار الرئيس عبود مدينة النهود واشتكى له المواطنون من شيء واحد فقط: الماء. فأصدر توجيهاً بل أمر وزارة الأشغال التي كانت تتبعها هيئة توفير المياه بحل المشكلة في أقل من عام. وفي لحظات الاستعداد لافتتاح مشروع المياه بعد أن تم حل المشكلة بعشرة آبار اتصل بي من أسمى نفسه رئيس اللجنة العليا للضيافة وأنا موظف بوزارة التجارة والصناعة والتموين وأبلغني تعييني مندوباً مفوضاً للجنة بالخرطوم وطلب مني التعاقد مع السيد مدير المرطبات(مصلحة حكومية كانت تتبع للسكة الحديد) بأن يرسل إلى مدينة (أبوزبد) آخر محطة في السكة الحديد بالقرب من النهود عربة (ثلاجة) بها قدر وافر من الثلج وكمية من (السمك) لإفطار الرئيس عبود الذي سيفتتح المشروع هو ونفر من القيادات. كما طلب رئيس اللجنة العليا ألا ننسى أدوات الأكل من ملاعق وشوك وسكاكين وكذلك العاملين لخدمة الضيوف من الفندق الكبير وأن أوقع على الفاتورة لكي يتم تحويل التكاليف تلغرافياً لمدير المرطبات قبل تحرك عربة السكة الحديد.أمهلني السيد علي حمو ساعة وطلب مني التواجد قرب التليفون ليؤكد لي التجهيزات.

وفي أقل من ساعة اتصل السيد علي حمو وقال لي : كلم عمك. قال المتحدث أنا عمك إبراهيم عبود. مين الحمار القال أنا ماشي النهود آكل سمك وأشرب موية بثلج ؟ كلمهم قول ليهم أنا ماشي أفتتح مشروع الموية وعاوز أشرب الموية دي في زير أو (سعن- قربة أو زمزمية) كما أني جاي في ضيافة شيخ منعم وأكيد سوف يذبح لي خروف وآكل معه (الشية والمرارة وملاح التقلية) حاضر معاليك. ذهبت إلى السيد علي حمو في مكتبه بمباني محطة السكة الحديد وقال: يا ابني أنا عديل الرئيس عبود وبعرف أبوك وما برضى ليهم (الشينة) عشان كده أخبرته بطلب اللجنة العليا للضيافة بالنهود وسمعت رأيه. مرة أخرى قلت لهيئة المستشارين أن المطلوب من المسئولين هو (القدوة) وأنه قد حدث أن مسئولاً ولائياً طلب أن تشحن له (تورتات) في طائرة من الخرطوم لحفل شاي لمسئول رئاسي. لم يسأل المسئول الرئاسي كيف ولماذا استوردت (التورتات) بهذا العدد ولم يسأل أحد في الولاية نفس السؤال. وصار الأمر مباراة بين كل زيارة وزائر. إذا أصبح أمر الزيارات مسائل احتفالية للكلام والأكل والأمن. والإعلام ثم إصدار التوجيهات بعمل كذا أو استكمال كذا ولا شيء يحدث حتى احتفال آخر. قلت لجمع المستشارين أنه جمعتني جلسة مع علي عثمان نائب رئيس الجمهورية وذكرت له تجربة (ثورة مايو) في وعود الرئيس نميري إذ كان في مجلس الوزراء شخص بدرجة وزير دولة ووظيفته مساعد أمين عام لمجلس الوزراء للشئون الاقتصادية وشئون المتابعة وهو حالياً في أحد أجهزة (الإنقاذ- في مجال التصدير) والجزء الثاني من اسم الوظيفة هو متابعة كل ما يعد أو يوجه به الرئيس نميري في لقاءاته فيتصل في اليوم التالي بالجهة المنوط بها التنفيذ ويلفت نظرها ويطلب منها تقرير متابعة في ظرف أسبوع أو شهر حسب نوع الوعد أو التوجيه. ويظل الأمر متصلاً بين الاثنين ثم مع الرئيس حتى يتم

التنفيذ أو يحاط الرئيس علماً بما يمنع أو يؤخر التنفيذ، ثم يتم اخطار الجهة الموعودة حتى لا يبدو الرئيس (كذاباً) أمام مواطنيه كما نصح الشيخ زايد بن سلطان حكيم العرب الرئيس عمر البشير بإلا يعد بما لا يستطيع فعله.

عدت في منتصف العام ١٩٤٥ إلى صقع الجمل على ظهر عربة جيب حملت أخي منصور منعم وزوجته جدية ناصر بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وتم تسريح معظم الجنود السودانيين بمن فيهم البلوك أمين نمرة ١٩٦٩٦ منصور منعم منصور. عندما وصل منصور إلى النهود احتفل به الشيخ منعم بدعوة كبيرة لأعيان النهود وفي حفل شاي صغير مع المفتش الأول للمركز ومفتش حمر المستر تنيسون وتم تدشينه في جمع لكل شراتي دار حمر كرئيس لمحكمة صقع الجمل التي كان يشغلها إسماعيل منصور محمد الشيخ (قراض القش) الذي توفى وهو يستشفى في بارا. وكان جمع الشراتي يحمل إيحاء بأن منصور إذا عاد (منضبطاً) من الحرب وأدى مهمته بكفاءة في صقع الجمل وحصل على رضا أركان الحكم فسوف يعلن وكيل ناظر عموم حمر: نائباً لوالده. كان استقبال الصقع لمنصور غير مسبوق إذ قوبل بموكب من راكبي الهجن والخيول وقارعات الطبول والغناء والرقص على مسافة شرق صقع الجمل- في قوز الدروت- ونزل في جزء فسيح من(حوش الشيخ) أحسن عم عثمان إعداده من حيث الأماكن لعامة الضيوف- ولخاصة الضيوف- ولسكن الشيخ الجديد وكان في مقدمة المستقبلين بجانب عم عثمان الشرتاي بخاري علي- وهو شرتاية صقع الجمل أكبر شرتاوية في دار حمر تضم ٩٠ قرية كبيرة بخلاف (الأريت) أي صغار القرى التي غالباً ما تبدأ بقطاطي قرب المزارع البعيدة عن(الحلة) الكبيرة ثم تستقل تدريجياً ويعترف بها باسم (الأريت) ولكنها تتبع شيخ الحلة الأم. والشرتاي بخاري علي حاج التور- ينحدر من جهة

والده- رجل الدين علي حاج التور- من منطقة (البرياب) جنوب واد مدني واستقر في دار حمر وصادق قياداتها وتزوج عمة الناظر منعم وأنجب منها (بخاري) الذي نحن بصدده وقد صاهر بخاري إسماعيل (قراض القش) وتزوج ابنته وأنجب منها بنتاً أسماها (روزة) على اسم عمتها فأصبح يلقب باسم(أبوروزة) - واستعار منها الاسم الدكتور الديرديري إبراهيم فسمى ابنته الكبرى (روزة) مما أثار لغطاً وسط مثقفي الخمسينات حسمه الدكتور عبدالله الطيب بعروبة الاسم وعراقته. والشرتاي يعني بالشئون الإدارية. تقدير وجمع الضرائب منفرداً أو مع لجان- وترسيم حدود القرى- ومراعاة انضباط عمل (شيخ الحلة) في توزيع أراضي المزارع لعُمّار الحلة- وفي توزيع (أشجار التبلدي) على العمار الجدد- ومنح الأراضي (الغفار) أي التي لا حائز أو مالك لها بين سكان الحلة إذ إنها قد تحمل يوماً أشجار صمغ الهشاب الذي يعتبر المحصول النقدي الأساسي للزراع المقيمين يأتي بعده حب البطيخ وكان سوق مدينة النهود يعتبر الأول في العالم لكلا المحصولين: الصمغ وحب البطيخ. كما يقوم الشرتاي بفض النزاعات (الإدارية) كما تسمى والخاصة بأمر الزراعة والصمغ وتداخل الرعاة. ويشرف على توجيه مشايخ القرى على (رعاية الحفائر- أو الرهود: جمع رهد) لتجميع المياه في فصل الخريف. وكان العرف الذي يشرف الشرتاي على تطبيقه وينال عليه هو والمشايخ الذين يتبعونه (مكافأة) من المركز- ثم المجلس الريفي فيما بعد- هو (حش الشوارع) بين كل قرية وأخرى. وحش أو نظافة الطرق تقليد تتبعه كل قرية و (حلة) بأن تقوم بنظافة نصف الطريق بينها وبين الحلة التالية فيكون الجميع على معرفة بسبل التواصل. ثم أن حش الطريق يجعل منه حاجزاً طبيعياً لإيقاف انتشار النيران التي غالباً ما يخلفها أهمال المسافرين أو كما جرى به اتهام العرب الرحل.

العرف في اختيار الحاكم- وفي إدارة القرية وفي حفظ الأمن:

ويتبع الشرتاي في أداء مهامه عدد من (الخفراء) يتقاسمون الولاء مع رئيس المحكمة الذي يشكل السلطة القضائية في فصل مبكر بين السلطات دون فلسفة دستورية. ويتقاضى الشرتاي راتباً رمزياً إذا قيس بمسئولياته إذ إن إشرافه الإداري يحمل في طياته بسطاً للأمن بتطبيق عرف القبيلة. ولكن دخل الشرتاي الأكبر يأتي من (المكافأة) التي يتحصل عليها من جمع ضرائب منطقته في الوقت المحدد له كل عام حتى لا يحدث خلل بين الإيرادات والمصروفات. ويقوم الشرتاي مع لجنة أو مستشارين- دون حوافز- بتوزيع (الربط) الضريبي على مشايخ القرى كل حسب كثافة عماره وجودة أراضيهم وعدد قطعانهم من الأبقار والإغنام و(جنائن) الهشاب وبقيام كل شيخ بالوفاء بالتزامه الضريبي في الموعد الذي يحدده له الشرتاي يحصل على نصيبه من المكافأة. الركن الأساسي في الإدارة الأهلية هو (شيخ الحلة) إذ إن العرف يقضي بأن يأتي الشرتاي للقرية التي تنشأ أو التي شغر بها منصب الشيخ ويتم التصويت العلني ويتم اختيار صاحب الأغلبية. وتكون المنافسة- إن وجدت بين ابن الشيخ المتوفي أو المعزول- وأحد أخوانه. إذ إن الجميع يراعون أن القيادة لابد أن تكون في بيت (الشياخة) ومن واجبات شيخ الحلة بجانب الضرائب وقيادة الحلة وحسن توزيع مواردها استقبال ضيوف الحلة سواء كانوا من السلطة أو من عامة المسافرين إذ يكون سؤال كل من يصل إلى مشارف القرية: وين بيت شيخ الحلة. والشيخ هو(عين) الأمن الأولى في حدود قريته فيعرف كل من يدخلها وسبب وصوله وأين تمت استضافته ومتى رحل وإلى أين. ومن اصطحب من سكان القرية. معلومات هامة لحفظ أمن القرية وسمعتها خاصة من لصوص (السعية) وهي لفظ يشمل الجمال والأبقار والأغنام والماعز. إذ إن العرف يقضي في

حالة سرقة السعية أن يستنفر صاحبها أهل قريته وعشيرته لكي يلحقوا بالسارق وهي عملية تعرف باسم (الفزع) ويشارك فيها كل قادر راجلاً أو على دابة- ومعه سلاحه الأبيض: السكين والسيف والناري- مرخصاً أو غير مرخص كما هو الغالب. وسواء معهم (قصاص أثر) معترف به أو ليس معهم فهم جميعاً يقتفون الأثر إلى أن يتم اللحاق بالسارق- أو يدخل الأثر في حرم قرية ما . إذا تم اللحاق بالسارق فإن العرف السائد هو أن يقوم (الفزع) بضرب السارق ضرباً يلحق به أذى جسيماً يحدث في الغالب عاهة أو أثراً يكون عبرة له ولغيره. وإذا كان السارق مسلحاً تبادل الطرفان سلاحاً بسلاح تكون فيه الغلبة دوماً للفزع إلا إذا تمكن السارق من الهرب بحيلة ما.- النظام الأعلى- إدارة وقضاء- يعترف بالفزع ولا يعاقبه بما يحدث للسارق. لكن حدث مرة أن زار قاض مقيم هو(صلاح حسن) سجن صقع الجمل ووجد فيه سجيناً في يده كسر وعلى جسده رضوض وبسؤاله اشتكى بأن (الفزع) اعتدى عليه رغم أنه كان بعيداً عن الجمال المسروقة بل ونائماً في ظل شجرة (تبلدي) وأنكر للمحكمة علاقته بالسرقة. ورغم ذلك حوكم بجريمة السرقة ولم يعاقب (الفزع) وبسؤال رئيس المحكمة حسين بابكر- والد السيدة إحسان زوجة السفير محي الدين سالم- أفاد القاضي المقيم بأن (الفزع) تتبع أثر السارق إلى أن وصل إلى مكان المسروقات ثم تتبع أثره من مكان الجمال إلى ظل التبلدية حيث وجده نائماً وعلى أحد فروعها (سعن) ماء و (رسن – حبل يقيد أو يقتاد به الجمل) ووفقاً للعرف الأهلي فإن أي شخص من غير أهل المنطقة يوجد ممتلكاً (رسن وسعن) ويسير في الفلاة فهو سارق ويحاكم حتى ولو لم يكن معه مسروقات إلا إذا أقنع المحكمة من أين أتى ومن هم أهله وعشيرته وإلى أين ذاهب فيحتجز إلى أن تستوثق المحكمة من المعلومات أو يحاكم بالسجن. بمثل هذا العرف يحفظ الأمن والممتلكات في

أرض واسعة ليس فيها بوليس أو جيش. لم يقتنع القاضي المقيم ابن العاصمة ودارس القانون فأمر أولاً بإخلاء سبيل الرجل وقيام الشفخانة بعلاجه ثم استدعاء كل (الفزع) لجلسة حددها لمحاكمتهم بتهمة الاعتداء على مواطن يمارس حرية التنقل. سارع رئيس المحكمة باستدعاء شيخ الحلة الذي قاد (الفزع) وأخبره بما ينتظرهم إن لم يكن في الحلة (سفيه) يدرأ عن أهله الأذى لأن هذا هو يومه. سفيه الحلة شاب طويل ممتلئ الجسم له شارب ويلبس جلباباً نظيفاً ناصع البياض ويلبس طاقية مشغولة بالحرير وينتعل (مركوب فاشري نسبة إلى مدينة الفاشر المشهورة وقتها بصناعة نوع من الأحذية) ويحمل في يده (عكاز مضبب أي مكسو بجلد ذنب الثور زيادة في قوته) وعلى ذراعه (سكين) لها غمد من جلد أحمر مصبوغ اللون هذا (السفيه) يكون دائماً فصيحاً ودائماً سليط اللسان في بعض المجالس ويقول عن شيخ وأهل الحلة سئ الحديث الذي يمنعهم الحياء عن قوله رغم أنهم موافقون عليه وكلما ازداد لؤماً ازداد مكانة لدى عشيرته فإذا ما تم توافق في الطرف الآخر لامه الكبار وتحمل اللوم عالماً أنه قد أدى دوره وبعد انفضاض المجلس يتلقى الشكر من الجميع. وبما أنه يكون دوماً غير متزوج فإنه محط أمل الفتيات وتقوم الشاعرات منهن بتأليف الأغاني في مدحه وسيرته.ذكرني هذا الفتى بواحد مثله قام بنفس الدور في الصحافة السودانية منذ توقيع اتفاقية السلام الشامل إلى أن تم انفصال الجنوب فنال الثناء من ابن أخته ومن حزبه. نعود إلى رئيس المحكمة وشيخ الحلة وبقية القرية الذي طمأن الرئيس والشيخ بأنه سيقول للقاضي المقيم أنه شاب وقوي وسبق (الفزع) في المقدمة ولما عثر على السارق أوسعه ضرباً (منفرداً) ولو لم يحضر (الفزع) في الوقت المناسب لتخليصه منه لربما ناله أذى أكثر. ارتاح رئيس المحكمة وشيخ القرية للحديث وحمد الله أن لدى القرية (سفيه) اشترك في (الفزع) غير أن

شيخ الحلة تذكر فجأة أن القاضي المقيم قد يطلب منهم القسم على الكتاب- المصحف بأنهم لم يشتركوا في الضرب ولكن رئيس المحكمة طمأنه- بخبرته مع أمثال هؤلاء القضاة- بأنهم بحسب القانون الذي درسوه لا يطلبون من المتهم الحليفة- أي القسم- جاء القاضي المقيم واجتمع (الفزع) بضع وعشرون رجلاً امتلأت الساحة بأهل صقع الجمل ليشهدوا محاكمة (الفزع) للمرة الأولى في تاريخهم فإذا بالسفيه يردد على القاضي ما التزم به وإذا بالسارق يصر على أن الضرب كان (أم بتيبت- أي عشوائي وبقوة كما شرحه للقاضي) ومن كل (الفزع) سخر (السفيه) من السارق وقال له كان واحد منهم ضربك معاي كان مشيت الآخرة- أحمد الله الناس ديل إنهم خلصوك مني- برأ القاضي ساحة (الفزع) وأمر بحبس السفيه فزغردت النساء وضرب الرجال (الروراي) تعجب القاضي بعد المحاكمة كيف يصر المتهم أن كل (الفزع) قام بضربه في حين أن واحداً فقط من كل الرجال يؤكد أنه هو الذي ضربه منفرداً. ولم يكن أمام رجل الإدارة الأهلية إلا أن يبرر شكوك القاضي حتى لا يعيد النظر في الحكم فشرح له أن المتهم يعلم قوة وبطش الصبي المعترف ويخشى أن ينتقم منه إذا ركز عليه الاتهام عند خروجه من السجن فأراد أن يشرك الآخرين حتى يشفع له ذلك مستقبلاً وقبل القاضي التفسير. وفي صباح اليوم التالي كان رئيس المحكمة يروى للشيخ منعم منصور ما دار فسارع الشيخ منعم إلى رئيس القضاء محمد أحمد ابو رنات متخطياً قاضي المديرية الذي هو من نفس طينة علم القاضي المقيم. قبل أن يصل إلى منصبه الرفيع. كان محمد أحمد أبورنات (كاتباً ثم باشكاتب) جاب مديريات السودان كما كان الوضع آنذاك ثم التحق بالمصحلة القضائية كما كانت تسمى وأنكب على المكتبة والمجلة القضائية. وكان في بعض إجازاته يأتي إلى مسقط رأسه مدينة النهود حيث كان والده وأخوه من بعده رئيساً لمحكمة البندر. ويجلس في محكمة

الشيخ منعم منصور مستمعاً ومتلقياً للعرف من أفواه أعضاء المحكمتين ومن لقاءاته مع والده وأخيه والشيخ منعم. ولما أصبح قاضياً بعد تأهيله علمياً زاد اهتمامه بالقضاء الأهلي ودوره في خدمة المواطنين أمناً وفضاً للنزاعات وبسطاً لهيبة الحكم ولما وجد الشيخ منعم تفهماً كاملاً منه لخطأ القاضي المقيم خريج الكلية- كلية القانون- لفت نظره إلى تصرف آخر هو رفض القاضي المقيم معاقبة الشاهد في القضايا المدنية عندما يطلبه أحد الخصوم. وقد كان العرف أن المحكمة تعطي الخصم طلباً في ورقة زرقاء اللون تسمى (الورقة الخضراء لدى الجمهور) وعلى الشاهد بمجرد استلامه للورقة الخضراء أن يحضر الجلسة في اليوم المحدد ولكن بعض الشهود يمتنعون، وتقوم المحكمة بمعاقبتهم على ذلك. أعراف القبائل لها في الغالب جذور من العدالة المطلقة أو من الدين أو كليهما. جاء في آية الدّيْن في سورة البقرة (٢٨٢) والدين شأن مدني (ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا) وكانوا يرون بالقياس أنه إذا كان القرآن يأمر شاهد (الدين) لحضور كتابته فكيف لا يحضر جلسة قضية مدنية ولكن أفتى القاضي المقيم وأيده قاضي المديرية بأن على الخصم في القضايا المدنية أن يقنع شهوده بالحضور ومن يرفض لا تعاقبه المحكمة إلا في حالة طلبه للشهادة (بواسطة المحكمة) وفي هذه الحالة تسلم الورقة الخضراء لشيخ الحلة ليقوم بتسليمها له. كان النظام الأهلي قضاء وإدارة ولا يزال يرى أن عدم حضور الشاهد مهما كان نوع القضية من شأنه أن يعطل العدالة بين المواطنين مما قد يعود إلى ظلم يتطور إلى قضية جنائية. كما أن عدم تلبية أي مواطن نداء المحكمة بالحضور يقلل من هيبة الحاكم الذي طلبه والحكومة التي يمثلها خاصة أن النزاعات الإدارية والمدنية أكثر من نظيرتها الجنائية والتي في الغالب يرسل لها (خفير) من الإدارة الأهلية أو تستدعى له الشرطة من النهود. تجاوب السيد محمد أحمد أبورنات رئيس

القضاة مع الحالتين وأرسل إلى قاضي مديرية كردفان وإلى مدير مديرية كردفان ألا يتدخل أي قاضي مدني في قضايا العرف الأهلي والتي يتم الاستئناف فيها إلى ناظر عموم حمر والتي تراجع أحكامها من وقت لآخر إذا لزم الأمر بواسطة مدير المديرية كسلطة إدارية عليا. وبعودة الشيخ منعم إلى النهود ووصول قرار رئيس القضاء أعيد السارق من الشفخانة إلى السجن وأطلق سراح (السفيه) وعلت الزغاريد والكوأريك مرة أخرى. السجناء عندنا في المنطقة نوعان: الغالب الأعم معروفون بأهلهم وأسرهم وفي قضايا مدنية وإدارية تتعلق بنزاعات حدود المزارع والقرى وأحياناً التحرش والزنا من إمرأة متزوجة ثم يعفو عنها زوجها. وهؤلاء من الممكن إلا في حالة الزنا أن يضمن أحدهم شخص كفء ويكونون طلقاء أثناء النهار ويخدمون في بيوت السلطة: الشرتاي- المساعد الطبي- المدرسة وينامون ليلاً في فناء السجن. أما السجناء في قضايا السرقة ومن أهل المنطقة والذين لا يعرفهم أحد يكونون داخل غرفة السجن ومن يريد منهم أن يقضي نهاره تحت ظل شجرة النيم أمام السجن أو ينام ليلاً خارج الغرفة بسبب حرارة الجو فإنه يقيد بالسلاسل حتى لا يهرب. اعترض أحد القضاة المقيمين على السلاسل ما دام هناك حارسان للسجن في كل (وردية) فإذا كان ولا بد يوضع على قدميه قيد من حبل. نفذ رئيس المحكمة الأهلية قرار القاضي وهرب سجينان لا يعرف لهما أهل. السجين الذي له أهل لا يهرب حتى ولو ترك دون حراسة لأن العار سوف يلحق به وبأسرته وتغنى عليه شاعرات البنات هجاء يلاحقه طول حياته.

سرحنا مع السارق الذي يلحق به (الفزع) ودور شيخ الحلة في الأمر. أما إذا وصل (الأثر) إلى حرم قرية ما فيتوقف (الفزع) ويرسل أحد أفراده ليبلغ الخبر إلى شيخ الحلة

ويطلب منه حضوره مع نفر من السكان ويتبعون معه الأثر لمسافة قبل الوصول إلى حرم القرية ثم إلى مدخل القرية. وحسب العرف كان (الفزع) يطلب من شيخ الحلة أحد أمرين: أما إخراج الأثر من قريته لكي يعاودون البحث أو تسليمهم السارق والمسروقات. إذا فشل شيخ الحلة في الحالتين فإن الأمر يبلغ إلى (الشرتاي) الذي يستدعيه ويرسل معه أحد الخفراء ليبلغ أهل الحلة الفضيحة التي بلغت قريتهم وأن عليهم حسب العرف الذي يعرفونه أن يقوموا جميعاً ويدفعوا قيمة المسروقات. ثم يصدر قرار إداري بفصل الشيخ عن قيادة القرية وانتخاب آخر لا يكون من أسرته كما تجري بذلك التقاليد.

العرف في قضايا القتل وتسبيب الأذى:

ولا يقتصر العرف على النواحي الأمنية فحسب بل يتعداها إلى بعض الجنايات فجريمة القتل وتسبيب الأذى الجسيم الذي يفضي إلى عاهات في أعضاء الجسم مسائل لا تفصل فيها الإدارة بين المتخاصمين بل يتم تسليمهم إلى الشرطة فالقاضي المقيم وقبيل صدور الحكم يتقدم أهل المتهم إلى المتضررين بتطبيق العرف وقبول (الدية) وقبول الدية يخفف حسب العرف أو يلغي الحكم الصادر في حق المعتدي. حدد رجال القبيلة مبلغ دية الرجل بـ ٦٠ جنيهاً والمرأة بـ ٤٠. كان هذا قبل إلغاء (صندوق الدية) بواسطة ثوار أكتوبر في مطلع ١٩٦٥م باعتباره من آثار الإدارة الأهلية وكان- كما قالوا أو لم يثبته التحقيق- مصدر فساد يتقوى به شيخ القبيلة. حدد العرف مبالغ لأعضاء الجسم المختلفة كالعين اليمنى- واليسرى واليد اليمنى واليسرى- والأنف- والأذن. كما تحدد مبلغ يساوي دية (الرجل) الكاملة إذا أخطأ الشخص الذي يقوم بعملية ختان الأولاد في قطع (حشفة) الولد أو حسب التعبير الشرعي إذا (جَبَّ) الولد.

كان مبلغ الاشتراك في الدية قد حدده الشيخ منعم بقرشين يجمعان من كل شخص مكلف بدفع الضريبة. ويوضع المبلغ في حساب منفصل في المجلس الريفي. وعندما تقبل المحكمة طلب دفع الدية فإن المتضرر يحصل فوراً على نصف المبلغ من الصندوق ويتم جمع النصف الآخر بواسطة أهل المتهم بنسبة الربع من أسرته الممتدة وأهل (الدية) ثم الربع من قبيلته أو (خشم البيت) الذي ينتمي إليه في القبيلة. وأهل الدية هم جماعة أو جماعات تعاهدت مع أسرة معينة على أن يكونوا معهم سواء بسواء في أي دية. وكما لا يعلم الكثيرون وكنت معهم إلى أن أخبرني الشيخ منعم بعد حل الإدارة الأهلية وإلغاء صندوق الدية وقد كان في زيارته الأخيرة للخرطوم قبل وفاته أخبرني أن أهل دية أسرتنا المباشرة والذين تعاهدوا مع أعمامه ومعه هم- وجميعهم من غير قبيلة حمر الصغيرة وإن كانوا من قبيلة حمر الكبرى-(برتي) الحلة الصبحانية أي صباح أو شرق قرية صقع الجمل وهم أهل البروفيسور محمد أحمد الحاج- (وبرياب) الصقع أهل الشرتاي بخاري علي حاج التور ومنهم سعد البريابي والدرديري إبراهيم وإبراهيم الشيخ (وكراسنة) أم بل وهم عشيرة الكرسني رجل الدين الذي أتى به جدنا من الحجاز واستبقاه وزوجه ابنته وأصبح أبناؤه وعشيرته من حمر. وهم أهل البروفيسور عوض السيد وإبراهيم الكرسني وعوض السيد مصطفى وزعيمهم عبدالرحمن الكرسني وكيل قسم أم بل- (وجوامعه) السعاتة وهي قرية شرق مدينة أبو زبد وهم أصلاً من دار الجوامعة بشرق كردفان وهاجروا إلى دار حمر كمشايخ دين واستقروا في هذه القرية ومنهم السفير أحمد صلاح بخاري والإداري إدريس بخاري والدكتور أحمد بخاري والاقتصادي بخاري محمود وعشيرتهم- (ومناصرة) أبو حميرة وهي قرية تقع جنوب شرق النهود في الطريق إلى أبوزبد والمناصرة كما نسميهم ويسمون أنفسهم هم أصلاً من

المناصير واستقروا بدار حمر بقيادة زعيم مهاب هو عبدالستار الزبير ومن الأسرة البروفيسور سيد البشير والدكتور عبدالرازق البشير واللواء السر محمد أحمد خالد والدكتور إبراهيم البدوي عبد الساتر عالم الاقتصاد والخبير الدولي. هذا بالطبع إضافة إلى أهل الدية من الأسرة الصغيرة والممتدة وأهل خشم البيت والقبيلة كلها. وقد خصص هؤلاء لأنهم من(فروة النمر) وفروة النمر تعبير أطلقه الشيخ مكي المليح على أن حمر (فروة نمر) كل نقطة فيها قبيلة وكل من هذه القبيلة حمري بحكم الموطن وفروة النمر هي جلد النمر بما فيه من نقاط متناثرة. فكل من جمعته هذه الفروة فهو حمري إلا من أبى بما في ذلك (جلابة) النهود أي التجار وذرية التجار الذين جلبوا البضائع للنهود ولدار حمر خلال عهود منذ التركية فالمهدية فالحكم الثنائي والحرية وإلى الآن وكما يقولون فإن الشئ بالشئ يذكر فبجانب صندوق الدية أنشأ الشيخ منعم منصور في احتفال كبير عام ١٩٤٧م دعا له الشراتي والأعيان صندوقاً للتعليم ووافق الجميع على جمع (مال التعليم- قرشين من كل مكلف بالضريبة- أو مكشف كما يقولون: يعني في كشف الضريبة) ويحفظ مال التعليم في حساب خاص بالمجلس الريفي مثل مال الدية ويصرف منه على الطلبة الذين تؤهلهم قدراتهم العلمية للالتحاق بالمدارس فوق الأولية وتقف إمكانات أسرهم عقبة أمام دراساتهم. ويتم القرار سواء بالنسبة للطالب أو مبلغ الإعانة من لجنة التعليم بالمجلس الريفي. ونال عدد كبير من أبناء حمر أقساط التعليم التي تأهلوا لها من ذلك المال.وكالعادة تم في ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ومن نفس الذين تأهلوا من ذلك المال اتهام الشيخ منعم والإدارة الأهلية بالتصرف الفاسد في الصندوق وتم حله وإضافة رصيده للمال العام في المجلس الريفي وتوقف الدعم لتعليم أبناء حمر. وبالطبع لم تجد فرقة المراجعة مخالفة في التصرف في مال التعليم وطويت صفحة الصندوقين: الدية والعلم

ولا أدري ماذا كسبت المجموعات المتعلمة من أبناء القبيلة من القرار. ويتملكني الأسى عندما أقابل وفداً بل وفوداً من دار حمر تأتي إلى الخرطوم تبحث عن أبناء القبيلة ليتبرعوا لدفع دية أقرباء لهم ويصرفون في تكاليف السفر والإقامة في العاصمة أكثر مما يجمعون بسبب ضعف الدخل لمن يتصلون بهم وأبت العزة بالإثم أن يعيد أبناء القبيلة بعد أن تسلموا الحكم الحياة لأي من الصندوقين أو كليهما.

....منصور منعم رئيساً لمحكمة صقع الجمل:

بدأ منصور منعم منصور حياته كرئيس لمحكمة صقع الجمل بداية قوية أعطته هيبة فكان حاسماً في أحكامه وفي طلب أعضاء المحكمة والقاضي الشرعي لحضور الجلسات إذ إن لكل محكمة ستة أعضاء من شيوخ القبيلة العالمين بالعرف وببعض السوابق القضائية وببعض مترددي المحاكم مطلوبين أو شاكين. أما القاضي الشرعي فيتم اختياره من (الفقراء) المشهود لهم بحسن السيرة وكذلك بمعرفة أحكام الزواج والطلاق والميراث. أي رجال الدين ولا يصدر رئيس المحكمة الحكم إلا بعد معرفة رأي كل عضو والقاضي الشرعي فيما يخصه وتصدر الأحكام في العادة بتوافق الآراء، غير أن رئيس المحكمة يتصرف أحياناً بمفرده في الحالات التي يقف الأعضاء فيها حيرى خاصة في البلاغات والحوادث التي تقع دون سابقة لها. وقد حضرت شكوى أحد التجار من أن قفل دكانه قد فتح وتمت سرقة عدد من ثياب (الزراق) والدمورية والدبلان والنقدية التي في (الدرج) رغم أنه مقفل. ثوب الزراق ملبس انقرض منذ عقود وهو ثوب من القماش يصبغ بصبغة ذات لون أزرق غامق للغاية وتلبسه كبار السن من النساء أو الفقيرات منهن أو في مناسبات المآتم لشخص عزيز.

رجح أعضاء المحكمة أن الدكان (مسكون) أي به (جن) وأنه لا يمكن أن يدخل شخص بباب مقفل ويأخذ مالاً من (درج) مقفل ويخرج من الباب المقفل دون أن يكسر

القفل أو (الدرج) رئيس المحكمة رجح أن يكون هذا لص من غير سكان الصقع أو من مدينة النهود أو عاش في مدينة وعرف كيف يستخدم (الطفشانة) وهي سلك حديدي ملتو بشكل يجعله قادراً على فتح الأقفال. عرف من شيخ الحلة(أبو سيل سعيد) أن الحلة لم يدخلها في الأسابيع السابقة شخص غريب سوى أحد الجنود المسرحين من قوة دفاع السودان ومن زملاء رئيس المحكمة. طلب الرئيس من شيخ الحلة أن يتعقبه ويراقب تصرفاته (يوم السوق) لم يتردد صاحبنا من شراء (أوقة) كاملة من اللحم والجلوس مع نفر من أصدقائه في (الأنداية)، (الأوقة) كانت هي الوزن المتعارف قبل إدخال (الكيلو) من الوزن عقب الاستقلال عام ١٩٥٦ . وصل إلى شيخ الحلة أن والدة الجندي المسرح (قد أمسكت عن ذكر اسمه إذ إن ابنه لا يزال حياً عند كتابة هذه الذكريات) لبست ثوب (زراق) جديداً. طلب رئيس المحكمة زميله السابق وواجهه باتهام سرقة الدكان فأنكر مدعياً أنه يصرف من مكافأة نهاية الخدمة في الجيش ولما كان رئيس المحكمة يعلم أن حجم تلك المكافاة لا يكفي سنة من استلامها فقد خيره بأن يعيد المسروقات أو يستعد لخمسة وعشرين جلدة ثم الحبس إلى أن يدل على مكانها، استبسل الجندي ولكن بعد السوط الخامس عشر اعترف وقاد خفيرين من المحكمة إلى (مطمورة) مهجورة في مزرعة والدته ووجدت كل المسروقات ما عدا ثوب (زراق) واحد تبرع به التاجر للوالدة ومبلغ خمسة وعشرين قرشاً سامحه فيها وعندما أطلع المفتش الأول على الحكم في أول زيارة له للصقع اعتبره نضجاً في الإدارة.

..... الإحتياطي الوافر الاستراتيجي:

كان الموسم جيداً في أول تعيين منصور للمحكمة واستبشر الجميع خيراً وأخبره المفتش أن الحكومة رأت أن تستفيد من وفرة إنتاج الدخن وأن تشتري ألفي جوال من الدخن

وتحتفظ بها في عدد من (الشون) الحديدية التي ستصل الصقع قريباً. والشونة المذكورة عبارة عن أسطوانات من الحديد المقوى قطرها حوالي متر وارتفاعها متران. ويتم التخزين فيها بأن توضع داخل قطية على طبقة من الرمال تعلوها أخرى من نخالة الدخن (البتاب) ثم يصب الدخن إلى أن تشارف على الإمتلاء ثم تضع طبقة عازلة أخرى من (البتاب) وبهذا يمكن الاحتفاظ داخل كل أسطوانة بحوالي مائتي جوال دخن بعيداً عن الحشرات وبعيداً عن الرطوبة والأمطار. وقد تم بناء خمس قطاطي حفظت فيها (الشون) وتم حفظ باقي المحصول في داخل قطاطي عادية في جولات من الجوت.وفي الموسم اللاحق بدأت ظواهر قلة في المحصول- فجوة غذائية بلغة اليوم- فبدأت السيارات ٦ و٨ طن تتوافد على صقع الجمل بخطابات من مفتش المركز للسحب من المخزون والتوزيع لبعض مناطق دار حمر. وقد تكرر شراء المخزون الاستراتيجي- بلغة اليوم أيضاً بصفة منتظمة كل موسم وفير- وظل الاستخدام المنتظم للشونة حتى منتصف خمسينات القرن الماضي. وكانت تفرض على كلَ شيخ حلة توريد كمية من الدخن وفقاً لقديرات لجان الضرائب وتدفع له القيمة بالسعر الجاري قبل أن يتدهور بسبب الوفرة بل أن خبر مشتري الحكومة يجعل السعر متماسكاً. التزم كل شيوخ القرى بالحصة المقررة لهم وفي المواعيد المحددة ماعدا شيخ (أبوسيل سعيد) شيخ حلة صقع الجمل والذي يعتبر أن منصور (وليده) ويتذكره (صغيراً) وهو يحمله على كتفه ويلاعبه. تباطأ الشيخ أبوسيل في توريد حصته وربما بسبب كبر حجم القرية وتباعد ساحات مزارعها فأنذره شيخ منصور بعد استدعائه في المحكمة بأنه إذا لم يمتثل للأمر في ظرف أسبوع فسوف يتعرض لمحاكمة إدارية. وبالطبع سارع الشيخ أبوسيل إلى تدارك الهفوة ولكنه أطلق مقولة التصقت باسمه زمناً (حكمة عجيبة أتاري صحي ود الدابي ما بِتْرَبَّى) ولما سمعها شيخ

منصور ضحك وقال له- خارج المحكمة- يا عم أبوسيل و(الدابي كان ما عضاك وهو صغير ما عارف كيف يعضيك بعد ما كبر وعرف) وبحكم شبابه مقارناً مع الشرتاي ونائب رئيس المحكمة بخاري علي كان منصور يتجول كثيراً على جمل أو حصان داخل الصقع وداخل (شرتاوية بخاري) الأكبر مساحة وسكاناً وقرى بين مناطق النظارة ويلتقى بالمشايخ وعمار القرى. ويمارس معهم نشاطات حفر الرهد قبيل الخريف وعمليات (القنص) أوائل الرشاش للحبار وأثناء الخريف لدجاج الوادي والغزلان. وفي يوم اصطاد ضمن دجاج الوادي طائراً في جناحه ووجد في أحد رجليه خاتماً مكتوباً عليه باللغة الانجليزية (النرويج:Norway) فعلم أنه جاء مهاجراً من هناك من طرف الحكومة أو جماعة ما وأرسله إلى المركز في النهود حيث علم أنه بالفعل جاء مهاجراً وطلب منه ألا يتم صيده وإذا أمكن يقبض عليه بشراك ويرسل للمركز لكتابة معلومات على رجله وإطلاق سراحه لكي يبلغ من أرسله المدى الذي هاجر إليه. وفعلاً سادت لفترة ثقافة قبض (طير الخواجات) وإرساله للنهود. وفي إحدى سفرياته للنهود وجد منصور منعم أحد زملاء الجيش يعمل في السينما المتجولة فأقنعه بالحضور لصقع الجمل كلما زار دار حمر أو جاءها في طريقه إلى الفاشر. وأوفى الزميل بوعده فكانت صقع الجمل من القرى القليلة التي ارتادتها السينما المتجولة قبل أن يتم تعميمها. ورأى الناس الطائرات والدبابات وعنتر وعبلة ومقرن النيلين.

العرف في الحياة العامة:

والعرف لا يقتصر على النواحي الإدارية والقضائية بل يضم كل أسلوب الحياة. فهناك طقوس للفرح عند الولادة وعند الختان. والشاب الذي لم يتم ختنه لا يقبل زوجاً. وفي حالة ختان البنت يتوافد الشبان من عشيرتها لينال كل منهم شرف (دفن حفرتها) أي دفن ذلك الجزء من العضو التناسلي للبنت الذي يشمله الختان الفرعوني. من يقم بعملية (دفن حفرة) البنت تكون له الأسبقية في الزواج منها على غيره- إلا إذا حال مانع من جانبه. وتتم عادات الزواج على مرحلتين: عقد القران والزفاف- ثم (قطع الرحط)- و(الرحط) مجموعة من السيور الرفيعة تلبسها الفتاة على خصرها وترقص بها ويقوم (العريس) بدفع مبلغ إضافي من المال وإقامة احتفال إضافي يعرف باسم (بقطع الرحط) ويكاد يتساوى في طقوسه وتكاليفه مع الزفاف. والعروس التي لا يقطع رحطها لا تغادر منزل أسرتها إلى دار الزوج ويظل الزوج يتردد عليها ويخصص له جانب من المنزل وقد تنجب منه وهي لا تزال مع أهلها. وقد يكبر أبناؤهما ثم يفتح الله على الزوج بمال يمكنه من القيام بطقوس (قطع الرحط) ولا يتعجب الناس إذا جاءهم صبي أو شاب يدعوهم لزواج (أمي) اي قطع رحطها. ويتم احتفال الزوجة في موكب فرح كالزفاف يسمى (الرحول) ومع ظروف الحياة تم تبسيط عملية (قطع الرحط) وأصبح الزفاف يستكمل في نفس اليوم ونسى الناس اشتراطات (الرحول) وكما نسوا عادة قطع الرحط.

وبالمثل فإن الطقوس واحتفالات ولادة (ولد) توقفت عند وليمة متواضعة في سابع يوم الولادة في حين كانت تسبقها احتفالية بحلاقة شعر المولود ويعرف باسم (الزيانة) تنحر فيها الذبائح تماماً مثل (السماية) وقد تقتصر احتفالية ذوي الدخل المتواضع على عدة قداح من (العصيدة) بملاح (الروب) ويعتبرون العصيدة والذبيحة إضافة إلى جانبهما الاحتفالي (كرامة) تحفظ المولود من العين والشيطان ويردف لهما بحجاب صغير يعلق على رقبته.

الطقوس الدينية:

وبرغم الأمية- عدم القراءة والكتابة- السائد فإن درجة الإيمان والتدين كانت عالية. ففي مطلع كل شهر قمري- هجري- يتحرى الجميع الرؤيا وليس فقط لشهر رمضان كما تطلب الحكومة في المدن. وعند رؤية الشهر تطوف الأسر المتجاورة على بعضها مباركة ومهنئة بالخير والبركة ويتبادلون (الكرامة) المكونة من (حب الدخن) المغلي على الماء بقليل من الملح (البليلة) ويضاف لدى المقتدرين عدد من حبات بقول أخرى وقدر من سمن البقر. هذه الكرامة أو(البليلة) كما تسمى تمارس أيضاً صباح كل جمعة لدى معظم الأسر. ويسود الاعتقاد أن دخان نارها المرتفع إلى السماء يرفع معه (البلاء والغلاء) غير أنه عندما يتأخر هطول الأمطار تصبح (البليلة) التزاماً على كل الأسر موسرها وفقيرها وترسل مع (العصيدة) بملاح الروب إلى تجمعات الرجال - بصرف النظر عن درجة ثرائهم- في الأماكن المعروفة وذلك قبل أن يقوموا إذا لزم الأمر بصلاة الاستسقاء والتي يسبقها (دم) بذبح خروف أو تيس حسب مقدرة القرية. وقد يتجهون للصلاة تقرباً عند ضريح شيخ مقبرة القرية في معظم القرى يكون هناك (زاوية) أو خلوة يعلم فيها الصغار القرآن. وعندما يحفظ الصغير قدراً من الكتاب يصل فيه سورة(البينة- لم يكن الذين كفروا..) يقام احتفال يسمى (الشرافة) وهي تزيين لوح القراءة بعدة ألوان من صبغة تسمى (التفتة) تعطي ألواناً تغنى بها إبراهيم الكاشف: أحمر أخضر أصفر ويطوف الصغار منشدين الجلالة حول زميلهم ويطوفون بالمنازل وتجمعات أهلهم ويتلقون مافيه النصيب ثم يعودون إلى (المسيد) ليجدوا أن أسرة المحتفى به قد أوصلت لهم قدحاً من عصيدة بملاح روب وقد يزيد عليها (صحن لحم) إذا صادف الموكب(يوم السوق: يوم الذبح) أما إذا أكمل الصبي الحفظ حتى سورة

(النبأ- أي عم يتسألون- أو أكمل جزء عم) أهلته مداركه بعدها حتى أكمل جزء تبارك (سورة الملك او المجادلة- قد سمع الله) فإن التضحية بخروف او تيس تكون لزاماً على الأسرة. ومن يتخطى كل ذلك إلى (يس) فيقال عنه أنه (تم ربع يس- أي أكمل ربع المصحف الشريف) والذي (يتم ربع يس) إذا لم تستطع أسرته ذبح (عجل) فإن عدداً من الخيرين والباحثين عن الأجر يتبرعون لنيل البركة ويصبح الشخص من (حملة القرآن) في تصنيفهم ويكون له مكان خاص وسط القرية.ويقصده من يريد (بخرة أو تميمة أو محاية) للتداوى بالقرآن. ويسمح له بعقد قرآن الأزواج. سورة (يس) لها مكانة خاصة في مجتمعنا الريفي وتعتبر تميمة قائمة بذاتها.

في الزواج تقرأ (يس) عند عقد القران. وفي ليلة الزفاف يجلس القارئ يهب الزوجين البركة بقراءتها ويتركهما قبيل الدخلة. وعند بدء (الفزع) يبحث عمن يتلوها مع آيات أخرى للعثور على المسروقات ولاتقاء شر السارق إذا كان مسلحاً. وقراءة سورة (يس) واحداً وأربعين مرة وقاية وحفظ وقد قصصت من قبل وعذراً للتكرار أنه عندما كنت معتقلاً في سجن كوبر بالخرطوم بحري عقب (الانتفاضة) في أبريل ١٩٨٥. وقد أقنع الرشيد طاهر بكر زملاءه بقراءة سورة يس واحداً وأربعين مرة كل يوم بعد الإفطار.

كان في السجن حارس برتبة (ملاحظ- صول) يتولى المرور أحياناً ليتفقد النزلاء ويتأكد من العدد. وقد كانت ملامحه يعلوها الصلاح وله لحية من نوع لحية (هوشي منه) تتدلى حتى صدره. سأل مرة: إنتوا بتعملوا في شنو. شرح له الرشيد الطاهر أنه قسم سورة (يس) على الزملاء كل يقرأ مرة أو مرتين أو أكثر حسب قدراته على أن يكملوا السورة ٤١ مرة. ضحك الرجل المتدين الوقور وقال: عجب والله والله لو بتقروا (يس)٤١ مرة جد تطلعوا من

حيطة الحجر دي ولا يتهد منها حجر ونحن الحرس ما نشوفكم. بتقروا وكل واحد عقله مشغول وساهي. كاد بعضنا أن يوقف الاستمرار في القراءة لولا توسل الرشيد الطاهر وشرح أمر الوسواس الخناس فاقتنعنا على مضض.

لابد من (طرفة) لكسر رتابة هذه الذكريات. حكى الشاويش (سيد أحمد) أن متهماً لديهم حوكم في قضية بالسجن المؤبد. وفي أخرى بالإعدام شنقاً حتى الموت. تفتكر دا يعملوا فيهو شنو يا إبراهيم أفندي. حرت جواباً فاقترح الشاويش: أفتكر أحسن شيء يعدموا ويدفنوا في السجن. وافقته على الفور. و (طرفة) أخرى في السجن أن زميلنا المنتمي لطائفة (التيجانية) كمال عمر الأمين رأى أني (مظلوم) فناداني إلى ركن وهمس لي أنه سيعطيني (اسم) أردده لمدة (٧ أيام) فقط وسيفرج عني. طلبت أن أعرف أولاً رجل الدين (صاحب الاسم) قبل أن أتسلمه منه. قال لي بكل ثقة إنه (سيدنا يوسف عليه السلام) رفضت بشدة أن أعرف (الاسم) ناهيك عن أن أردده. قلت له يا أخ كمال سيدنا يوسف نبي أبقاه الاسم في السجن سبع سنوات. عايز تقتلني وتدفني في السجن زي سجين الشاويش (سيد أحمد) وأنا أهرب من الأخ كمال تلقفني خالد حسن عباس الذي كان يتتبعنا عن بعد متأكداً أن في الأمر سراً واسماً لما عرف به كمال عمر الأمين من مبادئ تصوف. حذرته أن يقترب من كمال واسمه وإلا شيعناه سجيناً قصصت له الرواية فلحقني هارباً.

هذه التقاليد والأعراف اندثر أغلبها إن لم يكن جميعها ورغم ما نال (الخلاوي أو المسيد) من تحديث فإن طقوس حفظ القرآن التي ذكرتها يكاد لا يعرفها حتى القائمون على شئون الخلاوي وتلقين الكتاب الكريم أما التبرك بحلول الشهر أو بالقرآن ليلة الدخلة أو .. أو.. فمسائل لم أجد من يذكرها اليوم ولكن هناك عرف واحد حافظ عليه الجميع حتى الآن

وهو أن في كل قرية(ضريح) لأحد رجال الله يدفن الموتى حوله وفي مقبرة باسمه. وتروى المعجزات والكرامات عنه. وفي حالات عديدة- وإلى وقت قريب- كان الشاكي يطلب من المحكمة في حالة إنكار المتهم وعدم وجود شهود أن يقسم على المصحف على ضريح الشيخ. فيذهب المتهم والشاكي ومعهم شرطي المحكمة يحمل المصحف ليتم القسم على الضريح. وفي حالات أخرى يصر الشاكي أن يكون القسم ليس على المصحف الموجود بالمحكمة وإنما على مصحف الشيخ أو على مصحف مخطوط باليد لا مكتوب بالمطبعة. وقبل أن ينقرض هذا العرف من المتخاصمين كانت المحاكم تستجيب لرغباتهم.

... وعادة النفير في المناسبات:

من العادات التي كانت سائدة بشكل منتظم عادة (النفير) وقد اشتهر النفير في الزراعة ولكنه أيضاً في البناء. وهو التعاون المنظم بين أهل القرية في المناسبات المذكورة. فعندما تود الأسرة أن تبني منزلاً- في أي شكل من أشكاله في القرية- قطية أو راكوبة أو كرنك أو تسوير حوش فإنهم يعلنون عن المناسبة ويومها يجتمع الشباب والنساء والرجال وكل يعرف ما يستطيع القيام به وما يتوقعه منه صاحب المناسبة: قطع وإعداد الأعواد والمطارق والقش واللحى والشعب ثم حفر الأساس للشعب وعملية البناء. يقوم الداعي بإعداد خروف أو تيس و(الطعامات: شطة وملح) ثم قدر مناسب من (المريسة) يفي بحاجة العدد المشترك في (دوانة- برمة كبيرة) أو برمة أو (دلنق- أصغر من البرمة) وعادة ما يقوم الرجال الذين انتهى دورهم في الأعمال الأولى بذبح (الكرامة) ويقوم المتخصصون منهم في إعداد (المرارة) أو (أبو غازي في حالة التيس) ويجهزون النار للشواء. وفي العادة فإن رجال النفير يعتمدون على أنفسهم في إعداد مائدتهم وكأنهم في رحلة. وبقرب انتهاء اليوم يكون العمل قد أنجز وجلس الجميع احتفالاً وسمراً ونشوة.

وفي مجال الزراعة :

يتم عادة توزيع أيام النفير حسب الطلب ووفقاً لحجم (الزراعة- الزرع) وبعده أو قربه ونوع الخدمة المطلوبة: هل هي تعاون على الزراعة (بذر البذور) أم على النظافة (الحش) وفي حالة الحصاد هل(قطع العيش- أي قطع القندول من القصب) أو (دق العيش) أي فصل البذور من الرؤوس. وفي الحالة الأخيرة تستدعي وجود النساء حيث يقمن خاصة كبيرات السن بتذرية البذور في مهرجان تتقدمه الأغنيات الخفيفة ذات الإيحاءات بسبب

الانتشاء من احتساء بعض المنعشات. وبعد التعرف على نوع العمل وحجمه يقتسم الرجال في الصباح الباكر أداء الأدوار فمنهم من يجهز الحفرة ومنهم من يتبعه بالزراعة وهناك من يقوم بالعملية الأولى من (الحش) ومنهم من (يكتل) أي يردفها بأخرى تؤكد تمام النظافة وعندما يكون النهار قد قارب الانتصاف يخلد الجميع إلى ظلال الأشجار للراحة وتناول الإفطار والذي يكون شيئاً من لحم قليل وقدراً من (مريسة) أقل يتقوى بها الجميع لمواصلة العمل حتى العصر حيث يتناول الجميع غداءً دسماً سواءً من مرارة ثم شية- أبو غازي- أو كليهما والقضاء على بقية مريسة النفير ويتخلل الجلسات الحديث الحلو المرح ويعودون أدراجهم مع المغيب. وتنفرد كبريات النساء بعملية فرز الحبوب كما ذكرت وللجميع لهن تقدير خاص إذ جرت العادة أن (الضرايات- أي اللائي يقمن بتذرية الحبوب) يقطعن الطريق على المسافرين بالطرق التي تمر قرب الزراعات في الموسم ولا يسمحن للمسافر أن يواصل مسيرته إلا إذا (دفع العادة) والعادة بضعة قروش تختلف في مقدارها بين الراجل- وراكب الفرس أو الجمل- أو ناظر العموم الذي غالباً ما يكون ماراً بسيارة. والشخص الذي يتجاهل (العادة) ترتجل (الضرايات) هجاء يلحق به زمناً لا يمسحه إلا قدر مهول من (العادة) يدفعه أول موسم حصاد. وبعد موسم الحصاد وخاصة في الليالي المقمرة يتجمع بعض فتيات القرية والأمهات وبعض الأقارب من الشباب على وجه الخصوص يقيمون احتفالية غنائية تغنى وترقص فيها الفتيات وتسمى (الصفقة) إذ ليس هناك من آلات موسيقية سوى الأكف التي تصفق وحناجر الشباب التي تمارس عملية (الكرير) أي الإيقاع الموسيقي بصوت الحنجرة. وفي كل (صفقة) توجد فتيات شاعرات يخلدن مناسبات في القرية أو القبيلة أو وسط الشباب في سن الزواج ويخشى الجميع مغبة الخطأ الذي يفضي إلى (هجاء)

إذ إن ذلك يلحق عاراً لا يمحى. وعندما يشتد الحماس بالشباب يخلع أحدهم جلبابه ويرتكز على عصا ويطلب من زملائه أن يجلدوه على ظهره وهو ما يعرف باسم (البطان) في أواسط وشمال السودان ويقال عنه في دار حمر بأن فلاناً (رَتَبْ) ويجلد مرات يتطاير الدم من ظهره مما يثير إعجاب الفتيات وشفقتهن فتعلو الزغاريد ويتوقف الجلد و(يهز) عليه زملاؤه مفتخرين به ينتظر كل منهم دوره. وقد يتدخل عاقل ويقول كفى لهذه الليلة. وقبل أن تنفض (الصفقة) تكون إحدى الفتيات المعجبات الشاعرات أو النساء (الحكامات: ممتهنات شعر المناسبات) قد قامت بتأليف وتلحين أغنية إعجاب بالفتى أو مقطع هجاء إذا كان أثناء الجلد ارتجف أو (رمشت عينه) وتبادل النظرات والاستلطاف في مثل هذه اللقاءات كثيراً ما يشكل درجات من الإعجاب الذي يفضي إلى الزواج. وعادات الزواج تتشابه في كل السودان إذ تذهب أسرة الخطيب في زيارة تفقدية لأسرة الفتاة فتراها وأهلها على الطبيعة ومن طريقة الترحيب والاستقبال والضيافة يتكون الرأي الذي يشكل المراحل المتتالية في السير أو التوقف. إما إذا كانت هناك قرابة دم أو جيرة بين الأسرتين فإن طرفي العلاقة يكونان على تعارف منذ الصغر: يأكلان سوياً ويرعيان (الغنم أو العجول) مع بعضهما وقد يسبحان في ماء الرهد دون خجل إلى أن يلفت الكبار نظرهما إلى أنهما قد كبرا ويفرق بينهما دون أن يشعرا بالخجل من بعضهما البعض. غير أن أسوأ ما في تداخل علاقات الأهل والجيران هو قيام الأمهات المرضعات بتبادل إرضاع الأطفال فيمنع الزواج بينهم لأنهم أصبحوا حسب الشرع إخواناً أو أخوات في الرضاعة.

وفي الزواج:

هذه بعض عادات وتقاليد دار حمر كما عشتها في صقع الجمل أما الزواج في دار حمر فقد كانت له أعراف وتقاليد أخرى إذ كان يزف العريس في (سيرة) وهو على صهوة جواد يحف به الأهل والأصدقاء وأمه وأخواته وبنات أهله يغنين بها يبرز مناقبه وكرمه وشجاعته (حتى وإن لم يكن يتحلى بها) حاسرات الرأس ويحركن الرقاب يمنة ويسرة فيما يعرف باسم (الشقلاب) إلى أن يصل الركب إلى بيت العروس حيث يتم الاستقبال خارج الدار ويدخل الجميع حيث يستضافون ويساق العريس مع قلة من أصدقائه وأمه وأخواته إلى حيث تجلس العروس يحيط بها جمع مماثل وجسمها كله مغطى بفركة قرمصيص وهي نوع من الأقمشة التي تنسج في صعيد مصر من الحرير الصناعي ويخرج أهلها يدها من بين الغطاء ويضع عليها العريس (الحناء) بين صيحات الشباب وزغاريد الأهل من الجانبين ويصحب (خت الحناء) مبلغ من المال. ثم يكشف العريس الوجه الذي سرعان ما يتوارى خجلاً وراء القرمصيص مرة أخرى.

ثم يعود الركب وفي الليلة التالية- ليلة الزفاف- يحضر موكب الزفة بطريقة مماثلة وتقرأ سورة (يس) تبركاً ثم يلمس وجه العروس (لمس القُصّة كما يسمى) نظير مبلغ تقبله أم العروس ثم يترك الزوجان لبعضهما ويلهو الأهل من الطرفين في الخارج بأغاني الفرح مبتدئين بأهزوجة تقليدية(عيال أم زقدو اندسوا رقدوا خلونا برة) وتتضاحك الفتيات وهن يتخيلن اليوم الذي ينتظر السعيدات منهن. كان العريس يستمر بعد الزفاف أربعين يوماً ترعاه أم العروس بتغذية خاصة مع أصحابه وتتعمده كبريات النساء بالدلكة حتى يقال مبالغة أنه بعد اليوم الأربعين يقطر جلبابه دهناً عطراً. ثم تقلصت الأيام الى سبعة ثم ليلة واحدة وعرسان آخر زمن.

.... وعن قبيلة حمر:

الصقع وهي كما ذكرت كانت حاضرة الدار أيام الشيخ إبراهيم ود المليح والذي له تجمع ماء حتى الآن يعرف باسم (بيار ود المليح) ود المليح ناصر المهدية وكالعادة استدعاه خليفة المهدي إلى أم درمان مع بعض القيادات القبلية. ويبدو أنهما قد اختلفا في بقائه في البقعة أو في شأن إدارته للقبيلة فاستبقاه ثم سجنه ولما جاء وفد القبيلة لاسترحام الخليفة أرسل في طلبهم وأخبرهم أنه لا يرجو العفو من الخليفة وأنه بعد أن هرب (سلاطين باشا أوعبد القادر كما اسماه الخليفة أو شويطين كما يناديه العامة) فلا بد أن (التُرُكْ- أي الإنجليز والأتراك والمصريين) سيقودون حملة لقتال المهدية وعندئذ سيحتاج إليه الخليفة فيطلق سراحه دون طلب عفو يكون إذلالاً له ولقبيلته أو سيبقى في السجن ويطلق (الترك) سراحه لأنهم سوف ينتصرون بعد أن عادى الخليفة كل القبائل. وبالفعل انتصر(الترك) وأطلقوا سراحه بعد أقل من عامين. ولم تكن صقع الجمل هي الحاضرة الوحيدة لقبيلة حمر إذ كانت هناك عدة عواصم اقتضتها ضرورة الاستقرار والأمان وحفظ حدود (دار حمر) المترامية الأطراف والتي اشتراها الحاج منعم ود سالم من السلطان حسين بن سلطان دارفور محمد الفضل الذي كانت تتبع له هذه الرقعة التي تمتد حتى حدود مدينة الأبيض عند قرية (العيارة) وجبل (أبوسنون) والعيارة هجاء أطلق على إمراة من قبيلة حمر اشتهرت بأنها تشتم- تعاير- كل من يخالفها فأطلق عليها اسم (العيارة) وأصبحت القوافل تتحاشى المرور على قرية العيارة. أما (جبل أبو سنون) فهو معروف. هذا الجزء من أرض دار حمر وكيفية وصولها إليها مهاجرة من اليمن في رواية ومن شمال أفريقيا في رواية أخرى- وشرائها من سلطان دارفور اقتبس أغلبه من رسالة ماجستير لأحد ابناء دار حمر الباحثين- السيد أحمد حمدان- المحاضر عند كتابة هذه

الذكريات بجامعة الرباط، وقد اعتمد الباحث السيد في رسالته- التي كانت بإشراف البروفيسور عوض السيد الكرسني على وثائق تسع تبدا بخطاب تعيين الناظر منعم منصور ناظراً لعموم قبائل الحمر في ٢٣ يوليو ١٩٢٨ وتشمل نسب القبيلة وتنتهي بالوثيقة النحاسية التي توضح حدود أراضي ديار حمر والتي تم شراؤها من سلطان دارفور حسين بن السلطان محمد فضل والمؤرخة ٢٢صفر ١٢٢٧ الموافق ١٨٠٢م والموجودة لدى ناظر عموم حمر (الأمير فيما بعد) عبدالقادر منعم منصور. كذلك اعتمد الباحث السيد على معلومات شفوية من أعيان وشخصيات في دار حمر وفي دارفور عددها ٢٨ فرداً أبرزها من حمر مصباح يوسف دود المعاليا والفكي محمدين حامد إبراهيم من حفظة القرآن وقد تجاوز عمره المائة عام وبذهن حاضر وعبد القادر منعم منصور الناظر(الأمير) وأخوانه محمدين وحامد وأحمد وأخته فاطمة (الملكة) ومن قبيلة (برتي) الناظر الصادق عباس ضو البيت ومن قبيلة (الفور) محمد بشار أحمد (شرتاي) وعمر أحمد زروق (شرتاي) و(الملك) رحمة الله محمود في الفاشر ومن الجعليين أعيان النهود (يسن أحمد جحا) بل ومن المملكة العربية السعودية محمد عبدالله الصويلحي الرقيب في الشرطة السعودية والمقيم بالمدينة المنورة. من أبرز إفادات الشرتاي محمد بشار أحمد- فوراوي- من زالنجي- قارسلا أن سلاطين الفور أعجبوا بشجاعة حمر بعد اختبارهم في أكثر من معركة ولذلك- وضماناً لعدم تحالفهم مع بعض قبائل كردفان – وافقوا على الفور على طلبهم شراء أرض تكون داراً لهم وحاجزاً بينهم وبين تلك القبائل كما أنها تجعلهم أكثر قرباً للسلاطين.

وشملت مصادر البحث القيم مراجع باللغة العربية لسودانيين وعرب وفرنجة (مترجمة) أبرزهم- دون تقليل من قيمة الآخرين- سلاطين باشا ودكتور عون الشريف

ودكتور منصور خالد والدكتور أحمد زكي بدوي (طبعة لبنان) ودكتور عبدالغفار محمد أحمد والأستاذ موسى المبارك ونعوم شقير والبروفيسور يوسف فضل. كما شملت أيضاً رسائل جامعية غير منشورة عددها خمس منها بحث عن الطريقة التيجانية للبروفيسور عوض السيد الكرسني باللغة الإنجليزية وآخر للأستاذ إسماعيل علي الفحيل ودراسة عن تراث الحمر الشعبي للأستاذ محمد أحمد إبراهيم ورسالة عن (الدقاقيم). وقد انفصل عبد الرحيم سالم الملقب (أبو دقل) عن الدقاقيم في عام ١٨٧٣ لفرع ثالث هو (الغريسية) وبقرار من الحاكم التركي (حسن باشا الجويزير) وافق عليه حاكم عموم السودان إسماعيل باشا أيوب وذلك قبيل قيام الثورة المهدية والتي انضم إليها وحارب مع القائد حمدان أبوعنجة في جبهة الحبشة مما أكسبه مكانة في المهدية. وبهذا فقد أصبحت فروع القبيلة الثلاثة كما يلي: العساكرة(الطرادات)- الدقاقيم- الغريسية.

العساكرة: ويشمل ثلاثة خشوم بيوت هي : الدمالج، الخمسات والدويش أو عيال طراد.

(١) الدمالج: يشمل:

١-بني بدر ٢-الغشيمات.

(٢) الخمسات : ويشمل:

١- الخريسات٢- الجخيسات ٣- المنانعة.٤- المناضير ٥- الميامين.

(٣) الدويش أو عيال طراد:

١- الطرادات ٢- الغنيمية. ٣- الفواضل.

٤- الصبيحات ٥- النواجات ٦- أولاد خضرة.

٧- الجلدة. ٨- الحرباش ٩- الجواميس.

١٠-التيايسة. ١١- الخوازم ١٢- المعاركة.

١٣-الشماعين ١٤- القرعان.

الدقاقيم : ويشمل خشوم البيوت التالية:

١-ناس أبوزيد. ٢- أولاد شضوان. ٣- أولاد برعاص.

٤- أولاد عامر. ٥- أولاد سحايا. ٦- الصبحة.

٧- الجمعانية. ٨- الشعبيات. ٩- الوايلية.

١٠- أولاد ساري. ١١- أولاد صبيح. ١٢- الغرقة.

الغريسية: ويشمل فرع الغريسية البيوت التالية:

١- الهداهدة. ٢- أولاد شيغان. ٣- عيال جويد

كما شملت المراجع كتاب الآليات التقليدية في فض النزاعات للأستاذة فاطمة الأمين واخرى عن دور الحكومة المركزية والإدارة الأهلية في فض النزاعات القبلية في دارفور. أما المصادر باللغة الإنجليزية فقد بلغت إثني عشر كتاباً ورسائل يرجع بعضها إلى عام ١٨٦١م عن (مصر العليا) ثم عام ١٨٨١م وعام ١٨٨٩م وأعوام ١٩١٢م و ١٩٣٥ و١٩٤٠ إلى اعوام ١٩٥٧ و ١٩٩٨م في كتابات مفتش مركز غرب كردفان (النهود) إلى مدير مديرية كردفان (الأبيض) والمستر هارولد ماكمايكل- مفتش ثم مدير مديرية كردفان ومؤرخ- والمستر هندرسون في كتابه عن قبيلة حمر والمؤرخ ريتشارد هيل وغيرهم.

بعد كل هذا من هم (حمر) وكما قال الأديب الفذ الطيب صالح (مع الاعتذار والفارق) من أين أتى هؤلاء الناس. كعادة القبائل السودانية المسلمة والتي تتكلم اللغة العربية

بمختلف اللهجات فإنهم يرجعون بنسبهم إلى الجزيرة العربية. هذا شأن المتواضعين منهم. أما الآخرون فإنهم ينتسبون إلى الدوحة النبوية الشريفة سواء إلى سيدنا الحسين بن علي كرم الله وجهه أو إلى أخيه الحسن. وبما أن الحسين (شهيد) فالغالبية تميل نحوه.

لابد من طرفة: عند مصالحة السيدين علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي بعد الاستقلال قام وفد من الختمية برئاسة وزير الحكومة المحلية الشيخ محمد أحمد المرضي بزيارة مجاملة الى قبة الامام المهدي ووجدوا في بابها لوحة بنسب الامام محمد احمد المهدي ابن .. ابن ....سيدنا الحسن بن الإمام علي كرم الله وجهه. وهمس شيخ المرضي لمرافقيه من خلفاء الختمية: والله انتو شطار منتسبين الى سيدنا الحسين طيب ما دام اصلوا كذب في كذب ما كان الأنصار ينتسبوا لسيدنا الحسين: أقلو شهيد ما لهم ومال الحسن.

...ونسبهم:

وشجرة النسب التي تتجمع حولها فروع القبيلة تلتقي عند الشريف محمد الأحمر بن درك بن السيد حسن المعارك (الطرادات آل مكي ومكين ومنهم آل محمد الشيخ). الدقاقيم (آل ابو دكة- فتين- أبو جلوف) و(الغريسية آل أبو دقل) وبالنسبة لأسرتي المباشرة فإن النسبة المكتوبة عند الشيخ محمد عبيد الله والأمير عبد القادر منعم منصور تقول باسمه: عبدالقادر بن الشيخ منعم بن الشيخ منصور بن الشيخ محمد الشيخ الملقب جلد الفيل بن الشيخ إسماعيل النعاس الملقب سكاك بن الحاج منعم بن الشيخ سالم بن الشيخ عيسى بن عامر بن عثمان بن طراد بن الشريف محمد الأحمر بن درك بن السيد حسن المعارك بن الشريف محمد دشم بن حسن بن السيد أحمد بدر بن السيد رافع بن الشريف عامر بن السيد الحسن بن السيد إسماعيل بن السيد عبدالله بن السيد إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي كرم الله وجهه. أما اقسام القبيلة أو فروعها فهي في الأصل فرعان عسكر (الطرادات) ودقوم

ومنهما تتكون قبيلة حمر ولا وجد من ينكر ذلك خاصة كبار السن ونظار القبيلة الذين شملهم البحث. ومازال هنالك عدد غير قليل من الناس يرى أن الغريسية أحد فروع الدقاقيم ولكنه يقر بوجود نظارة مستقلة لهم. من أين جاءوا ؟ دخلت القبيلة السودان من جهة الشمال الغربي من شمال أفريقيا حوالي ١٦٠٠م قادمة من أرض الحجاز شرق المدينة المنورة عن طريق الشام. استقرت شمال مدينة (كتم) في دارفور شمال الفاشر ثم غادروها بسبب قلة المرعى الدائم إلى منطقة (الطويشة) الحالية شرق دارفور واستقروا في المنطقة بين قبائل (برتي) وقبيلة (المعاليا) كان لقبيلة حمر زعيمان: سالم تريشو ناظر فرع العساكرة (الطرادات) وحمد أبو تابر ناظر فرع الدقاقيم (إذ إن حمر عسكر ودقوم) وهم يهمون بالخروج من دارفور بحثاً عن مكان آمن من مناوشات القبائل- وآمن من حيث الماء والمرعى- اختلف الزعيمان. كان من رأي (أبو تابر) أن تتجه القبيلة شمالاً حتى تصل (البحر) نهر النيل فتستقر بعيداً عن الغير وعن العطش. وكان من رأي سالم تريشو أن تسير القبيلة نحو (الصعيد جنوباً) إذ كلما ساروا جنوباً وجدوا ماء ومرعى. أما القبائل ومناوشاتها فهم كفيلون بها إذ إنها سنة البادية. اتجه كل زعيم مع أهله وبعد فترة رأى سالم تريشو أن يتفقد أخاه فأرسل الرسل يتعقبون المسار فهالهم أن بدأوا يجدون بقايا جمال نافقة وهياكل بشرية ناشفة. ثم توقفت البقايا وتوقف الأثر. ماتوا (هافوا) جميعاً بشراً وسعية. وعرفت الواقعة باسم (هيفة أبو تابر) غير أن بعضاً- بإسناد ضعيف- يقولون أن قبيلة الكبابيش طمعت في القافلة واستفادت من ضعف حالها بسبب الجوع والعطش فقتلت زعيمها أبو تابر ومن معه واستولت على الغنائم. بيد أن هذا قول ضعيف روج له البعض- كما قيل- عند شحذ الهمة لقتال الكبابيش في معركة (العقال).

.....وحروبهم:

وكما توقع سالم تريشو فقد اشتبكت حمر مع قبيلة المعاليا وهزموها في معركة عرفت باسم (معركة القرطاس) والقرطاس هو الورق والإشارة إلى أن قافلة لسلطان دارفور قامت من الفاشر في طريقها إلى الحجاز وقد كلف قبيلة حمر بحمايتها من القبائل التي تعترضها.كانت القافلة تحمل كسوة للكعبة كما تحمل كمية من (السكر الرأس) والمعبأة في جوالات والمغلف بورق أو قرطاس أزرق اللون. خلال المعركة تفلتت كميات من القرطاس وانتشرت في المنطقة أدت إلى تسمية المعركة باسمها.

ثم اتجهت القبيلة شمالاً مرة أخرى إلى منطقة (أم شنقة) شرق منطقة (أم كدادة) الحالية حوالي ١٧٥٠ م حيث عرفت للقبيلة هيبة وكينونة رشحتها لكي يستعين بها سلطان دارفور (تير اب) في حرب ضد قبيلة المسبعات في معركة عرفت باسم فرشاحة غرب مدينة الأبيض والتي هُزِم فيها (هاشم المسبعاوي) سلطان المسبعات الذي هاجر خارج المنطقة كلها ولجأ للسلطان (محمد أبو لكيلك) في سلطنة الفونج بمدينة سنار ثم اتجهت القبيلة إلى ما يعرف حالياً بكردفان ووجدت خيراً في مناطق(فوجا) و(أم بادر) و(أبو زبد) و(الفرشاحة) قبيل عام ١٨٨١م . كان زعيم القبيلة سالم تريشو قد توفى وخلفه ابنه الحاج (منعم) الذي أنجب البنين (مكي أبو المليح) و(مكين) وهما اللذان تنسب دار حمر إليهما أحياناً فيقال دار (مكي ومكين) وكان لهما أخ ثالث يعرف باسم (إسماعيل السكاك) وبعد اكتشاف مناطق كردفان ترك الحاج منعم ابنه مكي الملقب أبو المليح في (أم شنقة) واستقر هو وابنه إسماعيل السكاك في (فرشاحة) حيث توفى حوالي ١٨٢٤م. خاضت قبائل حمر عدة حروب متتالية للمحافظة على كينونتها وعلى (الدار) التي بسطت نفوذها عليها سواء في دارفور أو في

كردفان. فكانت حرب ١٨١٨م مع قبيلة (الزيادية) في منطقة (البحير) شمال دار حمر بكردفان عندما أرادوا احتلالها فهزموهم وقتل زعيمهم (بخيت ود قبلة) كذلك خاضوا حروباً مع (المسيرية) حول منطقة (الأضية) ذات المورد المائي فطردوهم منها بقيادة فارس من فرع الفواضل- الطرادات- اسمه اشتهر لغرابته إذ كان يدعى ويكنى (جمعة محمد مغطى يابس) واستمرت المعارك مع الحوازمة والنوبة حول (أبوزبد) أما الحوازمة فقد تركوا المنطقة كلها بعد الهزيمة واستقروا حيث هم الآن حول (رشاد) في شرق جبال النوبة.اما النوبة فقد آثروا (الصلح) على أساس أن الحدود بين القبيلتين هي (الأرض) حد حمر وحد النوبة (الجبل) بمعنى أن النوبة لا يقربون (الأرض) فهي لقبيلة حمر وأن حمر لا يعتلون الجبال فهي لقبائل النوبة. اما المعركة الكبرى التي حسمت حدود دار حمر الشمالية بخلاف حرب (الزيادية) فقد كانت مع القبيلة المعنية والغنية (الكبابيش) وقد عرفت باسم (دوسة) أو معركة العقال عام ١٨٧٠م العقال إشارة إلى كل قبيلة (عقلت جمالها أي أوثقت أرجلها) ونزلت الميدان تحت شعار الموت أو النصر لا مجال للهرب. هنا يقف اقتباسي من بحث الاستاذ السيد فأقول ما حدث يشبه تماماً مثل ما فعل القائد طارق بن زياد مع قواته عند فتح الاندلس بأن أحرق (المراكب) التي أقلت الجنود وتركهم أمام عدوهم أو الغرق في البحر. انتصرت قبيلة (حمر) في حرب العقال ولكن نظراً لأهميتها في تاريخ حمر القديم وأثرها في الاستقرار الحديث للقبيلة لابد أن أورد الإرهاصات التي سبقتها والنتائج التي لحقت بها إذ كانت قبيلة الكبابيش تريد أن تتوسع جنوباً(صعيد) فتضم مورد المياه المعروف حتى الآن باسم (فوجا) إلى سلطتها، وبالقوة. الأمر الذي رفضته بالطبع قبيلة حمر واستعدت للقتال من أجله- ويرجح البعض أن المعركة دارت في منطقة تعرف باسم (جبل أبو فاس) شرق مورد (أم

بادر) ويرجح أخرون أن المعركة كانت في عقر دار حمر في منطقة (الدم جمد) ولعل مكان المعركة كان يعرف باسم آخر لكن بعد انتهائها (جمدت) الدماء التي سالت في برك متعددة عرفت بعدها المنطقة حتى اليوم باسم (الدم جمد) والدة ناظر الكبابيش الشيخ السالم وهي امرأة حكيمة وفي رواية ضعيفة زوجته حذرته ولكنه لم يستمع للنصح. وبالمثل نصحه (مكي أبو المليح) زعيم قبيلة حمر في خطاّب يعتبر قطعة أدبية وعسكرية نورده هنا.

..... حرب العقال أو دوسة العقال: التي ثبتت أركان دار حمر:

وقبل أن نتعرض للخطاب نورد رواية أخرى أكثر دقة عن أسباب حرب العقال وهي أن قوافل من قبيلة حمر اعتادت السفر إلى دار الكبابيش حيث يكثر (الملح) على سطح الأرض في منطقة تسمى (القاعة) ويحملن ما تستطيع القوافل لاستخدامه في تسمين أنعامهم. وفي مرة اعترضت القوافل جماعة من قبيلة الكبابيش ويبدو أنه كان بينها ناظرهم الشيخ فضل الله ود سالم إذ إن الجماعة كانت تحمل معها (نحاس القبيلة) وقد انتصرت قافلة حمر على مجموعة الكبابيش وسلبت منهم النحاس الأمر الذي جعل الشيخ فضل الله يرسل خطاباً عنيفاً إلى الشيخ مكي أبو المليح يخطره فيه أنه منذ الآن فإن حدود داره في (الدمارة) أي الاستقرار وقت شح المياه صيفاً في (فوجا) داخل حدود حمر: جاء في الخطاب (السودان في رسائل ومدونات: الجزء ١٣ ص ١١٨ سنة ١٩٣٠).

(في فوجا أم خيارة عاوز له دماره): أي دماره في فوجا ذات الخير أي الماء.

(كان حاوطوك حمر): أي أحاطوا بك ليحاربوك.

(بدس فيهم حماره): أي أدخل وسطهم أحاربهم بحمار وليس بحصان أو جمل.

(أغر وبي كدارة): وصف للحمار له غرة. والكدر هو رجل الحمار.

(بشيشك يا يمة العيش برد): أي على مهلك يا والدة. العيش هو العصيدة أي أن حمر لا يحتملون أكل العصيدة وهي ساخنة ويطلبون من أمهم أن تجعلها باردة فكيف يحتملون الحرب وهم يخشون الأكل الحار.

(لا يشيلو كنجارة): والكنجارة من قبائل دارفور. أي لا تأتي كنجارة وتستولي على العصيدة الحارة.

وفي الخطاب تحقير واضح. وتهديد الاستيلاء على مورد ماء فوجا.

وكما سبق بيانه فإن قافلة حمر أخفت نحاس الكبابيش في أحد كهوف الجبال التي تنتشر على الحدود بين القبيلتين ولم يعثر عليه حتى الآن كما سبق ذكره. وبالطبع سارع الكبابيش إلى جلب نحاس آخر على وجه السرعة من مصر التي كانوا ولا يزالون على صلة بها عبر درب الأربعين.

وقد أشار رجال قبيلة حمر على الشيخ مكي أن يبادل الخطاب بآخر أشد تحقيراً وعنفاً. وإنذار بأنه قادم إليه في (حربة) أي جيش لا قبل له به.

الأمر الذي أود أن أركز عليه هو أننا لا نسعى من هذا الخطاب ولا من وراء ذكر الانتصارات على القبائل التي بادرت حمر بالعداء والاعتداء أن نقوم بإحياء (عصبية) فليس منا من دعا أو يدعو إليها.كما لا نسعى إلى تفاخر جاهلي واستعلاء وإنما رأينا فقط أن نشير إلى تاريخ مجيد يجعلنا، نحن أبناء هذا الجيل ومن بعدنا، نعرف من نحن وصلاً إلى أنسابنا وأرحامنا والتي عندما كانت متجردة في علاقة بعضها البعض وفي علاقتهم بالدار التي أسسوها وضحوا لحمايتها. كانوا وحدة مهابة لمصلحة بعضهم البعض: رفعوا اسمها وسعى

الجميع من حولهم ومن على البعد لاحترامهم وكسب ودهم والاحتماء بهم والعيش في كنفهم حتى أضحت(فروة النمر).

نشر خطاب الشيخ مكي المستر هندرسون مساعد مفتش غرب كرفان (حمر) K.D.D. Henderson لأول مرة في مجلة السودان في رسائل ومدونات Sudan notes and records الجزء ١٣ ص ١١٧ عام ١٩٣٠م . ثم نشره الأستاذ محمد أحمد إبراهيم في بحثه عن (ملامح من تراث حمر الشعبي إصدار شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم عام ١٩٧١). وكذلك الأستاذ السيد أحمد حمدان في الرسالة الضافية التي نال بها درجة الماجستير في العلوم السياسية من شعبة العلوم السياسية بكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية بجامعة الخرطوم عام ٢٠٠٠م.

وكل هذه المصادر الثلاثة اعتمدت على الروايات التي حفظها الأحفاد عن الآباء والأجداد. وأهمها ما رواه الدكتور الدرديري إبراهيم الدسوقي عن أحمد عبد الرحيم بري (سوبة) قبل وفاته.

ومع أن ما نشر عام ١٩٣٠م كان أقرب تاريخياً إلى النص الأصلي (١٨٧٠م) إلا أن ناقله أجنبي إذ تحدث اللغة العربية التي لابد أن يعرفها بحكم منصبه إلا أن (لهجة) حمر قد تجعل بعض الكلمات والتعبيرات لا تأتيه بنفس سلاسة العربية الفصحى التي تعلمها بينما لا تفوت على (الحمري)، حسب لهجته.

وما بين أول تدوين للخطاب بشكل وثائقي وبين (دوسة العقال عام ١٨٧٠) تتابعت روايات وروايات تفسر بعض الاختلافات اللفظية مع أنها قليلة وصغيرة لم تؤثر على متن الخطاب.

ويقال في رواية أن الشيخ مكي عهد إلى أحد (الفقراء من يعرفون القراءة والكتابة بحكم حفظهم للقرآن الكريم) بالكتابة فبدأ الفكي قائلاً : (بسم الله جوابا إلى البرضا واليابا. اللهم يا مسبب الأسباب ويا مجري السحاب) وقبل أن يسترسل أوقفه الشيخ مكي وعهد إلى آخر هو الفكي أحمد ود عيسى أبو أماً جابت. أي ولدت. وتبادل الاثنان الشيخ والفكي لغة الخطاب غير أنه ينسب إلى الشيخ مكي إملاء الخطاب وإلى الفكي أحمد ود عيسى مجرد الكتابة.

وسأحاول شرح بعض المفردات والمعاني التي وردت في الخطاب ما أمكن. يقول الخطاب:

(يا سالم يا ود سالمينا أنت مننا وأبوك أخينا). أي أننا أهل.

(يا شايب الكلاب الطالن سنينا): أي : كناية عن طول العمر والهرم بحيث لم يعد ذا نفع.

(لا تسمع قول المخربينا فروخ الحرام المفسدينا): أي : أبناء الحرام كناية عن عديمي الأصل.

(لا عاشوا فيك لا ربيو فينا). أي: لا علاقة أو ولاء لهم لكم أو لنا فهم لا يأكلون معكم ولا معنا عيش وملح.

(ديل (.... و.... و...) . أسماء لثلاث قبائل كانت تحرضه).

غدارين لي كتب مكة والمدينة. أي: يحلفون زوراً على القرآن بسوره المكية والمدنية.

(قضيباتهم ضويلات العقارب). أي: شعور رؤوسهم ملتوية كذيول العقارب كناية عن الغدر والفتنة.

(هذا عامر وهذا خارب).

(سبوك في مكي ومكينة). أي: فتنوك في حمر. وحمر : أولاد مكي ومكين.

ثم يبدأ في وصف جيشه:

(جاتك حربة حاشدة مى ناشدة). حربة أي جيش حاشد كثيف مي ناشدة: أي لا تنشد دليلاً فهي تعرف طريقها.

(من ورى حشد). أي: من الوراء وهي تطلع القوز المرتفع الرملي ترى حشدها.

(ومن وسط انفزرت). أي : انبسطت مع انبساط السهل وهي تنزل من القوز الخلفي.

(ومن قدام مزنا مزرق بان): أي: ظهر أولها في المقدم كثيفاً أيضاً مثل السحاب الأزرق المثقل بالمطر.

والمعنى العام: أن هذه (الحربة: الجيش) يرى آخره ووسطه وأوله من كثرة عدده وهو ينزل من المرتفعات خلفه وفي السهل وهو يظهر من جديد في المرتفعات امامه (وهي كثبان الرمل القيزان).

وصف فرسان الجيش(الحربة):

(فيها صقور السرح الكلهم خبران): السرح نوع من الشجر تجلس على قمته صقور خبيرة بما تود اصطياده أي أن كل الفرسان خبراء بفنون اصطياد العدو.

(فيها بكر ود حمدوك فارس الرحمن). أي: من حملة القرآن.

(فيها أبو ركو قلبه حجر ملان).

(فيها أبو عريضة تركة الديدان). أي: حفيد من لا يهابون الموت والدود هو الأسد والديدان هم الأسود.

(فيها دلم ودعشاي تور جاموس عفنان). أي: لا يعاف أو يهاب الموت.

فيها السمح الباطل الجفران. أي: النحيف غير المترهل والجفران ينفر منه العدو مثل الإبل التي أصابها مرض (الجفار).

(فيها كيران كيف الكلب جحمان). من شدة شوقه للدماء والقتال.

(فيها أبو دقل بي بندقه الرطان). أي: ببندقيته التي تطلق عدة طلقات (ولعلها أبو خمسة في ذلك الوقت) قبل أن تتوقف وشبهها (بالرطانة).

(وفيها مكي أبو المليح كيف جبل ضلمان). في مهابته. وليس جبل لبنان كما ورد في بعض النسخ.

(بتلفت يمين وشمال يتفقد الفرسان).

(كان واحد فيهم غاب يكون ندمان).

ثم يعدد خشوم البيوت المشتركة في (الحربة):

(فيها عيال دويش جرعة السم بقة القطران). وعيال دويش أحد خشوم البيوت في حمر العساكرة. والقطران معروف وهو مستخلص من تقطير حب البطيخ ويداوى به أمراض الإبل.

(فيها عيال (طراد) شايلين دق الصحابة). ودق الصحابة سيوف يقال أنهم ورثوها عن الصحابة الذين ينتسبون إليهم وحاربوا بها الكفار على رؤوسهم تمييزاً لهم ودليل الشدة.

(فيها (دقاقيم) قدر التراب نقط المطر صب العجامة). أي: مثل المطر الذي ينزل وفي تدافعهم للقتال مثل(الأعجمي) الذي يصب الماء لقلة خبرته.

(فيها دار(غريس) وفيها دار(سلامة).)

(وفيها كروراً فوق كرور ماليهن قيامة). أي: أعداداً فوق أعداد كيوم القيامة من كثرة الإشارة إلى الحلفاء من غير حمر.

ثم يصف نفسه ويعدد مواقفه وجبن خصمه:

(الشيخ العزيز بايدا قاما). أي : قام بنفسه.

(سل السيف وقبض لجامه). أي: قبض لجام حصانه استعداداً للمعركة.

(انت قبال دي جريت زي النعامة). يشير إلى المعركة مع قافلة حمر التي جاءت بحثاً عن (الملح) فاشتبكت مع مجموعة الكبابيش بقيادته.

(خليت البهم بي عيالة ناما). أي: تركت وراءك البهم وهم صغار الغنم. كناية عن أولاده. نائمين مع أمهم.

(خليت المستر بي أكمامه). أي: تركت بيت(الشعر) المستور وفيه أمهم.

(خليت في بطنه عروس زي الحمامة). زوجته.

(وخليت الصفير يجري في برامه): الصفير هو الخمر الصفراء اللون(عسلية) التي صفيت في البرام (أواني الفخار).

(وخليت النحاس اليبكي زامه). أي: بصوت حزين زمه الألم.

(أنت ما لقيت ليك أبوياً يرشدك ولا أخوياً يهديك).

(شن جابك للذيب.) أي: ماذا أتى بك للذئب.

(كان أداك بايدا ولطمك رماك). أي: إذا ضربك بيده يرميك.

(لا كدمك ولا عضاك). أي: لا يحتاج لأن يستخدم أسنانه ليعضك لضعفك.

(إنت لا تقدر تلاطم الفيال). أي: لا تستطيع أن تقاتل الأفيال.

(الفيال لا تلاطمهن. إن قلت تلاطمهن تبقى من رمايمهن). أي من قتلاها.

لم يأبه الشيخ سالم لنصح وتحذير الشيخ مكي ولا لنصح وتحذير والدته فساق فرسانه ومعهم والدته ودخلوا دار حمر. وعند اللقاء اتفق الجانبان أن يعقل كل منهما جماله- أي يقيدها- وعند بدء الحرب إما النصر أو الموت. لا أحد يمكنه الهرب لأن الجمال كلها معقولة والنساء من الجانبين في (خيام) في مؤخرة الجيشين. وقعت الهزيمة بقبيلة الكبابيش ونجا الشيخ سالم تاركاً وراءه والدته في خيمتها وزقاق الخمر التي أعدت للاحتفال بالنصر. وكعادة العرب الأحرار فقد أمر الشيخ مكي أبو المليح بألا يقرب أحد من رجاله (أعراض الشيخ سالم) وأن تساق الوالدة الكريمة في هودج يليق بمكانتها ومعها هدايا من إماء وعبيد وإبل ويحرسها فارس من (النواجات- أحد فروع الطرادات ويمت بقرابة إلى إبراهيم حامد مصطفى) ومعه فوارس من القبيلة إلى أن تصل إلى مقر ابنها. لم تنس الملكة الكريمة ظروف الحرب ولا هذا الموقف فسجلت كل ذلك في قصيدة أصبحت المنارة لزعماء قبيلتها في التعامل مع حمر. قالت مخاطبة ابنها (وحتى يتابع القارئ من غير أهل البادية الحديث أورد الشرح فيما يلي للمفردات ثم أتناول القصيدة): ريسوا- سلموه الرئاسة، عوارة- الجرح الذي لا يبرأ مهما عولج، شق الريح- مجرى الماء والريح شمال أي منطقة دار الكبابيش وهي شمال دار حمر(الصعيد- الجنوب أي دار حمر)- (كنجارة) إحدى قبائل الفور غير العربية، كتالا- قتاله.

من يوم ريسوا باقي لنا عوُّارة

شَقّ الريح أباه قال الصعيد دارا

قلنا لكم يمين قلتولنا لي يسارة

سامعين صوت نحاس قلتولنا نقارة

قلنالكم عرب قلتولنا كنجارة

قلنا لكم حمر قلتولنا بقارة

دا مكي أبو المليح ما بتقدروا كتالا

(وبما أن كل الروايات شفاهية رغم توثيقها إلا أن الأمير عبد القادر منعم منصور يشكك في أن تقول القصيدة الأم في ابنها ويعتقد ربما عن مصدر - بأن القائلة زوجته لا أمه).

وفعلا لم يستطيعوا قتاله. المؤسف في الهزيمة بجانب (أسر) أم الشيخ والاستيلاء على رمز النظارة وهو (النحاس) الذي يضرب في مناسبات الفرح- والأعياد- والاستنفار- واستقبال ووداع كبار ضيوف القبيلة. أخفى حمر نحاس الكبابيش في المرة الأولى في إحدى (مغارات) الجبال المتناثرة في شمال دار حمر وبمرور الزمن لا يعرف له الآن مكان كما لا يعرف الذين أخفوه والذين لا شك صاروا في ذمة الله ولكنهم أعادوه هذه المرة مع الوالدة الكريمة. تناسى الجميع من الطرفين الحادث غير أن الأخ الصديق الضابط السابق (معتصم قرشي) وهو من قبيلة الكبابيش لا يزال يذكر الأمر كمدخل لحديث الأخوة الضاحك بيني وبينه كلما التقينا. يا أخي كلم أهلك يدونا نحاسنا. أسهبت في الحديث عن علاقات وخلافات ومعارك قبيلة حمر مع عدد من القبائل- الصديقة كلها اليوم وذلك لسببين: الأول هو أن يقرأ أبناء دار حمر: عسكر ودقوم وغريسية وفروة نمر كيف حاز أجدادهم على هذه الدار وكم بذلوا في ذلك من نفس ونفيس وليس أعز من هذين شيء ينفق. لا أقصد تجريحاً أو إساءة لقبيلة إذ إن ما ذكرت قد نشر قبل أكثر من سبعين عاماً في موسوعة السودان في رسائل ومدونات

وتجاوزه الجميع. والسبب الثاني هو أن من يقرأ ببصيرة خطاب الشيخ مكي أبو المليح يجد فيه (وحدة) دار حمر: كلها. لم يتميز فيه إلا القائد بحكم منصبه بحكم أنه يمثل الجميع. أسوق هذا عظة لبعض أبناء دار حمر خاصة من غير فروة النمر الذين يسعون اليوم وأحياناً يتزلفون للحصول على منصب ليس فيه من (سلطة) سوى امتطاء عربة (لاندكروزر) على حساب (اقتطاع) جزء من الدار (غبيش والاضية) أو (أبوزبد) أو (أبوزبد والخوي) وهو يعلم أن من يتزلف إليه (يمتطي صهوته) هو قبل اللاندكروزر لتنفيذ (أجندة) ليس لأهله أو للدار فيها خير- بل تمزيق لها وتمزيق لوحدة بنتها وجمعت حولها كل السودان: غرباً وشمالاً وجنوباً وشرقاً ووسطاً. وليس من وراء ذلك مقابل سوى (التسلط) على رقاب الخلق.

العلاقة مع قبيلة الكبابيش: من العداء- إلى التعاون- إلى الوفاق:

هدأت الخواطر كما يقولون واستجاب الجميع إلى صوت العقل وبدأت الزعامات تفكر في التعاون لمصلحة قبائلها في مواسم الأمطار والزارعة وفي أوقات (الدرت- حصاد المزروعات) وفي تنظيم علاقات القبيلتين في كل منها. كذلك رأى زعيم الكبابيش الجديد أن يبحث عن تحالف دائم مع زعيم لقبيلة حمر يتفهم معه العهد الجديد بينهما.

وبمرور الزمن اتفق الكبابيش وحمر على (مسارات- أي طرق) يتبعها الكبابيش عندما يتجهون جنوباً أثناء فصل الأمطار للرعي والماء وذلك لكي يحتفظوا كاحتياطي بمراعي ومياه دارهم عند العودة شمالاً بعد موسم الخريف. هذه المسارات تراعيها القيادات من القبيلتين وأي تجاوز يتم حله سنوياً في مؤتمرات بين القبيلتين يحضرها ممثلون للحكومة إذا دعا الحال. ومن بين الالتزامات على الكبابيش عدم شراء(الدخن أو الماريق الذرة) أثناء الخريف من دار حمر حيث يكون الزارعون في حاجة ماسة إلى (النقود) المتوفرة عند الطرف

الآخر وقد يتسبب شراء الحبوب الغذائية في ندرة تقود إلى (مجاعة- أو فجوة غذائية بلغة حكومات اليوم) إلى أن يحين موعد الحصاد. والتزام آخر على الكبابيش هو عدم (اصطحاب) أية إمرأة معهم إلى خارج (الدار) كما على الكبابيش عدم إجبار أي مواطن أو مواطنة آثر (الحرية) على العودة معهم. وقصة (الحرية) هي أنه أواخر أربعينات القرن العشرين كانت حكومة الحكم الثنائي تحارب- التزاماً منها مع المجتمع الدولي- تجارة الرقيق أو الاحتفاظ بأي عنصر من عناصر (الرقيق) لا يرغب في البقاء مع من يكفله. وقد كانت الحكومة تحتفظ في المحاكم الأهلية التي تقع في (المسارات) بورقة تسمى ورقة (الحرية) وتصدر بختم رئيس المحكمة الأهلية وشاهدين بأن (فلان الفلاني) الذي كان من (رقيق) فلان الفلاني قد أصبح (حراً- أو حرة) بموجب طلبه وإصدار هذه الوثيقة له. كانت حملة الوثائق- إلا ما ندر- تبقى في دار حمر قريبة من المحكمة التي أصدرتها إلى أن يمر عام أو أكثر يشعر بعده الشخص بالأمان فينخرط في المجتمع لكن حاملاً معه (ورقة الحرية) على الدوام.

دور السير الشيخ علي التوم في ترشيح منعم منصور ناظراً لعموم حمر:

حفظ السير علي التوم أهمية العلاقة مع (حمر) وصونها لكرامة الأسرة فقام بلفت نظر الحاكم البريطاني السير ماي- ومدير المخابرات المستر ديفز- إلى أن خلافات دبت في قبيلة حمر على النظارات والرئاسة. وأنه من الأفضل أن تعمل الحكومة على توحيد القيادة فيها إلى (ناظر عموم) كما كان العهد في الماضي أي قبل المهدية حتى يمكن التعامل مع زعيم واحد بدلاً من عدة نظار لقبيلة واحدة. استحسن الحاكم العام الرأي وطلب إلى مدير المخابرات أن يتحرى الرأي في ترشيح السير علي التوم أحد أبناء بيت النظارة وهو- منعم منصور- الذي كان والده ناظر العموم قبيل الفتح وتوفى في حرب مع قبيلة (الرزيقات) حضر المستر ديفز إلى

قرية (أبو جفالة) غرب مدينة (أبوزبد) ليلاً ووجد منعم منصور جالساً على (برش) الصلاة وأمامه(قدح- إناء من خشب الأبنوس) به طعام للضيف الذي يأتي بعد انفضاض(الضرا- مكان تجمع سكان القرية ليلاً لتناول العشاء سوياً) وبعد الاستقبال والماء والشاي والعشاء المتواضع والسؤال والجواب اجتاز المرشح المعاينة وعاد المستر ديفز ليتم تعيين منعم منصور ناظراً لعموم قبيلة حمر في ٢٣ يوليو ١٩٢٨م وتبع ذلك الإنعام بما كان يعرف باسم (كسوة شرف) من الحاكم العام وخطاب تهنئة من جلالة الملك فؤاد الأول المعظم ملك مصر. وآخر من الأمير عمر طوسون وهو أمير مصري كان مهتماً بشئون السودان. يقال أن السير علي التوم توخى في اختياره عدة عوامل أهمها أن المرشح من بيت النظارة وبالتالي لا يرفضه أحد- وثانيها أنه يسكن في منطقة (أبوزبد- قرية أبو جفالة) أقصى الجنوب بعيداً عن منطقة النزاع (الساخنة) مع قبيلة الكبابيش في الشمال- وثالثها أنه متدين ولا يشرب الخمر. كانت قبيلة حمر قبل وخلال الحكم الثنائي وإلى وقت قريب حتى أواسط القرن العشرين مشهورة بتعاطي الخمور البلدية (بقنية- مريسة- أم شوشو- أم بلبل- عسلية وغيرها من المسميات) ليس فقط في مناسبات الأفراح (ولادة- ختان وزواج) وإنما في المناسبات الاجتماعية مثل (نفير) لبناء منزل أو لحفر(رهد للمياه) أو للزراعة أو الحصاد أو العودة من (فزع- عملية البحث الجماعي عن مسروقات الأنعام أو خلافها) وسواء وجدت أو لم توجد مناسبة يحتفلون ابتهاجاً بالليالي المقمرة. ولعل البهجة والنشوة تقود في كثير من الأحيان إلى المشاجرات والاعتداءات بسبب الإحساس غير العادي بالشجاعة والتحدي. ويحضرني في هذا المجال تعليق من أحد رجالات المسيرية أنه زار قرية في دار حمر يوم عيد، وجد أمامهم زقاق المريسة: فكل رجل يأتي بعدله- او بلغة اليوم بالديلفري Delivery الخاصة به. عرضوا عليه كأس

الضيافة فرفض قائلا أنه(أنصاري والمهدي وخليفته منعوا الخمر) ولما انتصف النهار ولم يأت طعام توكل وتناول كأساً - وثانياً وفي الثالث تملكه الحماس والشجاعة (الرجالة) فوقف أمام الجمع ممسكاً بحربته قائلاً: أتاريكو يا حمر زمنكو دا كلو تشربوا في (الرجالة - الخمر) وخليتونا مع اللبن (والروابة— اللبن الرايب) قسم بربي لو كان أنصار المهدي لقوا شرابكو دا يوم كرري كان طردوا (الترك - لدار الريف أي أعادوهم إلى مصر وكان المهدية لي يومها حاكما). كما تحضرني أيضاً واقعة طريفة بين ناظر (مدير) مدرسة صغرى أي ذات فصلين فقط في إحدى القرى وبين مفتش تعليم جاء من عاصمة المديرية وقتها- الأبيض- لفت نظر الإداري الزائر أن التلاميذ يستأذنون في الحصة الثالثة- بعد وجبة الإفطار- في الخروج للتبول ثم العودة لمواصلة الدرس. وخشى سيادته أن يكون في المنطقة (مرض) أصاب معظم التلاميذ فاستفسر (الناظر) الذي أفاد بكل براءة وعفوية أن الأولاد (بعد الفطور) لا بد لهم من التبول لأن فطورهم (بغو تخين) و(البغو) نوع من المشروبات البلدية ذات التركيز الخفيف رغم كثافة المحتويات إلا أنه لا يترك ليتخمر. ويسمى في مناطق أخرى (قدوقدو- وتنسب التسمية إلى الفلاتة النازحين من نيجيريا باعتبارهم رجال دين لا يحتسون مشروباً شديد التركيز) تساءل الإداري أيضاً ببراءة وعفوية ولكن لماذا فطورهم (بغو تخين- اي كثيف المحتويات من الدقيق والبهارات مثل القرفة) شرح له الناظر أن الوزارة ترسل لهم كشفاً بمحتويات وجبات الإفطار والغداء والعشاء في الداخلية. معظم محتويات الكشف ليست فقط غير موجودة بل غير معروفة للسكان المحليين مثل الفول والعدس والبطاطس.لذلك اتفق مع(متعهد توريد غذاءات الداخلية) أن يكثر من (دقيق الدخن) واللبن الرايب ويشتري بمبالغ الغذاءات الأخرى(لحم في يومي السوق) ويتعشى التلاميذ بالعصيدة باللبن الرايب.

وتحفظ(العصيدة) الفائضة عن الاستهلاك لصباح اليوم التالي والأيام التالية لكي تستخرج منها(قدوقدو- أو بغو تخين) أما في وجبات الغداء وعلى مدى أربعة أيام في الأسبوع يأكل التلاميذ (لحماً طازجاً) مشوياً أو مسلوقاً مع بصل وزيت – وثلاثة أيام (لحم شبه طازج في شكل شرموط) بالطبع لم يقتنع الإداري الوافد من الأبيض ولما وصل(مدينة النهود) كان بمعيته ناظر المدرسة الذي أمر بإيقافه عن العمل وتشكيل مجلس تأديب- محاسبة- والذي أصدر قراراً ببراءته بمجرد مغادرة مفتش التعليم وعاد الناظر لمدرسته وأتمنى أن يكون أحد تلاميذه يقرأ الآن في هذه (الذكريات- المذكرات) ويستعيد أيام أن كان يتبول في الحصة الثالثة ويمضغ اللحم طازجاً شهياً في الغداء. تعرضت في هذه الذكريات- المذكرات منذ بدايتها إلى (الخمر) وجلساتها حتى في أوساط طلاب المراحل الوسطى أو الثانوي العالي أو الجامعة- أو في أوساط المواطنين على اختلاف مكانتهم وإلى أن (ألغيت) بقانون أصدره الرئيس نميري. ونسبة لأهمية (الخمر) في الحياة عموماً وفي الحياة السودانية – منافع وآثام- فسوف أفرد لها كلمة خاصة في موضع خاص.

...ناظر العموم ووكلاء الأقسام:

بدأت النظارة بالبراءة التي أصدرها السير (مافي) في عام ١٩٢٨م واستمرت حتى قرار ثورة مايو بتصفية الإدارة الأهلية عام ١٩٧٠م كانت خلالها القبيلة موحدة تحت ناظر عموم ومعه نظار أقسام: جنوباً وغرباً وعاصمتها الأضية على رأسها حمد ثم حامد على فتين- وشرقاً وعلى رأسها إبراهيم ناصر وشمالاً عبد الرحمن الكرسني.عبدالرحمن الكرسني أمه من بيت الحكم في العساكرة. يروى أن أهله كانوا سائرين من بلاد الشايقية في طريقهم إلى دارفور، وأثناء فترة راحتهم أثناء السفر اكتشفت حمر أنهم أسرة من (الفقراء) رجال الدين. كانت حمر أكثر حاجة إلى (الفقراء) من دارفور التي كانت لا تزال حتى وقت قريب- وربما حتى الآن دار القرآن والتي يقوم سلاطينها بتسيير (المحمل) به كسوة الكعبة وزكاة أهل دار الحجاز ومكة المكرمة. يبدو أن أسرة الكرسني كانت تسعى للمزيد من تعلم القرآن والتفقه في الدين بينما كانت حمر في حاجة إلى الحد الأدنى بسبب ترحالهم المستمر وكثرة الحروب. اقنعوا (الكراسنة) بأن يقيموا معهم فترة وتزويج كبيرهم أحمد الكرسني فإذا طاب لهم المقام مرحباً- وإذا أرادوا الترحال مرحباً. تقول رواية أخرى عن الحاج محمد عبيد الله مكين عم الشيخ منعم منصور ورئيس محكمة غبيش أن زعيم حمر الحاج منعم كان في (الحج) وسمع في الحرم المدني الكراسنة وهم يتلون القرآن وأعجب بالتلاوة وطلب من شيخهم أن ينتدب أحداً منهم لدار حمر ليعلم أهله القرآن وأصول التلاوة وافقه على انتداب ابنه (أحمد) واشترط عليه أن يزوجه إحدى بناته: شقيقة مكي ومكين وإسماعيل. ولد لأحمد فضل الله- وتزوج

فضل الله بنت خاله مكين-وولدت له محمد أحمد- ومحمد أحمد هو والد عبد الرحمن الكرسني الشهير أقاموا وامتزجوا بأهل الدار وتوالدوا. عبدالرحمن الكرسني تزوج بدوره بنت(إبراهيم المدير- جدية) أحد أعمدة العساكرة الذي يقيم في (ود بندة) على طريق النهود- أم كدادة- الفاشر. عندما اشتد عوده كان فارساً ومحدثاً ولبقاً وزعيماً ارتضاه الحمر في منطقة تماس مع قبائل (دار الريح) وكان زينة كل مجلس قبلي وجمع بين محاسن (فروة النمر) من جهة والده ومحاسن (العساكرة) من جهة والدته وجدته.



الناظر منعم منصور محمد الشيخ ناظر عموم دار حمر يرتدي (كسوة الشرف) التي أنعم عليه بها الملك فؤاد الاول ملك مصر عام ١٩٢٧م عند تعيينه في منصب النظارة تاريخ الصورة ديسمبر ١٩٤٨م عندما كان عضواً في الجمعية التشريعية ١٩٤٨-١٩٥١م.

.... وعمدة في مدينة النهود:

من قبيلة (الشايقية) يراس محكمة (البندر) هو أحمد مصطفى أبو رنات- الأخ الأصغر لرئيس القضاء العلامة محمد أحمد أبو رنات: أول رئيس قضاء سوداني بعد الاستقلال. وساعد (العمدة) في محكمة البندر بعد فترة الشيخ محمد أحمد دود المعاليا. قصة اختياره عمدة من غير قبيلة حمر في عاصمتها (مدينة النهود) تعود إلى أمرين الأول هو المبدأ الذي أقره مؤسس القبيلة الشيخ مكي أبو المليح أن (حمر فروة نمر) أي أن في أي بقعة ومنطقة منها قبائل (الأغراب) متى ارتضوا الوجود في (الدار) وأهلها والعرف الذي يسود فيها فهم(حمر) خاصة من تصاهر مع القبيلة وبهذا لم يكن في اختيار(شايقي) للمحكمة ما يثير غباراً ذلك أن أي مجموعة من قبائل اختاروا موقعاً في أرض (الدار) تم تعيين زعيمهم أو كبيرهم (شرتاي) عليهم وصدر قرار بأن تكون لديهم (محكمة) يرأسها إما الشرتاي أو أي واحد منهم. والد رئيس القضاء وعمدة النهود كان من أكبر المتعاملين في سوق النهود الذي اشتهر وازدهر بالمواشي والصمغ العربي والفول السوداني وحب البطيخ ونحوها. وكل هذه النعم والأنعام يأتي بها زراع ورعاة من حول النهود- أي حمر بالمعنى الواسع- كما أن المتعاملين في السوق من وكلاء الشركات والسماسرة وصغار التجار كانوا من أهل البندر وتغلب عليهم قبيلة الشايقية إذ إن التجار الجعليين والشوام- سوريين ولبنانيين- ويونانيين يجلسون في حوانيتهم أغلب الوقت. وكثيراً ما كانت تحدث مناوشات ومغالطات بين المتعاملين في السوق والوافدين إليه مما استدعى اختيار شخص له شخصية تتسم بالأمانة والقوة واحترام الجميع له ليفصل فيما بينهم. لم يكن هناك منافس للشيخ أبو رنات فتم تعيينه (عمدة) تحال إليه كل قضايا السوق والبندر. الطريف أن حفيده ميرغني- ابن العمدة أحمد

المصطفى ابو رنات الذي شمله قرار تصفية الإدارة الأهلية تقدم بطلب إلى رئيس القضاء- صادف أن كان الشايقي خلف الله الرشيد- يطلب تعيينه (عمدة) النهود في كرسي والده بعد أن وافق الرئيس جعفر محمد نميري عام ١٩٨٣ على تفويض حكام الأقاليم لإعادة الإدارة الأهلية متى رأى أي منهم ذلك. كان الطلب يحمل(تزكية) من الناظر منصور منعم ناظر عموم حمر الذي خلف والده في المنصب. تردد خلف الله الرشيد باتخاذ قرار بتعيين شايقي عمدة في دار حمر وفي النهود فاتصل بي متسائلاً إذا كان هذا التعيين سيخلق (إشكالاً) رغم توصية الناظر فأكدت له أن العكس صحيح ذلك أن حمر تراضوا مع كل (فروة النمر) وعلى رأسهم ساكني المدينة ولم يحدث- حسب علمي- خلاف بين الريف والبندر على الإطلاق. فكان أن أصدر سيادته القرار.

.... الدار الأرض:

اشتراها الحاج منعم أبو المليح من السلطان حسين بن السلطان تيراب ووافقت على الحجة السلطة العثمانية في الإستانة تركيا، أرض واسعة وتكاد تكون بحجم ولاية غرب كردفان الحالية (٢٠١١م) وتعداد حمر بضعة آلاف ينتشرون وفقاً لظروف كل مجموعة وما تملك من (سعية) لم يسطر (سعر) للدار ولكن وفقاً للروايات المتواترة فقد دفع فيها ألف أمرد بسلاحه (شاب لم ينبت شعر شنبه)- ألف أوقية ذهب-ألف أوقية فضة- ألف رطل ريش نعام- وسواء كان الثمن مبالغاً فيه رواية أو كثيراً حقيقة فإن (الدار) بحجمها الذي شملته تستحق ما ذكر وأكثر. كان المطر دافقاً والكلأ وافراً وما قصرت عنه الوديان والحفائر (الرهود) أكملته أشجار (التبلدي) وهي أحدى مميزات دار حمر فتجد في كل قرية عدداً منها

يفي بحاجات السكان كما أنك تجد أحياناً وفي مناطق غير مأهولة (غابة من أشجار التبلدي تسمى (الظعن) ولذلك وحتى لا تتغول القبائل على (الدار) فتح الشيخ مكي أبوابها لمن يريد المواطنة فاراد بذلك أن (يحتوي) الأغراب بدلاً من أن (يغزوه) : يعطيهم الأرض لمن يريد الزراعة والمرعى لمن يملك البهائم ويوفر لهم الأمن والسلم عن طريق (شرتاي) لكل قبيلة و(محكمة) تبسط العدل.

الحدود: من ريح وغرب دارفور عند جبل طوطاح ريح أم بادر وشرق المندرة وجبل أبو فاس إلى حدود (الكرقل) وشرق إلى جبل فرشاحة وأبو حراز (بديرية) والسنجكاية (حوازمة) وجنوباً التبون (مسيرية) وتعود الوثيقة لتتحدث عن حدود دار حامد وجبل الشفرة وأم سدرة وأم صميمة والعيارة على مشارف الأبيض وجبل أبو سنون وكانت كلها تحت نفوذ سلاطين دارفور كما أورد الرحالة بيرك هارت عام ١٨١٤.

أثناء حكم المهدية (١٨٨١-١٨٩٨) اختلفت قيادات دار حمر آنذاك في تأييدها أو الانضمام تحت رايتها. عبدالرحيم أبو دقل زعيم الغريسية أيد الثورة دون تردد وحارب مع قائدها حمدان أبو عنجة في جبهة الحبشة. إبراهيم المليح ناظر العساكرة أيدها ثم وقف ضد الهجرة إلى أم درمان فاعتقل في (بارا) عام ١٨٨٧م وظل في السجن بأم درمان بعد ذلك إلى نهاية دولة المهدية ورفض وساطة من بعض زعماء القبيلة لتطلب (الاسترحام) له من خليفة المهدي. كذلك عارض حمد فتين ناظر الدقاقيم المهدية وسجن في أم درمان وأفرج عنه قبل نهايتها. في هذه الأثناء افتقدت القبيلة كبار قياداتها فاجتمع (الخمسات وهم فصائل من العساكرة: الخريسات – الجخيسات- الميامين- المنانعة – المناضير) واختاروا منصور محمد الشيخ ابن الثلاثين عاماً ناظراً للقبيلة في عام ١٨٩٧م مع قرب نهاية المهدية. وقد مات

منصور محمد الشيخ بعد عام واحد ١٨٩٨م وهو يعترض مع نفر قليل من قبيلته مجموعة من قبيلة الرزيقات عائدة من أم درمان وافترش (الفروة) واستقبل (القبلة) ومات دون أن يستسلم للأسر وأصبح لقبه (الفرَّشْ) مات معه مفترشاً (الفروة) التي يصلي عليها ثلاثون رجلاً منهم من (فروة النمر- أي من غير حمر القبيلة) رجل من قبيلة (الكنوز) أقصى شمال السودان هو (خير ود حسن المشهور بلقب طلمبة) وهو جد بشير محمد خير رجل الأعمال- الاتحادي- وأحد الثلاثة الذين اصدروا صحيفة (أكتوبر) بعد ثورة ٢١ أكتوبر وهم (صالح محمود إسماعيل- أحمد الطيب بابكر- وبشير محمد خير).أرض المعركة كانت في منطقة (القناطير) غرب مدينة أبوزبد. ولد منعم منصور بعد وفاة والده في عام ١٨٩٨م.

.... منعم منصور قبل النظارة:

نشأ بداية في منطقة (خماس) مع أعمامه ثم انتقل إلى أبو جفالة (غرب مدينة أبو زبد) في كنف أخواله. وبينما هو يواظب على حفظ القرآن وتلقي دروس الدين على يد (الشريف حسين) صاحب الضريح المشهور الآن في مدينة (أبوزبد) كان أعمامه وأبناؤهم يعيشون الخلافات المعهودة في أروقة بيت الحكم في النهود ما بين حاكم اليوم ومعزول غداً. وعندما تجاوز الخامسة والعشرين تقدم بطلب إلى (شرتاي) منطقة أبو زبد الشيخ أحمد عديل ليعينه (شيخ حلة) قرية (أبو جفالة) وباستشارة الناظر إسماعيل محمد الشيخ (قراض القش) رفض الطلب. وبنصيحة من(الشريف حسين) ذهب منعم منصور إلى النهود مستأنفاً لدى مفتش المركز البريطاني وأقام عند وصوله النهود في منزل (عبدالرحمن الشيخ) التاجر من قبيلة (البرياب) وليس في منزل عمه (قراض القش) تعجب مفتش المركز من الاسم إذ كانت المعلومات التي لديه أن (منصور محمد الشيخ) مات ولم يخلف ذرية: ولداً ولا بنتاً. عبدالرحمن

الشيخ (والد سعد عبدالرحمن الشيخ المشهور باسم سعد البريابي) أكد له أن الشخص الذي أمامه هو ابن منصور وطلب شهادة بعض تجار النهود وأحد رجالات حمر من منطقة (أبوزبد) تصادف وجوده في النهود. أصدر المفتش تعليماته إلى كل من الناظر إسماعيل محمد الشيخ والشرتاي أحمد عديل بالموافقة على أن يكون منعم منصور ابن الشيخ منصور محمد الشيخ شيخاً على القرية ثم أرسل الخبر عاجلاً إلى مدير المديرية في الأبيض ومنها إلى السكرتير الإداري وسراي الحاكم العام بالخرطوم. وهكذا عندما تقدم الشيخ السير علي التوم بترشيحه للنظارة كانت مهمة مدير الاستخبارات المستر ديفز هي ليس التأكد من أحقية منعم منصور فهو ابن ناظر عموم بل من أهليته للمنصب إذا قررت الإدارة ضرورة توحيد نظارات حمر الثلاثة (العساكرة والدقاقيم والغريسية) تحت (ناظر عموم) واحد كما كان الحال قبل المهدية إذ إن تقسيم السلطة بين النظارات الثلاثة قد أضر بوحدة القبيلة وبحسن إدارتها وحفظ الأمن وتحصيل (العشور والضريبة) . في ذلك الوقت توفى ناظر الغريسية القوي عبد الرحيم سالم أبو دقل (١٩٢٦) والذي تعترف له الحكومة شخصياً ببعض الفضل بعد معركة كرري- كما أن ناظر الدقاقيم محمد أبو جلوف أرغمه تقدم السن بالتنازل عن النظارة لابنه الطيب وكان ناظر العساكرة إسماعيل محمد الشيخ (قراض القش) في مناكفات مستمرة مع مفتش المركز الذي أوصى في أكثر من تقرير بضرورة توحيد القيادة لقبيلة حمر تحت ناظر عموم يكون- كما هو الحال منذ دخلت القبيلة السودان- من (العساكرة – الطرادات). عزل إسماعيل (قراض القش) من المنصب ولحق به ابنه (أحمد) وصار الطريق ممهداً لتعيين (منعم منصور) وقد كان ذلك كما سبق في ٢٣ يوليو ١٩٢٨م ويلاحظ أن منعم منصور ظل فترة في شياخة قريته (أبوجفالة) إلى جانب النظارة ولم يلتفت بسوء إلى

(الشرتاي) الذي حرمه الشياخة وظل يعامله باحترام وتقدير ويناديه(يبه- أي الوالد) أحمد عديل أو العم أحمد عديل ولم يعزله من منصبه حتى بعد أن بلغ عمراً متقدماً حمله على التنازل- طواعية- لابنه حسن أحمد عديل. وظل احترام (منعم منصور) للشرتاي حسن ومن بعده لعميد الأسرة (الشيخ عبدالرحمن أحمد عديل) وأوصانا بذلك. أما أسرة عمه إسماعيل (قراض القش) فقد رعاها فتزوج ابنته (أم النصر) وولدت له بنين وبنات ذكرتهم في صدر الذكريات- المذكرات. كما قام بتعيين ابن بنته الكبرى (أم كلثوم) إبراهيم منعم (ضامناً) لكل قبيلة حمر بالنهود يجيء له جعل من المال عن كل رأس من الأنعام يباع في أسواق القبيلة نظير أن (يغرم) قيمة أي رأس يتضح أنه مسروق وهو نوع من (التأمين) ظل سارياً إلى أن ألغته- دون سبب سوى الجهل ثورة أكتوبر ١٩٦٤م.

ولعل من حضروا (قراض القش) في حياته يذكرون قولته التي تخيف الأصدقاء والأعداء (أنا أبو أم كلثوم) وعند ذكر ما سبق (في الحلم والعفو) لابد أن نذكر (الوفاء الذي حمله منعم منصور (للشيخ عبدالرحمن الشيخ البريابي) ولابنه (سعد البريابي) إذ ظل العديدون يتعجبون من قربه من (الشرتاي) بخاري علي الحاج التور زعيم البرياب ومن سعد البريابي ويعزون ذلك أن الشرتاي بخاري ابن عمة (منعم منصور) إذ إن أمه (روزة- بنت محمد الشيخ أخت منصور محمد الشيخ) وفي نفس الوقت عديله في(أم فرسان) بنت إسماعيل (قراض القش) ووالدة كل من أحمد منصور وإسماعيل (حدبة) ولكن العلاقة الأسمى كانت هي الوفاء للشيخ عبدالرحمن (الذي تحدى سطوة) إسماعيل (قراض القش)- وأبودقل- وأبو جلوف وأدخل (منعم منصور) إلى مفتش المركز وجاء بالشهود العدول ليؤكدوا للمفتش أن (منصور محمد الشيخ) خلف ولداً هو الشاب الذي أمامه على عكس ما أدعاه

زعماء القبيلة من أن منصور مات دون خلف. الأمر الذي قلب كل موازيين عملاء المخابرات والزعامات في المركز ما يقارب ربع قرن. ظللت- وبعض إخوتي من يعرفون العلاقة- في ود وإخاء مع الأخوين أحمد المنصور وإسماعيل حدبة والدرديري بخاري وسعد البريابي وفاء للوفاء الذي عاشه والدنا مع جمعهم.

ولابد من ذكر أن الشرتاي بخاري علي طيلة سنين حكمه لم يتآمر منفرداً ولا مع الآخرين من الذين اتصلوا به مراراً على شيخ منعم. ولم تصل إلى شيخ منعم منه وشاية أو كلمة سوء.

الأطماع في أجزاء من دار حمر:

وبعد أكثر من قرن ونيف لم تسلم دار حمر من أطماع بعض القبائل ولكن هذه المرة في (الصعيد) إذ ظلت قبيلة (الحوازمة) تناوش من وقت لآخر للاستيلاء على مورد المياه في (أبوزبد والمعروف باسم التردة) باعتبار أن أعداد الأنعام لدى حمر لا تجعلهم يحتاجون إلى أبوزبد. كما أن حمر في أبوزبد كانوا- ولا يزالون- أقلية بالنسبة للأغراب ناسين أن(حمر فروة نمر) وفي عام ١٩٢٨م دارت معركة جعلت هزيمة (الحوازمة) فيها تجليهم إلى الأبد في (رشاد) يصلون إلى الحلف الذي سبق بيانه في أن حد حمر الأرض وحد النوبة الجبل. كذلك أغرت مياه (أبوزبد) ولا تزال قبيلة المسيرية التي كانت تزحف بتخطيط ذكي لتحتل المنطقة ولكن الشيخ إبراهيم ناصر- ناظر قسم أبوزبد وناظر حمر العساكرة- ذكرهم بأن حدودهم مع حمر حدود (انتفاع) وتقع جنوب أبوزبد عند (وادي الغنام) وهو وادي تجري فيه المياه وقتها لبضعة شهور وعندما يجف يمكنهم أن يحضروا فيما يعرف بالدمارة- أي السكان المؤقتون خلال فترة الجفاف على أن يعودوا لديارهم بعد زوال الأسباب، وبشرط أن تبقى

أبقارهم عند حدود (الانتفاع) ويحضرونها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لتستقى ثم تعود. أخلت (المسيرية) بالشرط وأحضر بعضهم أبقارهم للرعي حول (التردة) كما أن آخرين ظلوا في (خيامهم- الدكة) بعد زوال الأسباب. قام الشيخ إبراهيم ناصر بإنذارهم بمغادرة المكان وأمهلهم أسبوعاً سوف يقوم بعده بحرق (الدكة) بمن فيها وما فيها كما أنه سوف لا يكون مسئولاً عما يجري للأبقار التي حولها. لم يأبه المسيرية المعسكرون حول (التردة) بالإنذار والذي نفذه الشيخ إبراهيم ناصر صباح يوم الجمعة في عام ١٩٤٦م فاحترق من احترق ونجا من فر وبسرعة حضر مفتش الرئاسة بالمديرية مكاوي سليمان أكرت من الأبيض والناظر منعم من النهود وتم احتواء الموقف وأرسلت المديرية إلى مفتش مركز غرب كردفان النهود- والذي يتبعه حمر والمسيرية بخطاب شديد لكي تراعي القبائل احترام الحدود والاتفاقيات. في عام ١٨٩٨ وفي عهد حكومة الصادق المهدي جرت محاولة لضم (أبوزبد) إلى المسيرية وكادت تقع معركة إذ تأهب هذه المرة (الشرتاي) حسن أحمد عديل في غياب الشيخ إبراهيم ناصر لو لا أن قامت ثورة الإنقاذ الوطني في ٣٠ يوليو ١٩٨٩م فكانت إنقاذاً لأبوزبد. ولكن هل توقفت الأطماع؟ جاء إلى منصب السكرتير الصحفي للرئيس عمر حسن أحمد البشير الأستاذ يوسف سعيد الذي شغل والده منصب محاسب/ صراف في مدينة أبوزبد ممثلاً لقبيلة المسيرية لجمع ضريبة (القطعان عند ورودهم إلى (تردة) أبوزبد ثم استجاب مجلس ريفي دار حمر في النهود لطلب المسيرية بأن يشغل الوظيفة (مساعد إداري) حتى تكون له سلطة في جمع الضريبة فأصبح كمن له وجود رسمي في أبوزبد يخيل إلى من لا يعرفه أن المدينة ستصبح إن لم تكن قد أصبحت بالفعل تابعة لقبيلة المسيرية. شجع ذلك الوضع السكرتير الصحفي للرئيس بأن يشجع بدوره قيادات في المسيرية وأن يتابع هو من

الخرطوم قيام رئيس الجمهورية بزيارة غرب كردفان وأن يبدأ زيارته من أبوزبد حيث يعلن تبعيتها إلى (الفولة) حاضرة المسيرية. وصلنا الخبر في الخرطوم ورأينا أن نتحرك بطريقة (قانونية) اتصلنا بديوان الحكم الاتحادي الذي تتبعه الولايات وأفادنا المسئول عنه السيد أحمد شيخ إدريس مناع أن لديهم ملفاً سرياً باسم Abozabad Enclave يرجع إلى عشرينات القرن العشرين منذ أن نشأت حرب حمر مع الحوازمة ثم مشكلة تردة أبوزبد. وأكد لنا أن تبعية أبوزبد لقبيلة حمر ليس عليها خلاف. كما أكد لنا أن هناك توجيهاً صادر في حكم القانون بعدم تعديل (حدود) أي منطقة أو تعديل تبعيتها إلى منطقة إلا بعد توصية من ديوان الحكم الاتحادي- وزارة الحكومة المحلية فيما مضى- وطمأننا أن محاولات السكرتير الصحفي لن تنجح واستجاب لرجائنا بأن يستبق الزيارة ويرسل مذكرة لرئاسة الجمهورية حتى لا تقع في خطأ قانوني، وقد فعل. كما تحرك المساعد الإداري لمنطقة غرب كردفان (مركز النهود السابق) السيد حسن عبدالله عبدالحي وحضر إلى الخرطوم منبهاً الذين يضعون برنامج الرئيس أن (التقليد) هو أن تبدأ الزيارة من عاصمة المنطقة- أي من النهود- وليس من أحد فروعها أبوزبد كما تم التخطيط له. وفي النهود سمع الرئيس عمر حسن أحمد البشير تحذيراً (علنياً) من الخطباء وآخر سرياً من عبدالقادر منعم ومن الأجهزة أن يدع (الفتنة) نائمة وأن لا تكون زيارته هذه أو غيرها لخلق مشاكل جديدة بدلاً من حل مشاكل موجودة. ونامت (الفتنة) ونخشى أن يظهر من (لعن) الله ليوقظها.

..... وجاء دار حمر الرخاء مع الاستقرار:

هذه هي دار حمر التي ما أن استقرت غالبية أهلها البادية حتى أصبحت أكبر منتج في العالم للصمغ العربي ولنوع فريد من الضأن الصحراوي عرف باسم الضأن الحمري

ولحب البطيخ. وفاكهة البطيخ مخزن للماء في أوقات الحاجة وغذاء للإنسان في اللب وللحيوان في القشر ودواء لأمراض الحيوان الجلدية عند تقطير الحب فيصير سائلاً أسود اللون يعرف باسم (القطران) وفوق ذلك فالقبيلة عاصمتها الحضرية (النهود) كانت أكبر سوق في السودان للإبل وللأبقار ومن بعد للفول السوداني وللدخن وكانت بها أكبر جالية من (الشام- سوريا ولبنان) ومن اليونان وتأسس بها (نادي) عام ١٩١٧م عرف باسم (نادي السلام) زاره العديد من الشخصيات والرحالة العالميين ومن بينهم الرحالة المصري (أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي في عهد الملك فاروق والذي يروى أنه تزوج أم الملك نازلي بعد قصة حب عقبت وفاة والده الملك فؤاد الأول) وكانت النهود بحق مدينة سلام وعاصمة فروة النمر إذ لم يسجل تاريخها خلافات بين الريف والحضر ولا بين الجنسيات العديدة المكونة للحضر. وتعتبر النهود حاضرة لأكبر (مركز في السودان) وهو ما يسمى (مركز غرب كردفان) ويضم حمر بكل مكوناتها والمسيرية والدينكا. وكان به ثلاثة مفتشون بريطانيون: واحد لحمر وواحد لكل من المسيرية والدينكا والثالث ويسمى المفتش الأول يرأس الاثنين وما من سكرتير إداري جلس على الكرسي في الخرطوم إلا كان وقد شغل يوماً ما منصب(مفتش غرب كردفان) ابتداء من السير مفي إلى نيوبولد إلى جيمس روبرتسون.

تباشير نهاية الحكم الثنائي ١٨٩٨-١٩٥٥م واحتمالات الاستقلال:

بعد أن اتضحت معالم انتهاء الحكم الثنائي أقام الشيخ منعم منصور حفل شاي وداعاً لمفتش المركز المستر بيتر هوق Peter Hogg كما هي العادة وفي أثناء الحفل- منتصف ١٩٥٤م- سأل مستر هوق: تفتكر يا شيخ منعم تقدروا تحكموا نفسكم إذا أصبح السودان مستقلاً ؟ كيف ما نقدر الحبش حاكمين نفسهم ولما موسليني هاجمهم قوة دفاع السودان هي

التي حررت الحبشة. تمام لكن إنتو ما زي الحبش. أنتو ناس (حاسدين). دا رأيكم فينا يا مستر هوق بعد السنين دي كلها ؟ دا موش رأينا دي تصرفاتكم إنتو. أديك مثل يا شيخ منعم، نحن الخواجات إذا وجد الواحد منا شجرة فيها ثمر ينادي على أخوانه. وعندما يجتمعون يكلفون أخفهم وزناً بأن يمتطي ظهورهم ويتسلق الشجرة. ويقوم بجمع الثمار الناضجة ويملأ بها جيوبه ويرمي بغير الناضجة إلى الأرض. أما إذا وجد فيكم يا حمر ويا سودانيين شجرة فيها ثماراً فإنه لا ينادي على أحد ويسير متخفياً ويتسلق بمشقة وفجأة يفتقده إخوانه فيقتفون أثره وعندما يتأكدون أنه في أعلى الشجرة يأتون بعدة فؤوس وبسرعة فائقة يقطعون الشجرة فيقع الأخ ويتناثر الثمر متقطعاً أشلاء بجانب أشلاء أخيهم. تعجب الشيخ منعم من المثل والطريقة الدرامية التي حكاها به مستر هوق الذي أردف: يبدو أنك غير مصدق ولكن بعد رحيلنا سيرى أولادكم العجب في (الفايلات السرية) من الشكاوي الكيدية والمختلفة التي تقدم لكل مفتش جديد وتسير حتى معالي الحاكم ثم تعود للمركز ثم صارت تقف عند سعادة مدير المديرية ثم أصبحت لا تتعدى مكتب المفتش الأول. وبالفعل وجد- حامد منعم منصور- الذي كان في خدمة المركز إلى أن تمت تصفيته بتحويله إلى مجلس ريفي وجد العجب مما لا يحكى حفاظاً على علاقات لا ذنب للأبناء والأحفاد في نبشها. ومسألة (الحسد) ليست وقفاً على قبيلة حمر ولكن – كما ذكر العلامة عبد الله الطيب- هي صفة اتسمت بها كثير من القبائل العربية- الأصل وزاد على ذلك أن بجزيرة العرب عشر قبائل اشتهرت بالحسد هاجرت منها تسع الى السودان ونحن جميعاً أبناؤها.

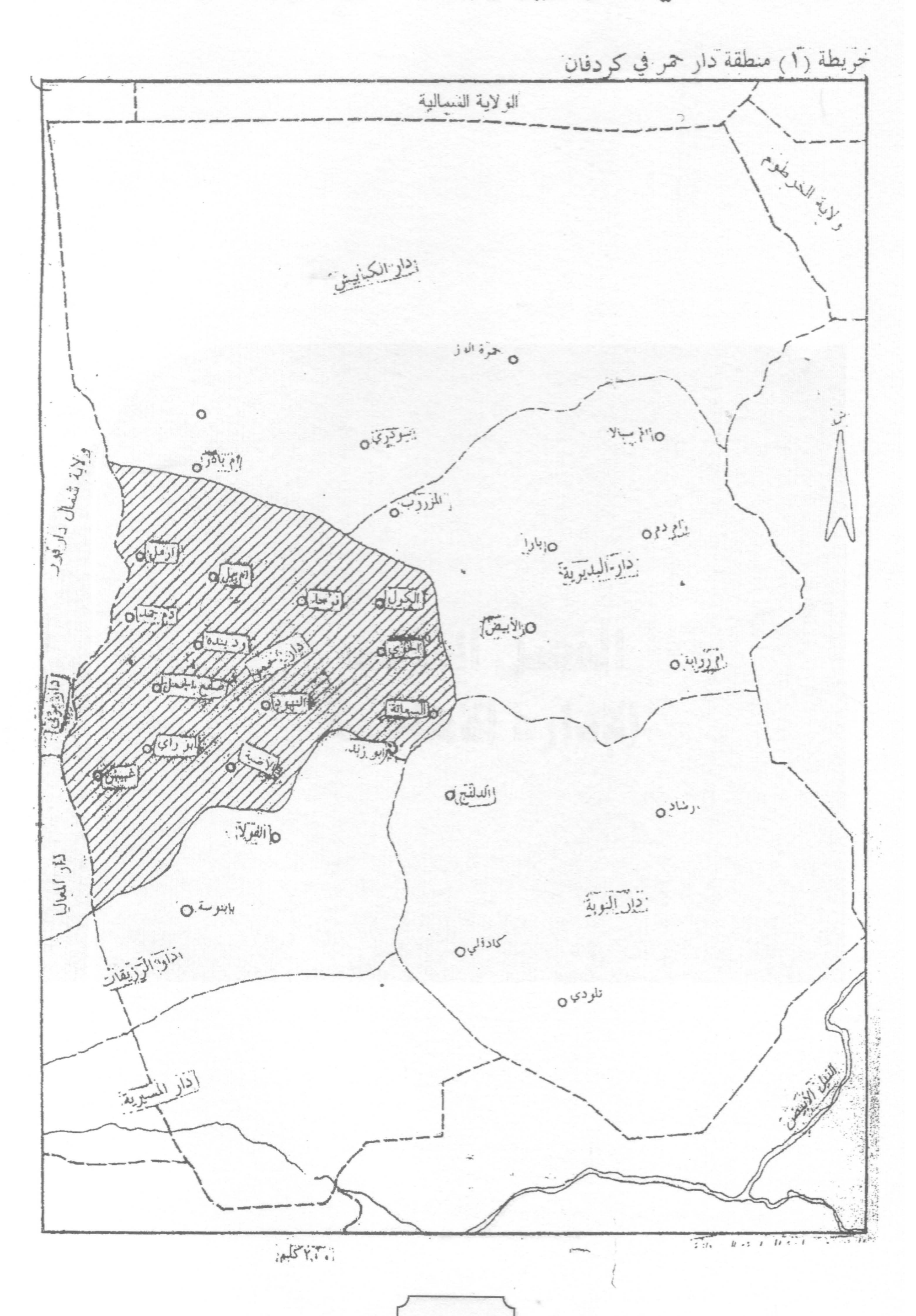
جاء إلى مركز النهود مفتش سوداني- لا داعي لذكر اسمه- يبدو أن لديه آراء مسبقة عن علاقة المفتش بناظر القبيلة وفي فترة لا تكاد تذكر حاول خلق مشاكل لم يجد الشيخ منعم

بدأً من أن يتجه رأساً إلى مكتب السكرتير الإداري مستر جيمس روبرتسون والذي كان مفتش أول غرب كرفان وينقل له صعوبة إن لم يكن استحالة التعاون مع ذلك المفتش فما كان من السكرتير الإداري إلا أن سأله من يريد من كبار رجال السكرتارية يخلفه. اختار الشيخ منعم أحمد مكي عبده من القسم السياسي. وما هي إلا أيام إلا وقد حضر مفتش جديد للنهود هو أحمد مكي عبده على متن طائرة (دف Dove) وقد كانت لدى الخطوط الجوية السودانية ثلاث طائرات منها وثقل الطائرة ستة إلى ثمانية ركاب. سأل فؤاد ابن السيد أحمد مكي عبده والده بعد سنوات وهو بالمعاش إذا كان بوسع ناظر قبيلة أن ينقل مفتش مركز فكان رد والده وعلى الفور: ينقل أبوه. حتى وإن كان إنجليزي ولعل البعض يذكر أن شيخ العرب أبو سن نقل أحد مفتشي المركز بجملة لطيفة حوت (تقريراً) عندما قال لمدير المديرية (زولكم كويس لكن جيبوله أولاده أي زوجته) بخلاف الناظر الذي قال عن مفتش آخر أنه (كويس لكن طوّل أي بقى معنا لأكثر من اللازم) رغم أنه لم يكمل المدة المتعارفة بثلاث سنوات. ولعل ما دار من أمثلة يشكل في جوهره أهمية التعاون التام بين ناظر القبيلة ومفتش المركز وحتمية الثقة بينهما من حيث أخلاقيات التعاون والعمل. إذ إن ناظر القبيلة كان يتم تعيينه بعد اختيار أهله له من قبل (الحاكم العام) أي رأس الدولة الذي كان يمثل حكومتي بريطانيا ومصر و(براءة) تعيين الشيخ منعم منصور ناظر عموم حمر كانت بتوقيع من الحاكم العام وبتهنئة من رئيس الديوان الملكي في القاهرة باسم الملك فؤاد ومن أحد أمراء الأسرة الحاكمة في مصر هو الأمير عمر طمسون. ومن المفارقات أن وصل إلى الحاكم العسكري في الأبيض أثناء حكومة الفريق عبود ١٧ نوفمبر١٩٥٨-٢١ اكتوبر ١٩٦٤ (بلاغ من أحد عناصر الأمن أن الشيخ منعم يخزن في منزله "أسلحة" يغلب الظن أنها سوف تستخدم ضدم النظام لأن حمر أنصار)

وضد الحكومة وطلب أن يعطي مفتش الحكومة المحلية (أي مفتش المركز) الإذن بتفتيش المنزل فما كان من المفتش وهو إداري تم تغيير لقبه إلا أن لفت نظر الحاكم العسكري بالحصول على إذن من رئيس المجلس العسكري العالي الفريق إبراهيم عبود حسب القانون. فانتهى الأمر. ذلك أن الذي عين الناظر هو رأس الدولة ولا يتم تفتيش منزله إلا باذن من رأس الدولة.

كان الشيخ منعم منصور يسوس دار حمر كما سطر السير جيمس روبرتسون بالحكمة والحلم وعدم العنف كما حافظ على علاقات القبيلة مع القبائل المجاورة والوافدة خلال المواسم تشق طريقها في الدار باتفاقيات وأعراف وتفاهمات أغلبها إن لم تكن كلها غير مكتوبة- لكنها محفوظة لدى الكبار والشيوخ من القبيلة من الدار غير أنها مكتوبة لدى الحكام في (الفايلات بالمركز) وبعضها أرسل إلى عاصمة المديرية- الأبيض- وإلى الخرطوم. وكان يشرك (نظار الأقسام والشراتي ورؤساء البيوت الكبيرة) في شئون الدار وكنا صغاراً ثم كباراً نشهد من وقت لآخر (مجمع الشراتي) كما كان يحرص أن تعقد لقاءات مرة أو أكثر في السنة مع رصفائه من قادة القبائل لحسم اي خلافات تنشأ بحكم التلاحم والترحال بين الأفراد وما يتبعها من صلح وتعويضات و(ديات) فيتصافى الجميع قبل أن تعيش الضغائن في الصدور ثم تشعلها شرارة صغيرة ناراً تحصد الأرواح وتقضي على الممتلكات وتخلق بذرة لعداوات. وكان مفتشو المركز من البريطانيين ومن خلفهم من السودانيين بمختلف الألقاب الجديدة يحضرون- كل على جانب قبيلته- وكانوا يشتركون بحماس في النقاش وعندما تتم الاتفاقات يعملون على متابعة القرارات. ورغم ما كان يبدو من حماس فقد اتضح فيما بعد – أي بعد رحيلهم- أنهم كانوا يتبادلون الرسائل المعنونة (سري للغاية) ويتناقشون فيها بكل موضوعية ويصلون إلى ما هو قريب من القرارات تاركين مساحة لزعماء القبائل.

خريطة (أ) منطقة دار حمر في كردفان



الفصل الثالث
الإدارة الأهليـــة

ماذا قال الناظر منعم منصور للرئيس نميري بشأن الحل؟

- هل صدر قرار من ثورة مايو بحل الإدارة الأهلية؟ وإذا لم يصدر كيف كان الحل؟

ظل موضوع الإدارة الأهلية محل نقاش بين رافض لوجودها باعتبارها إرثاً رجعياً في الحكم رعته حكومة الحكم الثنائي لتخضع به البلاد عن طريق متعاونين معها من أهلها، وبين مؤيديها باعتبارها الوضع الأمثل لحكم بلاد واسعة تتربع فيها (القبيلة) ويتم فيها توارث الحكم في بيت الزعامة الذي يؤهل مولوداً منذ صغره وشبابه ليكون الحاكم. وعن طريقها يحفظ الأمن وتحسم المنازعات عرفاً بين القبيلة والقبائل الأخرى والأهم من ذلك في نظر البعض جمع الضرائب في مواقيتها وانخفاض تكلفة الجباية وهما أحد أهم ركائز (الضريبة) في علم المالية الحديث.

المثقفون في السودان- عموماً- كانوا ضدها ما عدا قلة ظلت تدافع عنها في استحياء إلى أن علا صوتها بعد أن تم (حل الإدارة الأهلية) وظهرت الإشكالات التي جاءت بعد ذلك. في ثورة أكتوبر ١٩٦٤ بدأ للناس أن (جبهة الهيئات) المكونة من المثقفين والنقابات أساساً مع مشاركة اسمية من الأحزاب هي التي بشرت بحل الإدارة الأهلية ودفعت بالشعار ضمن شعارات ثورية أخرى إلى الواجهة. وبعد أكثر من أربعين عاماً وفي ندوة عن آثار الحل أكد أمين عام جبهة الهيئات الدكتور جعفر كرار بل وتحدى أن يكون شعار حل الإدارة الأهلية ضمن مواثيق وأدبيات جبهة الهيئات وقال أن الشعار نادى به (الشارع) في إشارة لم تخف على الحضور أن (الشارع) وقد كان تحت قيادة الحزب الشيوعي السوداني الذي برز سافراً هو وراء ذلك. تلك كانت التباشير وخلخلة أركان الإدارة الأهلية وهز سلطاتها بين المواطنين وأنها عن قريب وقريب جداً زائلة. وجاءت ثورة مايو ١٩٦٩ وصمت آذانها عن

هتافات حل الإدارة الأهلية رغم أنه لم يصدر أي قرار رسمي في بداياتها بحلها. ذكر لي والدي وهو على رأس الإدارة الأهلية بلقب ناظر عموم دار حمر أنه في أول زيارة للرئيس نميري في عام ١٩٧٠ لمديرية كردفان في(حملة مكافحة العطش) أن قابلته بعض المظاهرات تهتف ضد الإدارة الأهلية وتجاوب مع بعضها بأنهم سوف يقومون بحل الإدارة الأهلية استقبله الناظر منعم منصور عند حدود دار حمر ورحب به وأخبره أنه أتى لاستقباله بسيارته الخاصة وسيارة الحكومة تتبعه. وأنه ينصحه بألا يقول (أنهم سوف يقومون بحل الإدارة الأهلية) لأن مثل هذا الحديث سوف يجعل المواطنين لا يحترمون الإدارة الأهلية ويتجاوزون العرف الأهلي وسبل حفظ الأمن الأهلي وجمع الضرائب دون أن يكون هناك جهاز حكومي يملأ الفراغ بعد إعلان (الرغبة) في حل الإدارة الأهلية وبين (إعلان قيام جهاز بديل) يمثل الحكومة. النصيحة هي إما أن يعلن قرار بحل الإدارة الأهلية ويعلن معه البديل- أو أن يقول أن الحكومة لا تود حل الإدارة الأهلية. كلا القرارين أفضل من ترك الأمر مبهماً وطلب منه أن يخبره بالقرار حتى يعود على متن سيارته أو سيارة الحكومة. وعده الرئيس بأن يوقف الإبهام وبالتالي الهتافات ضد الإدارة الأهلية والمطالبة بحلها. كان ذلك في عام ١٩٧٠.

تم حل الإدارة الأهلية بعد ذلك خلال نفس السنة ثم سمح بعودتها بعد ذلك بحوالي ثلاثة عشر عاماً في عام ١٩٨٣ خلال ثورة مايو. وتم تجاهلها بعد الانتفاضة عام ١٩٨٥ وطوال فترة الديمقراطية ١٩٨٥-١٩٨٩. وظلت بين التهميش والاستغلال والاستقلال طوال ربع القرن من حكم الجبهة القومية الإسلامية رغم أنها أنشأت لرجال الإدارة الأهلية جهازاً تحت مسمى (اتحاد الحكم الأهلي) يرأسه ابن الناظر منعم منصور، عبد القادر الذي تولى (إمارة) حمر كما أصبحت تسمى (النظارة) بعد وفاة والده ووفاة أخيه منصور الذي خلفه.

وبهذه المناسبة فإن ما يقوله ويظل يكرره بعض المثقفين- بل وبعض المفكرين- بأن الإدارة الأهلية جهاز(أنشأه) الاستعمار ليحكم عن طريقه حديث غير صحيح ولا أقول كاذباً: ذلك أن السكان المحليين في هذه الرقعة وقبل الفتح التركي المصري ثم البريطاني كانت لهم كيانات يقودها زعماؤهم وجاءت الهجرة العربية بقبائل يتقدمها زعماؤها: أولئك وهؤلاء هم الإدارة الأهلية. تعاونهم مع الحكم الوافد من المستعمرين هو تعاون المهزوم وشمل كل كيانات البلاد من رجال الدين و(السوق) وقيادات كل الكيانات بل أن ثورات بعض القبائل من غير ذات الأصول العربية وثورات القبائل ذات الأصول العربية ضد (المستعمر) سبقت انتفاضات وثورات الحركات الوطنية.

ولكن ما هي الأسباب التي جعلت نميري يحل الإدارة بعد أن وعد قبل شهور بعدم حلها. تحدث لي الوزير منصور محجوب الذي كان مدير وزارة التجارة والصناعة والتموين التي كنت أعمل فيها(قبل انتقالي إلى البنك الزراعي السوداني عام ١٩٦٠) والذي خلفته وزيراً للاقتصاد والتجارة الخارجية عام ١٩٧٣ قال لي السيد منصور محجوب أن الرئيس جعفر نميري كان في زيارة إلى منطقة النيل الأبيض أراد أن يختمها بالجزيرة أبا حيث كان يقيم الإمام الهادي منذ قيام ثورة مايو ١٩٦٩ حتى تاريخ الزيارة التي لم تتم في منتصف ١٩٧٠ قابلت قافلة الرئيس مظاهرات ومواكب من مؤيدي الإمام الهادي المهدي تعارض زيارته للجزيرة أبا وكانت (تحمل أسلحة الأنصار البيضاء التقليدية) كالحراب والسيوف الأمر الذي جعل الرئيس نميري يعود إلى الخرطوم حتى لا يحصل صدام الأنصار والحكومة ذات الأسلحة الجديدة تتقدمها الدروع والمركبات المصفحة. عقد اجتماع لمجلس الوزراء لمناقشة الأمر وتحدث منصور محجوب بأن الإمام الهادي يستقوي بآل هباني رجال الإدارة الأهلية في

النيل الأبيض وأنه إذا ما قامت الحكومة بحل الإدارة الأهلية في (النيل الأبيض) سيفقد آل هباني نفوذهم على المواطنين هناك وبالتالي سيفقد الإمام الهادي أكبر مصدر لقوته. وعليه أقترح منصور بأن يصدر قرار من مجلس الوزراء بحل الإدارة الأهلية في منطقة (النيل الأبيض) فقط وليس في كل السودان. قال منصور محجوب أن القرار الذي صدر مكتوباً في سجلات مجلس الوزراء والذي قرأه بعد عودته من رحلة الاستشفاء في لندن لمعالجة عينيه كان بحل الإدارة الأهلية دون الإشارة إلى منطقة (النيل الأبيض) فشمل القرار (كل السودان) لم يلتفت أحد لتصحيح الخطأ: بعضهم لاقى القرار هوى في نفسه- آخرون لم ينتبهوا للخطأ- وربما بعض لم يقرأوا القرارات عندما وصلتهم لأنهم جميعاً انشغلوا بالانتشار في كل أنحاء القطر للدعاية لانتخاب الرئيس نميري بعد فشل ثورة التصحيح بقيادة الرائد هاشم العطا. منصور محجوب نفسه لم يعد وزيراً للخزانة لمرضه ولم يعد عضواً في مجلس الوزراء رغم أنه عاد لعضوية المجلس في عام ١٩٧٢ بعد أن تم تعيينه مديراً لمؤسسة الدولة التجارية التي ضمت شركات ومؤسسات الحكومة التي آلت إليها بالتأميم والمصادرة.

ثم بدأ الجميع يشعرون بالفراغ الذي خلفه غياب الإدارة الأهلية من الساحة الوطنية: في الأمن- في القضاء- وجمع الضرائب في الريف السوداني- في فض النزاعات بين المواطنين والقبائل- في حفظ التراث- في تماسك الدولة ووحدتها وبالطبع أقبل بعضهم على البعض يتلاومون وينكرون. أقر الرئيس نميري بشجاعة بالخطأ وفوض حكام الأقاليم بأن يعيدوا الإدارة الأهلية- إذا أرادوا- كل في إقليمه وبالطريقة التي يراها. من المفارقات في أمر الإدارة الأهلية أن (أكبر شخصية) في الإدارة الأهلية كانت تنسج حولها القصص لم تكن إطلاقاً إدارة أهلية في ذلك الوقت: لم يكن عمدة ولا ناظراً ولا شيخاً. كان موظفاً تابعاً للقضاء هو الزبير حمد الملك في دنقلا. كانت وظيفته

الرسمية(مساعد رئيس تسجيلات الأراضي منطقة دنقلا وما حولها). ولكن قوة شخصيته في المنطقة وثقافته واحترام الإدارة الثنائية أيام الاستعمار له ومن بعدها الحكومات الوطنية هيأت للكثيرين أنه (عمدة) أو إدارة أهلية وتعجبوا جميعاً أن قرار حل الإدارة الأهلية لم يشمله لأنه لا علاقة له بها وظل جالساً في مكتبه يشرف على التسجيلات والرهونات.

......وماذا عن المحاكم والقضاء الأهلي ؟

بعد الحل أنشئت (محاكم أهلية) يتداول رئاستها أعضاؤها. فكانت مكان تندر المتقاضين فهجروها وذهبوا إلى رؤساء المحاكم السابقين والذين جلسوا إما أمام بيوتهم أو تحت ظل أشجار التبلدي أو النيم التي اعتادوها كالعادة. وما يكاد المجلس ينعقد حتى يبدأ شاك وخصم أنهما يرتضيان حكم الرئيس السابق. ولا يفلح في اقناعهما أن سلطته قد انتهت وأنه الآن (عداوي- أي مواطن عادي) مثلهما وأن القضاة الجدد في المحكمة المعتادة ويجئ الرد من كليهما: ديل شعبيين ساكت لا يعرفون كيف يحكمون حتى أن الواحد منهم يسر إليك بأن تحتكم إليه الأسبوع المقبل الذي يأتيه فيه (الدور) في رئاسة المحكمة. وبعد أخذ ورد وتدخل من الحضور الذي اعتاد زيارة الرئيس السابق كل صباح لإلقاء تحية اليوم له وتناول الإفطار يرتضي الشاكي والمتهم أن يقوم الرئيس السابق بالصلح بينهما والرضى بحكمه. وهو أمر كثيراً ما أثار حفيظة قضاة الشعب لأنه حكم يرتضيه الجميع دون استئناف ويعتبر- عملياً- امتداداً لدور الإدارة الأهلية كما أنه وهذا هو المهم حكم ليس فيه (غرامة) فالغرامة لا تذهب لخزينة الحكومة.

وفي خلاف شهير في السبعينات من القرن العشرين بين قبيلتي المسيرية والدينكا (نقوق- أبيى) رفض الطرفان تحكيم ضباط المجالس وكذلك الوفد القادم من الخرطوم (من الحكام الأفندية) كما وصفوهم وطالبوا بمحكمين من زعماء عشائر كردفان (شيخ منعم منصور أو عمه محمد عبيد الله

رئيس محكمة غبيش السابق) ومن دارفور الرزيقات (محمود موسى مادبو - والد الدكتور آدم مادبو) وبرروا طلبهم بأن ضباط المجالس ووزراء الخرطوم سوف يتم نقلهم بعد حين أو خروجهم في تعديل وزاري. أما زعماء العشائر فهم أهلهم والباقون معهم إن لم يكن هم بأشخاصهم فأولادهم الذين يحضرون معهم مثل هذه المجالس للصلح. وقد كان لهم ما أرادوا وجلس حكام الثورة متفرجين في أبلغ درس لمن يعتبر.

غير أن دور الإدارة الأهلية في حفظ الأمن جاء سرده في أكثر من موقع في هذه الذكريات- المذكرات: في تعرف رئيس محكمة صقع الجمل منصور منعم وهو شاب حدث على اللص الذي سطا على سوق البلدة وفي قصاص الأثر ودوره في تتبع الجناة وفي العرف عند (الفزع) وفي مكانة (سفيه) الحلة وفي (النفير: للزراعة والمباني والحفائر وحتى الشوارع) وغير ذلك وبالطبع فإن دورها في (الجودية والتوفيق) بين أفراد وبطون القبيلة الواحدة والقبائل الأخرى المجاورة أو التي تلجأ لحكمة زعمائها لم يتبين أهميتها (أفندية الخرطوم) إلا بعد أن اشتعلت أطراف السودان ناراً وكان أكثر حكام الخرطوم اعترافاً بدور الإدارة الأهلية والاستفادة من خبرة رجالها- وتوقيرهم- الفريق الزبير محمد صالح النائب الأول لرئيس الجمهورية آنذاك وكان يحمل معه- نقداً- ما يتوقعه من مساهمة الحكومة في التعويضات وفي (الديات) فيطفئ النيران ويثبت وجود هيبة الدولة رغم ما أصابها من اهتزاز- ولما قضى- عليه كما تقول بعض الروايات- خلف من بعده من أصابتهم (مفاجأة) الزعامة بل صرح بعضهم بأنه لا يريد لمجالس الحكم عندهم أن يجلس فيها زعماء العشائر ولكن عندما يقف كبرياؤهم عن مواجهة العقل يلجأون إلى زعماء العشائر ولعل أكبر قضية جنائية أوصلوها

دون الاستماع إلى صوت العقل إلى المحكمة الدستورية ثم (لمراجعة) ولم يجدوا بداً من قبول حكم القانون (المجرد) في إعدام أكثر من عشرين من قبيلة الشكرية في ولاية كسلا مقابل اتهامهم بقتل ثلاثة أفراد من قبيلة قليلة العدد تسكن دار الشكرية وفي كنفهم اسمها (العقليين) وقد شعروا وقتها أنهم لابد أن يبحثوا عن الحكمة عند أهلها. رفض أهل المجني عليهم الدية التي عرضتها عليهم المحكمة وبعض أقرباء الخصوم. نصح البعض رئيس الجمهورية عمر حسن أحمد البشير أنه إذا طبق حكم الشرع والقانون فعليه أن يتوقع أن يقوم الشكرية بإزالة هذه القبيلة العزيزة النفس القليلة العدد من الوجود تلفت الرئيس فلم يجد قريباً منه إلا نائب رئيس اتحاد زعماء العشائر الشيخ عبدالله محمد أحمد أبوسن ولكنه من قبيلة الشكرية فأرسل إلى كردفان داعياً رئيس الاتحاد عبد القادر منعم منصور الذي ذهب إلى القبيلة بوفد من زعامات القبائل ومكثوا ثلاثة أسابيع أقنعوا فيها القبيلة بقبول (الدية) بعد لأي. ثم بقبول (العفو) عن الجناة: أيضاً بعد لأي. ولكن ما هو المقابل (شرعاً) إذ إن الأمهات لا يطقن أن يرين القتلة يتجولون بينهن في الأسواق وفي المناسبات وفي المراعي. المقابل الشرعي هو (التغريب) أي أن يترك الجناة ليس فقط منطقة سكنهم وسكن أهل الضحايا بل أن يغادروا (ولاية كسلا) بأكملها: جنوباً وغرباً حتى (الحواتة) وشمالاً وشرقاً حتى(محمد قول وسوق تمبول) ولمدة عشرين عاماً وإذا وجد أي واحد منهم خلال هذه الفترة في (ولاية كسلا) يلغى الاتفاق ويطبق حكم الإعدام فيهم جميعاً. قبل الجميع بالاتفاق وطويت القضية وتصالحت القبائل. وبدأ منظرو (الشريعة) في البحث عن صحة الحل ثم

وجدوا أن صبياً (مليحاً) اسمه (ذؤيب) فتن فتيات المدينة وحار الخليفة عمر بن الخطاب في أمره. ورغم أنه لم يرتكب جرماً كما أنه ليس له يد في (ملاحته) التي حباها له الله. استدعى عمر سيدنا علي بن أبي طالب باب العلم وسأله الرأي. وتقول كتب السيرة أنه اقترح عليه (تغريب) الشاب إلى بلد غير المدينة لم تعرف فتياتها عنه شيئاً. ثم داعبه علي الكرار(عجباً أأنت ذؤيبهن فكيف إذا كنت (ذئباً) . وتم تغريب الشاب المليح. ثم نسى الجميع أمر (الإدارة الأهلية) بل وسعوا إلى (إذلالها) إذا صح التعبير- إذ إنه وصف لتصرفهم- وأرادوا إصدار قانون ينهي وجودها الفعلي كما رويت في مكان آخر من هذه المسيرة.

..... وماذا يشغل علماء السودان كما أسموا أنفسهم؟

لم يهتدوا لما يحقن دماء البشر ويشيع الأمان والسلام بين الخلق وانشغلوا بمتابعة فتاة تجلد (وحدها) دون (شريكها) ومنعاً لغير المسلمين من أن يحتسوا خمراً أباحته لهم دياناتهم. وأنا أكتب هذا أقرأ في الصفحة الأولى من صحيفة الأهرام المصرية حديثاً للأستاذ الدكتور (سعد الكتتاني) أمين عام حزب الحرية والعدالة (الذراع السياسي لجماعة الأخوان المسلمين) عدد ١٠/ ١٢/ ٢٠١١م يقول فيه ضمن إفادات أخرى (لن نفرض الحجاب أو نمنع الخمور في المنازل والفنادق). وفي (المنازل) وهو ما كل ما يتعاطاه سكان غرب السودان وسكان شمال السودان. وفسر دكتور الكتتاني حديثه بان احتساء الخمور في المنازل حرية شخصية كما أن (الفنادق أماكن خاصة وبالتالي فإن هذا يدخل ضمن الحرية الشخصية). وفي تصريحه عن السياسة أفاد الأمين العام عن (الأقباط) بأنهم (شركاء لنا في الوطن وحقوقهم مصونة بحكم

الشريعة الإسلامية ولن نفرض الحجاب على المسيحيات ولا حتى على المسلمات فالفرض يتم بقوانين وتشريعات وهذا غير وارد أو مقبول) وعن رئيس مصر المقبل قال سيادته(نريد لمصر أن يحكمها رئيس مدني وسندعم من يختاره الشعب حتى ولو كان قبطياً أو سيدة) لاحظ أنه حتى اليوم (١٣/ ١٢/ ٢٠١١م) رفض الأخوان المسلمون ترشيح رئيس منهم لمصر. ولكن ولدهشة كل مصر وكل العالم الغربي- رشح الأخوان المسلمون يوم ٣/ ٤/ ٢٠١٢ محمد مرسي لمنصب الرئيس وجلس الكتتاني رئيساً لمجلس الشعب. ولم يفرضوا الحجاب ولم يقفلوا البارات ولم يمنعوا شرب الخمر في الفنادق والمطاعم..إلى أن زالت دولتهم.

الفصل الرابع

معهد التربية: بخت الرضا

ولما جاء، دورنا إسماعيل وأنا، في الذهاب إلى المدرسة الوسطى وهذه المرة إلى الدويم الريفية الوسطى التابعة فنياً لمعهد التربية في بخت الرضا بالدويم لم نكن مؤهلين لا حجماً ولا سناً للزواج. لم تكن هناك ، عام ١٩٤٣م ، مدارس وسطى من الجنينة غرباً في دارفور مروراً بالفاشر ثم النهود. كانت في الأبيض وكذلك شرق وشمال كردفان وجنوبها، ونحن في غربها.

ثم أقام مؤتمر الخريجين مدرسة بجانب أخرى كانت تسمى مدرسة (النهضة) منهجها أقرب إلى المناهج في مصر ويؤمها في الغالب أبناء الجالية المصرية والأقباط في الأبيض والذين غالباً ما يكملون تعليمهم الثانوي إما في مدرسة الأقباط في الخرطوم أو في مدارس القطر المصري كما كان يسمى- قبل أن تقوم مدرسة الملك فاروق الثانوية- والتي أصبحت جامعة القاهرة فرع الخرطوم ثم استولت عليها ثورة الإنقاذ وأصبحت جامعة النيلين لذلك، رؤى والرؤية للإدارة البريطانية في المديرية أن نذهب ومعنا أبناء دارفور إلى بخت الرضا بالدويم حيث نؤدي امتحاناً يشترك فيه تلاميذ من كل أنحاء السودان حتى جنوبه في ذلك الوقت، ويتم اختيار أربعين تلميذاً للالتحاق بمدرسة الدويم (الريفية) الوسطى وستين أو أكثر بمعهد التربية في بخت الرضا لكي يتخرجوا معلمين في المدارس الأولية.

ذهبنا من النهود ونحن ثلاثة: إسماعيل منعم ومكي المرضي إمام ابن شرتاي أرمل في دار حمر وشخصي. ولما كنا صغاراً ولم نغادر من قبل إلى الأبيض ناهيك عن الدويم فقد قرر والدي أن يصحبنا أحد أبناء خؤولته(الجد حمودة محمد) وذلك رغم تأكيد المفتش البريطاني له بأننا بمجرد وصولنا إلى الأبيض سوف يستقبلنا مفتش تعليم المديرية محمد الحسن دياب والذي يشرف على ركوبنا القطار حتى كوستي حيث يتسلمنا مأمور المركز يوسف سعد والذي كان يشغل نفس المنصب في النهود قبل عام.

وعندما سمع والدي اسم يوسف سعد إطمأن وأبلغ المفتش أن حمودة سوف يركب معنا القطار إلى أن يسلمنا إلى المأمور يوسف سعد ثم يعود، وقد كان.

وبالفعل فإن الشيخ دياب كما كان ينادي كان واقفاً في رصيف محطة سكة حديد الأبيض ويقوم بالتمام على طلبة كل منطقة ويطلب منهم الصعود بنظام داخل عربة السكة الحديد التي كتب عليها بخط واضح (محجوزة للطلبة) وبعد أن تأكد من دخولنا جميعاً وقف على الرصيف إلى أن تحرك القطار صوب كوستي فالخرطوم.

لم نتبين أننا بالقطار في واحدة من عدد من العربات وأن هناك جسماً أسود اللون يتصاعد منه البخار ثم صفارة مدوية مخيفة إلا عندما وصلنا محطة الرهد والتي يقف فيها القطار خمس عشرة دقيقة.

الجد حمودة كان يوجهنا، نحن وزملاءنا من المناطق الأخرى ويطلب منا أن نحفظ أسماء المحطات وترتيبها حتى يمكننا الإجابة الصحيحة إذا كانت جزء من الامتحان في بخت الرضا.

وعندما تحرك القطار من محطة الرهد حوالي الساعة التاسعة صباحاً أخرج لنا من (قفة الزوادة) لوازم وجبة الإفطار من الجبن والطحنية والدجاج المحمر ودعا زملاءنا للمشاركة خاصة أولئك الذين حضروا من دارفور والذين لا شك قد نفد زادهم بعد رحلة ثلاثة أيام على متن (اللواري) وتكرر الأمر عند الغداء ونحن نجاوز محطة (تندلتي) أولى المحطات الكبيرة في مديرية (النيل الأبيض) قبل أن نصل إلى كوستي في الرابعة عصراً.

كانت مديريات السودان ثمانية عشر مديرية ثم رأت الحكومة ترشيداً للإنفاق دمج بعضها في بعض عام ١٩٢٩م فصارت تسع مديريات أكبرها حجماً بعد دارفور مديرية النيل

الأزرق التي ضمت النيل الأبيض والجزيرة ومناطق الفونج التي تعرف حالياً بمنطقة النيل الأزرق.

وعند نزولنا من القطار وجدنا المأمور يوسف سعد واقفاً بزيه الرسمي رداء قصير وقميص من الكاكي وقبعة ومعه عسكري بوليس وعربة فورد نسميها (أب أربعة) عرفنا فيما بعد أن الأربعة تشير إلى عدد (البساتم) في ماكينة السيارة إذ جاءت بعدها سيارة فورد ذات ثمانية بساتم. طلب جناب المأمور منا أن نضع أمتعتنا على السيارة ونمشي خلفه إلى أن وصلنا مبنى مدرسة كوستي الأولية التي كانت في إجازة نصف السنة ففتح لنا ناظر المدرسة أحد الفصول ووجهنا إلى استخدام (الكنبات) أسرة للنوم.

كان لكل منا دون استثناء (لحاف) خفيف من القطن وشنطة صغيرة من (الصفيح) كما كان لمجموعتنا (قفة) كبيرة بها بقية زاد تناولنا به عشاءنا.

وفي الصباح جاءنا عسكري البوليس وطلب منا أن نتبعه إلى منزل جناب المأمور حيث استقبلنا بكل ترحاب وطلب منا بعد الإفطار في داره أن نتوجه ويأخذ كل منا أغراضه إلى شاطئ النيل بقرب المدرسة حيث مرسى الباخرة التي ستقلنا إلى الدويم.

دار المأمور فسيحة وبها (نجيلة) خضراء وأشجار ظليلة جلسنا على بساط تحتها إلى أن وصلتنا صينية كبيرة بها (صحن باشري) كبير مملوء بإدام أصفر اللون يعلوه سمن وقليل من بصل محمر (قدحة) ويحف به رغيف من الحجم الكبير. تذوقنا الإدام ولم يعرفه أحد رغم استساغتنا له إلى أن حضر العم يوسف سعد وفاجأنا قائلاً (العدس) عجبكم؟ وعرفنا أنه العدس الذي سمعنا عنه.

وإذا كنا جميعاً قد تفاجأنا بالعدس لأول مرة حتى ظن بعضنا من فرط لونه أنه(كمبو، وهو أدام من اللوبيا ومنقوع رماد قصب الدخن) كما ظنه آخرون أنه(مرس) وهو أدام عنصره الرئيسي شحم الإبل وكاد السجال بين الإثنين أن يتحول إلى رهان لولا أنهم بمجرد أن تذوقوه ضحكنا وخسرت المجموعتان الرهان قبل أن يبدأ.

طرفا الرهان الآن من قادة العمل الوطني أحدهما من كردفان والثاني من دارفور بكري أحمد عديل وأحمد إبراهيم دريج وقد حضرا بعدنا بعام في نفس الرحلة إلى كوستي فالدويم.

أما الرغيف فرأيته لأول مرة في صقع الجمل عام ١٩٣٨م عندما حضرت مجموعة من طلبة كلية غردون في رحلة جغرافيا مع الأستاذ عبد الحليم علي طه على ما أذكر. بعض آخر رآه وتذوقه أول مرة عند فتح الجد حمودة قفة الزوادة في محطة الرهد ونحن متجهون للامتحان في بخت الرضا في ديسمبر ١٩٤٣م.

تأخر (وابور البحر) وقام المأمور باستئجار عربة كانت متجهة للدويم وركبنا عليها بعد أن شدد على سائقها أن يواصل رحلته ليصل الدويم ليلاً ويأخذنا إلى منزل أحد الأساتذة وهو محجوب أبشر ويخبره أن يتصل بإدارة معهد بخت الرضا لترسل لنا عربة المعهد لتنقلنا إلى هناك.

ودعنا الجد حمودة بعد أن إطمأن على سفرنا كما ودعنا العم المأمور يوسف سعد والذي كان يصر دائماً على استضافتنا كلما وصلنا كوستي في رحلتي الذهاب والإياب إلى أن تم نقله.

لم نلحظ اهتمامه بأمرنا وقتها ولا سرعة اتخاذ قرار استئجار العربة والتعليمات المشددة للسائق ولكني قارنت الآن موقفه بالمسئولين اليوم ممن هو في مركزه أو حتى أعلى منه.

وصلت عربة بخت الرضا وهي (بوكس) عادي من النوع الذي يستخدمه مفتش النهود. واستقبلنا السائق البشوش (منصور الدسوقي) ونقلنا إلى المعهد حيث استقبلنا أحد الأساتذة وتم توزيعنا على عدد من الداخليات والتي كانت خالية إلا من الطلبة الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى ذويهم في إجازة نصف السنة.

ووجدنا أنفسنا من غرب كردفان: النهود ومن جبال النوبة: كادوقلي والدلنج ورشاد، ويشرف علينا (عبد الرحمن محمد زين) وهو من المجلد وعرفت أنه بالصدفة الحميدة شقيق أستاذي التجاني محمد زين.

كما تعرفت لأول مرة على عمي، ابن عم والدي، أحمد ناصر محمد الشيخ الذي جاء من أبوزبد ولم نتعارف طوال الرحلة من الأبيض إذ كانت مجموعته تضم الذين درسوا في المدرسة الأولية وكلهم من جبال النوبة: لقاوة. أخذنا الطالب عبد الرحمن محمد زين في جولة داخل بخت الرضا وطفنا بالعديد من مباني الداخليات ثم مباني الأساتذة والفصول والمكتبة التي شرح لنا معناها ثم المسرح.

ولم نفاجأ هذه المرة بالعدس الذي شكل إفطاراً دائماً. وكان اليوم التالي هو يوم الامتحان للقبول بمدرسة الدويم الريفية الوسطى كما كانت تسمى. وللقبول بمعهد التربية في بخت الرضا. وكان كرماً منه أن طمأننا بعدم (الخوف) من الامتحان وأن نقرأ سورة الفاتحة ونحن نبدأ في الإجابة.

وقد تم تصحيح الامتحان بسرعة وبعد يومين دعينا لإعلان النتيجة. وسررنا نحن الثلاثة: إسماعيل ومكي وشخصي بالقبول في المدرسة الوسطى ومعنا عمي أحمد ناصر. وبنفس السرعة التي تم بها استقبالنا تم ترحيل من قبلوا بالمدرسة الوسطى إلى داخلياتها في الدويم. ومن لم يقبلوا في المدرسة الوسطى أو معهد بخت الرضا إلى مناطقهم عائدين وبقيت المجموعة التي تم قبولها طلبة في المعهد ليتخرجوا بعد ست سنوات من الدراسة معلمين في المدارس الأولية (الأساس) أما نحن فمن المقرر أن نجلس بعد أربع سنوات لإمتحان الدخول للمدارس الثانوية (العالي).

كانت مدرسة الدويم الريفية الوسطى تضم أربعة فصول وفي كل فصل أربعون طالباً، عشرة منهم من مدينة الدويم وعشرة من ضواحيها: جنوباً حتى قرب كوستي وشمالاً حتى مدينة القطينة، أما العشرون الآخرون فهم من جميع مديريات السودان الأخرى عدا بحر الغزال لا أدري لماذا ؟.

إذ كان معنا من الإستوائية عبد الحفيظ علي، وهو من التجار والأعيان الآن ومن أعالي النيل محمد على الأسيوطي وهو أخ خبير الجلود المهندس عبد الرحمن الأسيوطي. وكان هناك أربعة من دارفور: إثنان من الفاشر وهما موسى عوض بلاّل وعبد الله زكريا إدريس وواحد من زالنجي هو هارون علي والرابع من كتم هو آدم أسحق.

وتعي الذاكرة الشيخ التجاني من مدينة مقرات ومحمد أحمد سيدون: من سيدون وعبدالله محمد أحمد أبوسن.

ومن أبرز أبناء الدويم حسن التاج وحامد محمد حامد الأنصاري وسيد عثمان الذي كان يشاركني في (درج الجلوس) وبخيت حامد (ود الريس) ثم انضم إلينا في الفصل الثاني

من الدراسة حسن حمزة هيبة- بعد أن خلا مقعد لأبناء الدويم بسبب المرض- ومحمد حسن أبو ضلع خبير المساحة.

كانت الداخليات ثمانية، ست منها على شمال وجنوب المدرسة وبالقرب منها، وواحدة في أقصى الجنوب تفصلها مسافة عن بقية الداخليات الجنوبية وقد أطلق عليها من الطلبة اسم(المنفى) علماً بأن الداخليات الأخرى كانت تعرف باسم رؤسائها في كل عام من طلبة السنة الرابعة.

أما الداخلية الثامنة فتقع على أقصى الشمال بالقرب من مباني حدود مدينة الدويم وبالقرب من (البئر) الوحيدة التي كانت تسقي كل المدينة، وأطلق الطلبة على هذه الداخلية- والتي كنت أحد ساكنيها- اسم العراء.

كانت كل داخلية تتكون من غرفتين يسكن في كل غرفة أربعة من الطلاب، أما في(المنفى) وفي (العراء) فالداخلية تتكون من (درderين) بكل دردر أربعة طلبة. وفي جميع الحالات بالداخلية طالبان من كل فصل، ورئيس الداخلية ونائبه من طلبة السنة الرابعة.

ولكل داخلية (حوش) وبه مطبخ وحمام، وإثنين من المراحيض. ويتسع فناء الداخلية للنوم ليلاً في حالات الصيف، وللسمر ولغسيل الملابس ونشرها أيام الجمع. يبدأ الواجب في ليلة يوم النبطشية، او النوبتجية ما يقال لها باللغة العربية، ولا أرى فرقاً بينهما فيقوم النوبتجي باستلام حصة الداخلية من اللبن الذي نستقى منه للعشاء ونشرب منه شاي الصباح فيقوم بدخول المطبخ ويوقد نار حطب الحريق ليغلي اللبن الذي يقدم لكل زميل منه كوباً للعشاء ويترك قدراً لشرب الشاي صبحاً.

وفي الصباح يقوم بتنظيف وكنس أرضية العنبر ثم يقوم بالذهاب إلى (الكنتين) وهو دكان صغير يديره أحد الطلبة ويتسلم حصة السكر والشاي ويعد النوبتجي الشاي ويقدمه لزملائه وتكون الساعة قد قاربت السابعة صباحاً فنتجه جميعاً إلى المدرسة.

لكل داخلية (طباخة) تقوم في اليوم السابق باستلام احتياجات الإفطار والغداء من الكنتين. ويقوم النوبتجي بإحضار (صينية) الإفطار والذي كان يتكون من طبق العدس والرغيف ويوماً من (ملاح شرموط أخضر) مع (الكسرة). أما الغداء فغالباً ما يكون من طبق خضار الموسم: قرع، ملوخية، طماطم أسود والذي كنا من شدة كراهيتنا له ربما لسوء إعداده نسميه (ملاح براطيش) أي قدامى أحذية الجلد.

غير أنه نسبة لما كانت تتمتع به الدويم من خيرات فإن الإفطار والغداء لا يخلوان من سلطة خضراء: طماطم وعجور وجرجير.

وفي المساء بعد أن يقدم لنا النوبتجي كوب اللبن ويقوم بغسل الأكواب يتسلم منه نوبتجي اليوم اللاحق أدوات المطبخ.

هذه يومية الطالب النوبتجي بمدرسة الدويم الريفية الوسطى وتدور عليه مرة كل أسبوع.

تقع مدينة الدويم على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض بين أم درمان وكوستي. وكانت حتى بدايات القرن العشرين الميناء البري الذي يربط الجنوب وكردفان بأم درمان إذ تأتيها المحاصيل والأخشاب براً وبالمراكب الشراعية الكبيرة من الجنوب وتغذي ميناء مدينة أم درمان في (الموردة) بكل الخيرات التي ترد إليها كما كانت تقوم في ذلك الوقت بتموين المديريات الجنوبية بمعظم احتياجاتها الواردة من أم درمان بدرجة أكبر من مدينة كوستي.

ويسكن الدويم عدد مقدر من (الجعافرة) الذي استقروا فيها من صعيد مصر واشتغل غالبيتهم بالزراعة وقليل منهم بالتجارة وانتشرت في كل أنحاء السودان.

وباختيار قرية بخت الرضا التي تبعد بحوالي أربعة كيلومترات من مدينة الدويم وازدحامها برجالات العلم وطلبته ازدهرت فيها الحياة التجارية بل والصناعية.

وكان الزمن عند حضورنا في أواخر عام ١٩٤٣م (زمن الحرب) فالحرب العالمية الثانية انتهت رسمياً في مارس ١٩٤٥م واستمرت آثارها في ندرة السلع وتوزيع الضروريات ببطاقات التموين مع تزايد في الأسعار.

لكن الوضع العام في الدويم كان أفضل من جميع هذه النواحي بالمقارنة مع غرب كردفان وغرب السودان عموماً. هذا بالإضافة إلى وفرة كبيرة في كل أنواع الخضروات والتي قلما تعرف في مناطقنا.

وكانت المدرسة، كعادة كل مدارس السودان على أيامنا، تقوم بإعداد زيارات في حصة الجغرافيا لمعالم البلدة. وكنا في النهود نزور دكان (سر تجار البلد) والمستشفى و(الدونكي) شبه المتوقف والبوسته وأحد أفران الرغيف.

أما في الدويم فقد كانت تضم أماكن لم نعهدها بل ولم نسمع بها، شملت هذه الأماكن: معمل (الجبنة) وكلمة (معمل) هي السائدة بديلاً لكلمة (مصنع) التي لم تكن متداولة.

ولعلنا جميعاً نعرف ونتوق إلى جبنة الدويم البيضاء والتي تصنع من ألبان أبقار المنطقة، ثم معمل الصلصة لكثرة الطماطم بدرجة تكاد تكون غير موسمية، ومعمل الصابون لإنتاج صابون شعبي لغسيل الملابس ومعمل الزيوت من بذرة القطن.

أما زيت السمسم والفول فقد كان إنتاجهما في ذلك الوقت يتم في (العصارة) التي يديرها الجمل، ويعتبر الزيت الناتج منها أزكى رائحة وأفضل مذاقاً من زيت بذرة القطن والذي لم يكن يعالج في ذلك الوقت المبكر بالكيماويات والهايدروجين.

ويدير معمل الجبنة رجل يوناني لعله (خواجه كوستي) سليل الأسرة اليونانية التي افتتح أحد أفرادها حانوتاً عند بناء كوبري على النيل الأبيض لإمداد العاملين باحتياجاتهم فقامت مدينة كبيرة وطغى على اسم القرية الأصلية(مديسيس) وأصبح اسمها حتى اليوم كوستي.

كان خواجة كوستي متحفظاً على الدوام، كما علمنا من طلبة سابقين، في شرح كيفية عمل الجبنة والمكونات التي تضاف للألبان ومقاديرها وعند عودة الطلبة إلى الفصل يكمل الشرح الأستاذ (أحمد محمد سعد أو الطاهر شبيكة على أيامنا).

ومع ذلك فإننا بعد الذهاب إلى فناء المدرسة وحضور (التمام) اليومي مع مغيب الشمس نعود إلى الداخليات للمذاكرة، وأحياناً لاستقبال بعضنا البعض في زيارات تفقدية أخوية بعيداً عن جو الدراسة ويعود كل منا إلى داخليته ليقوم رئيس كل داخلية بالتمام الثاني على رعيته لننام جميعاً في التاسعة مساء.

بالقرب من المدرسة منزل يباع فيه(الفول المصري) في وجبة الإفطار لمن يستطيع إليه سبيلاً، الطبق ومعه رغيف كبير ومعلقة زيت سمسم ويعلوه(شمار) بقرشين أو (فريني) كما كنا نسميه.

وكان غاية المنى أن نحصل ولو مرة في الأسبوع على هذا الطبق بديلاً لملاح الشرموط بالكسرة. وفي يوم سمعنا أن طلبة مدرسة رفاعة أضربوا عن الطعام لرداءة الفول الذي يقدم إليهم، وتعجبنا.

وكان ناظر المدرسة يومها محمد أحمد عبد القادر والد زين العابدين محمد أحمد عبد القادر (زينكو) فاستبق الأمر وخطب فينا في الطابور الصباحي اليومي أن ما حدث من طلبة رفاعة لا يشبه الخلق السوداني الذي لا يشكو من الطعام وأنه اتفق مع (مصلحة المعارف) أن يتم تغيير ملاح الشرموط والكسرة إلى فول ورغيف وعليه لا يتوقع أن نرفض الفول الذي نوفر من أجله القرشين ولا يتوقع أن يسمع همساً بعد ذلك في موضوع الأكل.

كانت الدراسة في المدرسة جديدة علينا تماماً. كنت في مدرسة الصقع لم أقابل عقاباً سواء بالجلد أو الجلد من شيخ التجاني كما أسلفت سواء لي أو لغيري على عكس ما كان يحدث في المسيد.

وعلى عكس ما قابلنا في المدرسة الأولية بالنهود إذ كان الجلد فيها كل صباح في الطابور اليومي أمراً عادياً، وبالمثل داخل الفصل بالكف.

وفي إحدى السنتين وصلنا ناظر من رفاعة هو الشيخ يوسف أبو تركي لم يكن يستخدم صوت العنج وإنما كان يستخدم رأفة بنا (المطرق) وهو فرع من الشجر الذي يستخدم في سقوف المباني، وكان يسميه (الفلكابة) وحتى نستوعب الاسم تكسرت على الرؤوس عشرات المطارق.

أما في مدرسة الدويم الريفية الوسطى والتي كانت تتبع فنياً لمعهد (التربية) في بخت الرضا فقد كان الضرب أو العقاب البدني ممنوعاً: لا بالكف ولا بالرجل ولا بالسوط ولا (بالفلكابة) طبعاً. فقط التربية بالتوجيه والنصح.

وكان الطالب بعد أن يقبل في الدراسة لا يفصل تحت أي ظرف ومهما ارتكب من مخالفة أو جرم فقد كان الشعار الذي رفعه نائب مدير معهد التربية عبد الرحمن علي طه هو أن بخت الرضا والمدارس التي تتبعها لا تقوم بتخريج مجرمين إلى المجتمع وعليها تقويمهم متى قبلتهم حتى يتخرجوا مواطنين صالحين، بل في حالة المعلمين، تربويين، أما قبل الدخول في قائمة الطلبة فإن بخت الرضا لا تضم إليها الصعاليك عديمي التربية.

وأذكر في هذا الصدد حالتين: الأولى عندما كان الأستاذ ينادي بأسماء الطلبة المقبولين يردون عند ذكر الاسم بكلمة نعم، أو فندي، ولكن أحد المقبولين صاح، وهو من كردفان، حبيبي أنا يالبيبي، والبيبي هو نطق للحرفين الإنجليزيين BB وكانت شعار العربات التي يمتلكها في ذلك الوقت باسيلي بشارة BB صاحب شركة النقل الوطنية التي تم تأميمها في مايو ١٩٧٠م.

فما كان من الأستاذ إلا أن أعلن عن شطب اسمه وأبلغه بعدم القبول وأن المعهد لا يدخله الصعاليك من مساعدي سائقي اللواري.

أما الحادثة الثانية فقد أقدم طالب على (طعن) زميل له بعظم خروف أثناء اشتباك في إحدى الرحلات. اختلف الأساتذة في بخت الرضا في (عقاب) الطالب إذ رأى بعضهم أن يفصل فهذه سابقة كبرى. غير أن الأستاذ عبد الرحمن علي طه نائب مدير المعهد (المستر قريفس) اختلف معهم وأيده في ذلك المدير ذلك أن الطالب كان في السنة الخامسة (قبل

النهائية) وقد مكث في بخت الرضا خمس سنوات وفصله يعني فشل معهد التربية في تربيته طوال خمسة أعوام ولا يمكن لبخت الرضا أن يتم على يديها تخريج (مجرم) إلى الشارع وعليها مراجعته وتوبيخه وتقويمه. وبالفعل تمت مراجعته ورعايته وطلب منه أن يتصل بأستاذه من وقت لآخر في ما يقابله من مشاكل خاصة من زملائه. وقد تخرج وتدرج في وظائف التربية إلى أن أصبح (مفتش) تعليم مديرية، أقصى ما يصله في ذلك الزمان.

كانت على أيامنا تتبع معهد بخت الرضا ثلاث مدارس: مدرسة أولية في قرية شمال شرق المعهد تسمى مبروكة يدرس فيها بعض طلبة الدويم وآخرون من ضواحيها ويتدرب فيها طلبة المعهد ممن هم في السنة السادسة، والأخيرة، قبل أن يتخرجوا معلمين للمدارس الأولية.

وفي المدرسة الثانية التي نحن فيها يأتينا الخريجون الجدد من المدارس العليا(كلية غردون) قسم المعلمين ويقومون، كل في حصة منفصلة، بالتدريس على نفس المنهج الذي يتم بمعهد التربية في بخت الرضا.

ولما كان أكثرهم إن لم يكن جميعهم لم يواجهوا طلبة من قبل وفي نفس الوقت لم يكونوا قد رأوا أستاذاً من المعهد يمسك بكراسة وقلم يرصد كل تصرف منهم أو رد فعل من الطلبة وكيفية مواجهته له فإن المتدرب كثيراً ما يرتبك وبعضهم يتلعثم ويتصبب العرق منه.

وقام أكثر من واحد بمسح العرق من وجهه (بالبشاورة) وهي قطعة القماش التي تمسح بها السبورة بين ضحك الطلبة وحيرة زملائه والمراقب. ومع ذلك فبعد مضي حوالي الشهر وأكثر أصبح الجميع يواجهون الموقف بشجاعة.

أما المدرسة الثالثة فقد كانت تسمى (المدرسة الثانوية الصغرى) وكان يقبل فيها طلبة لم يحالفهم الحظ للدخول في المدرسة الثانوية الوحيدة التي أنشئت باسم مدرسة أم درمان الثانوية قبل أن تنقسم في عام ١٩٤٦م إلى مدرستين: مدرسة وادي سيدنا الثانوية شمال أم درمان ومدرسة حنتوب الثانوية على الشاطئ الآخر من مدينة واد مدني.

كانت المدرسة الثانوية الصغرى تضم أقساماً عديدة من التخصصات العملية: قسم المحاسبة، هندسة ميكانيكية للسيارات، هندسة للجرارات ، قسم للزراعة، قسم للبيطرة، قسم الطباعة والسكرتارية، قسم للنجارة والسمكرة وغير ذلك. وكان بعض الطلبة يدخل أكثر من قسم.

ناظر المدرسة كان المستر (لويس براون) الشهير الذي أصبح فيما بعد ناظر حنتوب. للأسف لم تستمر المدرسة الثانوية الصغرى أكثر من عامين وتعرضت لهجوم عنيف من رجالات المؤتمر والحركة الوطنية إذ رأوا فيها قتلاً للطموح سببه فشل الحكم الثنائي في توفير فرص للتقدم في التعليم الثانوي.

ومع قفل المدرسة الثانوية الصغرى تم نقل وتطوير قسم المحاسبة ومعه السكرتارية والطباعة إلى ما عرفت باسم مدرسة التجارة الثانوية بأم درمان ونقل قسم الزراعة وهندسة الجرارات إلى قسم آخر صغير تطور فيما بعد إلى معهد شمبات الزراعي.

الوصول إلى الدويم بالنسبة لنا أبناء دارفور وكردفان يكون في فصل الشتاء أو الجفاف من كوستي بالسيارات. أما في فصل الأمطار فإن القطار يسير بنا متجاوزاً كوستي، وعمنا يوسف سعد إلى الخرطوم.

وفي محطة السكة حديد الخرطوم يقابلنا أحد أستاذة بخت الرضا ليس فقط ليوجهنا في الذهاب من المحطة إلى (الأسكلة) بل وليرافقنا في رحلة نيلية على باخرة من (الأسكلة) إلى الدويم. فبعضنا يصيبه الرعب من كلمة البحر والخوف من الغرق رغم أن بعضناً أيضاً تعلم العوم في حفائر القرى.

(الأسكلة) لمن لم يسمع بها أو سمع بها في الأغنية الشهيرة من (الأسكلا وحلاّ) هي الميناء النهري الذي تبحر منه البواخر النيلية إلى الدويم،كوستي، الكوة وإلى آخر المحطات التي رصدتها الأغنية. وتقع أمام ما كان يعرف بمخازن السكر وهي الآن متحف السودان القومي.

الوصول إلى الأسكلة وبقيادة أستاذ المعهد يتم على مراحل: من محطة السكة الحديد بالخرطوم إلى المدرسة الأولية: مكان برج البركة الحالي حيث نضع أمتعتنا المكونة من شنطة حديد صغيرة للملابس ولحاف خفيف من القطن، لمن استطاع إليه سبيلاً، وكذلك سبت أو(قفة) بها زاد السفر الذي أسلفت الإشارة إليه.

ونجد في انتظارنا رغيفاً محشواً بجبنة وطحنية معاً يجلس الطلبة معاً في سطح الباخرة أو الوابور النهري صفوفاً متراصة حسب المناطق التي أتوا منها. وعند مواعيد الوجبات تخرج كل مجموعة زادها وتلتف حوله في دائرة.

ولسوء حظ أحد أبناء كردفان فإن زاده قد نفد ونسى أن يحتاط هو ومجموعته وفي لحظة حيرة لمح مجموعة من ثلاثة، عرفنا فيما بعد أنهم من شندي، لديهم (دجاجة) فذهب طالباً أن يقسموا لهم منها وهم قلة يكفيهم نصفها ولكنهم تجاهلوا طلبه فما كان منه إلا أن

غافلهم واختطف الدجاجة ولحقوا به قبل أن يستقر بها مع زملائه وقبل أن تبدأ معركة تدخل الأستاذ في الوقت المناسب، واستلم الدجاجة.

سأل الخاطف عن اسمه ووجهته فأخبره أنه ذاهب للامتحان في بخت الرضا ليتخرج معلماً، وسأل زعيم أبناء شندي فأخبره بأنه ذاهب أيضاً للامتحان ليتخرج معلماً. هنا صفق الأستاذ يديه فأنصت الجميع: وقال إن شاء الله بعد كم سنة سوف تتخرجون معلمين وتتفرقون في أنحاء السودان المختلفة ثم يقابل بعضكم بعضاً وقد تنسون الأسماء فيسأل سائل ويرد عليه زميل قائلاً: نسيت فلان يا أخي دا الخطف الدجاجة في الوابور، وقد يكون التساؤل بالعكس فيرد آخر: يا أخي دا شيخ الجماعة البخيلين بتاعين الدجاجة. يا أبنائي تعلموا من الآن كيف يجود بعضكم على بعض والزاد القليل يكفي الجميع. وبارك الله في طعام كثرت فيه الأيادي. من الآن أجمعوا كل قفف الزوادة عندي ووقت الوجبات تتقاسمون طعامكم جميعاً، دي رحلة واحدة والزمن طويل هكذا أساتذة معهد التربية في بخت الرضا.

ونعود إلى مدرسة الدويم الريفية الوسطى والتي كانت بجانب تدريب المدرسين فيها كان يتم فيها كما أسلفت اختيار المناهج الجديدة. بعض المدرسين استمروا معنا في المدرسة بعد التدريب بالإضافة إلى الذين كانوا معنا وأذكر دون حصر الأساتذة رحمة الله عبدالله، محمد عبدالله نور، أحمد محمد سعد، محمد توفيق أحمد،حسن عباس، محمد خوجلي، محمد جبارة العوض، إبراهيم محمد علي نمر، حسن أحمد الحاج، شريف خاطر، المستر بيتر هولت وقد كان يدرسنا تاريخ الإنسان الأول باللغة العربية الفصحى ويصلح أخطاءنا في الإملاء والنحو، وعبد العزيز عبد الله وهو مدرس اللغة العربية والدين ومن ثوار ١٩٢٤م

الذين فصلوا من الخدمة العسكرية دون أن يسجن واستقر في بلدته الدويم معلماً ويدير مشروعاً زراعياً ناجحاً.

كان (ضابط المدرسة) طوال سنواتنا الأربع عبد الرحمن أحمدعيسى (أول ناظر لمدرسة القولد الأهلية الوسطى) بينما نقل الناظر الشيخ مصطفى الذي اشتهر باسم شيخ الشيخ، وجاء بعده محمد أحمد عبد القادر بعد وصولنا بقليل.

ومن الأساتذة الذين استقروا في ذاكرتنا لفترة طويلة محمد عبدالله نور أستاذ العلوم(الطبيعية) الذي ذكر أن (عصا موسى) ربما كانت نوعاً من ثعبان (الكوبرا) والمعروفة عندنا في كردفان باسم (النوامة) لأنها تنام فترات يظنها الإنسان ميتة فإذا أفاقت من نومها تكون في حالة من الجوع تلقف ما حولها.

ولم يؤد حديث الأستاذ محمد عبدالله نور إلى إثارة أو تكفير وسطنا بقدر ما تقبلناه كنوع من أحاديث التاريخ لا الطبيعة أو الدين. ثم سرعان ما نسيناه بعد أن سافر في بعثة إلى بريطانيا.

والأستاذ الثاني هو أحمد محمد سعد الذي كان يشرف على داخلية (المنفى) التي ورد ذكرها ويسكن في غرفة تبعد نسبياً عن الداخليات. وكان عازفاً ماهراً على آلة (الكمان) وكنا نذهب مع بعض طلبة المنفى والمديرية الشمالية للاستماع ولمتابعة نقاشنا في حصة الطبيعة التي يدرسها لنا في أن الماء البارد والثلج ليست لهما درجة (برودة) وإنما درجة (حرارة) ويظل يشرح ونجادل وهو يبتسم إلى أن كبرنا وعلمنا أن درجة الحرارة تعكس في أدنى مستواها (برودة).

ثم غادرنا مع محمد عبدالله نور إلى بعثة في بريطانيا غير أنه حكى لنا، وهو يودعنا في حفل شاي أقمناه له نحن طلبة (طبيعة ب)، أن المستر (قريفث) عميد معهد بخت الرضا ظل على مدى أسبوع كامل يدعوه وزملاءه المسافرين في البعثة إلى منزله للعشاء معه ويشرح لهم عادات الأكل في بريطانيا، وكيفية وضع الشوكة والسكين والملعقة في تربيزة السفرة ثم كيفية استخدام السكين باليد اليمنى والأكل بالشوكة باليد اليسرى وشرب الشوربة بالملعقة دون إحداث صوت.

أما الشاي فيتم صب الشاي أولاً ثم اللبن، ونفس الشيء بالنسبة للقهوة، قهوة باللبن، نعم هكذا في بريطانيا.

كما أوضح لهم أن الحديث وكذلك الضحك في بريطانيا على قدر ما يسمع الشخص المخاطب. أن كل شيء بالطابور لا يتخطى أي شخص دوره في أي مكان.

كما أن الشخص يدفع حسابه في المطعم أو المقهى إلا إذا كان هناك اتفاق قبل ذلك أو دعوة، ولا مكان لأن يحلف واحد على دفع حساب آخر.

وفي العادة فإن أي إنسان يخدم نفسه بنفسه وقلما يوجد (خدام) أو(خدامة) إلا لدى الطبقة الأرستقراطية التي يشاهدونها في الأفلام السينمائية، ولا ينسى أي منكم كلمة شكراً كلما قدمت له خدمة أو كلمة آسف إذا أخطأ، وأهم شيء المواعيد بالدقيقة.

وبعد أن تأكد مستر(قريفث) أن أبناءه وزملاءه قد أتقنوا عادات المائدة والبلاد ودعهم بأطيب التمنيات ذاكراً لهم أنه لا يريد أن يقال أن معلمين حضروا من السودان وهم يجهلون أبسط قواعد الأكل والسلوك فيكونون مكان سخرية.

ومعلم آخر كان دائماً يبهجنا بحديثه ونكاته هو محمد توفيق أحمد إذ : أنه يدرس منهجاً جديداً في اللغة الإنجليزية رأت بخت الرضا بعد انتقاد المعلمين له أن تلغيه وتسحب الكتب من مكتبتنا.

يسمى المنهج (تعلم الإنجليزية بالتحدث Learn to speak by speaking) دون استخدام قواعد اللغة الإنجليزية المعروفة باسم Grammar.

ويظل محمد توفيق يشرح بأن تكون لكل منا أذن تميز الجملة الصحيحة وترفض الخطأ. وبعد جهد منه ومنا تعلمنا أن نتحدث الإنجليزية ونكتب موضوعات الإنشاء دون أن نتعلم القواعد ونادراً ما كنا نخطيء. وقد ساعدتنا على ذلك قراءة مستمرة في كتب مبسطة من مكتبة المدرسة بمعدل كتابين كل أسبوع.

ولم نشعر بأننا فقدنا شيئاً إلى أن جاء امتحان الشهادة السودانية إذ كان هناك سؤال عن القواعد ومع أنه كان إختيارياً من بين ثلاثة أسئلة وكان علينا أن نجيب على سؤالين إلا أننا وجدنا أنفسنا مع سؤالين إجباريين.

وبسرعة تدارك الناظر محمد أحمد عبد القادر الموقف ولفت نظر مراقب الامتحانات الذي أرسله مكتب بخت الرضا وكان نصر الحاج علي وطلب منه أن يبرق مصلحة المعارف لتراعي وضع دفعتنا عند تصحيح ورقة اللغة الإنجليزية.

محمد توفيق كان أيضاً (أبو الفصل Form Master) وكانت هناك حصة في الأسبوع يتواصل فيها أبو الفصل مع الطلبة في حديث عام ونقاش دون جدول أعمال. وكانت فرصة ليحرك مواهب الطلبة ويتعرف عليهم عن قرب لأنه سيكتب تقريراً عن كل واحد نهاية كل فصل دراسي يرسله إلى ولي أمر الطالب مع تقارير أخرى عن أدائه في المواد الدراسية.

وفي أواخر العام قرأ علينا محمد توفيق تقريره عن كل منا ولما جاء دور موسى عوض بلال: وين موسى؟ كتبت عنه: لا تكاد تشعر بوجوده في الفصل. ثم صاح فيه: قيام . جلوس... وطلب منه أن يشارك في الحديث والجدل.

ومن يومها تقمصت موسى عوض بلال حيويته التي عرف بها طوال حياته وأعجب به محمد توفيق في العام التالي إلى أن أرادت الأيام أن يتخرج موسى من جامعة الخرطوم ويتقدم للخدمة في مصلحة العمل ومديرها محمد توفيق فلم يتردد في اختياره وظلا في تفاهم إلى ان أحيل محمد توفيق إلى المعاش بسبب مشاركته في مظاهرة احتجاج ضد قرار حكومة الرئيس عبود بالموافقة على نقل سكان وادي حلفا إلى خشم القربة بسبب قيام السد العالي بمصر.

وكان لرحمة الله مكان خاص في المدرسة إذ هو المشرف على كل نشاط الطلاب المتمثل في(الجمعيات) والكنتين والجمعية العمومية.

وقد سبقت الإشارة إلى الكنتين وبه كل مستلزمات الداخليات من سكر، وشاي وعدس وفول مصري وزيت وبصل ...إلخ وهو تحت إشراف أحد الأساتذة وقد كان رحمه الله عبدالله. ويختار الأستاذ أحد الطلبة ليتولى الإدارة اليومية وأذكر أنه كان الاختيار في أيامنا على بدر الدين يوسف هباني: ابن ناظر الحسانية بالنيل الأبيض- الدويم. وكانت المدرسة تدار بواسطة (جمعيات) هي: الثقافة وتقوم بتوفير المجلات وتشمل مجلة الطالب والثقافة والرسالة (وقد كانتا تصدران في مصر حتى عهد عبد الناصر) والمختار من ريدرس دايجست والمصور والتي كان الاشتراك فيها يثير جدلاً كل عام باعتبار كثرة ما تحتويه من

(صور) غير أن الغلبة تكون في النهاية لصالحها باعتبار أن الصور هي من صميم المعلومات التي تحتويها وتجعلنا نطلع على ما لا نراه في الحديث المكتوب.

وجمعية الصحة العامة كانت تشرف على قيام النوبتجية بنظافة الداخليات ثم تكليف البعض بنظافة فناء المدرسة ورش مبيد على مياه جدول صغير يمر بالمدرسة يسقى ماؤه بعض الزهور والأشجار.

أما جمعية المحاضرات والمناظرات فتقوم مرة كل أسبوعين بتقديم محاضرة أو مناظرة، المحاضرة تكون مكتوبة أما المناظرة غير مكتوبة مما يجعل المتناظرين يقومون: بالإعداد الجيد لما يقدمون من حجج.

وفي نهاية المناظرة يتم التصويت على الموضوعين المطروحين. ومرة كل شهر تعقد (ليلة قبعة Hat night) فتوضع قبعة وما كان أكثر استعمالها وسط المعلمين وموظفي الحكومة وبداخلها أوراق كتب عليها رؤوس موضوعات.

ويقوم سكرتير الجمعية باختيار طلبة من كل الفصول الأربعة بحيث يكون من نصيب كل طالب أن يدخل يده في القبعة ويختار موضوعاً يتحدث عنه ارتجالاً لمدة ثلاث إلى خمس دقائق وباللغة العربية الفصحى: والحديث باللغة العربية الفصحى يكسر حاجز اللهجات المحلية التي نأتي بها من كل أنحاء السودان.

وتثير ليلة القبعة الكثير من المرح ولكنها كانت ضرورية لكسر رهبة مواجهة جمهور الطلبة والتحدث في الاجتماعات ومواجهة المجتمع العريض فيما بعد.

وهناك جمعية الداخليات وهي تعني بالمرور على كل داخلية للتأكد أن الأدوات المنزلية المستخدمة في الأكل والشرب كاملة العدد وفي حالة طيبة وكذلك الأسرة والدواليب كما تتلقى الشكاوي عن (الطباخات) اللآئي يشرفن على إعداد الأكل كماً وكيفاً.

ويقضي مندوب من الجمعية كل مساء فترة ليتأكد أن متعهد توريد اللبن يصرف لكل داخلية الكمية المقررة.

هذه هي الجمعيات التي يديرها الطلبة إدارة مباشرة غير أن هناك جمعية هامة أخذت منها المدرسة اسم (الريفية) وهي نادي صغار المزارعين كما كانت تسمى. وبالرغم من أن لهذه الجمعية رئيس وسكرتير وأمين مال من الطلبة إلا أن الإشراف العملي والفني عليها من أحد موظفي مصلحة الزراعة ولقبه (الخولي) تقوم الجمعية على أساس أن للمدرسة أرضاً زراعية تتخللها ترعة رئيسية وجداول ري صغرى ومقسمة إلى حيازات كل منها تسمى (أنقاية) ويمنح كل طالب مساحة يزرعها قطناً وأخرى ذرة وتترك الثالثة (بوراً) أسوة بما هو معمول به في مشروع الجزيرة في ذلك الوقت من دورة زراعية ثلاثية: و(الخولي) زراعي بالخبرة يعمل في مصلحة الزراعة ويشرف على إحضار التقاوى ويراقب قيام الطلبة بالزراعة وبنظافة الحشائش و(شلخ) القطن.

ويتسلم الخولي القطن آخر الموسم من كل طالب وكذلك الذرة في سنابلها وتقوم المصلحة بعملية حليج القطن ونظافة الذرة وتحفظ حساباً منفصلاً لكل واحد من (صغار المزارعين) ويتراوح دخل الواحد منا في الموسم ما بين خمسين قرشاً إلى ثلاث أو أربع جنيهات في حالات نادرة حسب إنتاجه ويكون فرحاً وسعيداً يوم وصول الخولي وتسليمه المال

والكشف إلى لجنة نادي صغار المزارعين لتتولى الصرف. وقد كان لي شرف تولي منصب (أمين الصندوق) وأنا في السنة الرابعة.

خلال دراستنا كانت تتم انتخابات سكرتيري الجمعيات كل عام بانتظام ويشترك فيها كل الطلبة قدامى وجدد ويقوم الأستاذ المشرف على الجمعيات بوضع مواصفات لكل سكرتير غير أن أهم المواصفات التي يضعها لاختيار رئيس الجمعيات أو رئيس الجمعية العمومية والذي يدعو لاجتماعات مرتين أو ثلاثة في السنة ليعرض فيها لكل سكرتير أداء جمعيته ومناقشته ونقد الأعضاء له.

وفي إحدى المرات قدم أحد الطلبة وكان أديباً ومتحدثاً اسمه محمد أحمد إدريس وكنا رغم وسامته نلقبه (الجاحظ) تقدم باقتراح سحب الثقة من سكرتير جمعية الثقافة (عبد السائر محمد عبد السائر) لأنه تأخر في تحويل اشتراكات المجلات خاصة الطالب والتي كانت تحظى باهتمام الجميع لما فيها من مسابقات ومجلة المختار لما فيها من موضوعات متنوعة وحية.

دار النقاش طويلاً وأخيراً تم التصويت وفاز الاقتراح. وبفوزه كان على رئيس الجمعية العمومية وأذكر أن اسمه كان عبدالله قش. وكان على الرئيس أن يقبلها ويفتح باب الترشيح لسكرتير جديد بعد يومين غير أن عبدالله قش أعلن تضامنه وتضامن جميع سكرتيري الجمعيات مع زميلهم وتقدم باستقالته للجمعية العمومية.

وكان موقفاً صعباً وجديداً علينا وعلى المدرسة كما علمنا إذ إنها المرة الأولى في تاريخ المدرسة بل وفي تاريخ معهد بخت الرضا أن سحبت الجمعية العمومية الثقة من سكرتير وأن تستقيل كل (الوزارة) وسرعان ما تدخل الأستاذ المشرف على الجمعيات رحمة الله عبد الله

وأفتى، ربما إنقاذاً للموقف، أن القرار ينسحب على السكرتير وحده وأن يستمر الرئيس وجميع (وزرائه) في العمل.

وحتى لا يتم إنتخاب محمد أحمد إدريس أو غيره سكرتيراً للثقافة لا ينسجم مع المجموعة الموجودة طلب أن يكلف رئيس الجمعية العمومية أحد زملائه بتولي أمر جمعية الثقافة حتى نهاية الدورة، وقبلنا جميعاً رأي المشرف.

لقد كان ما حدث درس بليغ في الديمقراطية والمسئولية سواء كانت فردية أو جماعية وفي أول حصة لـ (أبو الفضل) كان الحديث عن ما حصل في الجمعية العمومية وأن كلا القرارين كان صحيحاً ولكن قرار المشرف أيضاً صحيح حفاظاً على الاستقرار في المدرسة.

وتذكرت ما حدث عندما سقط إقتراح ميزانية الدولة في الشهور الثلاثة الأولى للحكومة الوطنية التي جاءت بالاستقلال أن تقدم رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري رغم أنه لم يكن وزير المالية باستقالته للحاكم العام البريطاني والذي كلفه بإعادة تشكيل الوزارة مرة أخرى ففاز بثقة البرلمان. فالميزانية هي ميزانية (الحكومة) وليست قرار وزير المالية ولذا فإن سقوطها هو سقوط سياسة الحكومة المالية ويتوجب على الرئيس في النظام البرلماني الاستقالة.

وتذكرت نفس الموقف أيضاً عندما رفض لي البرلمان عام ١٩٧٤م اقتراحاً بإنشاء شركة وادي النيل لما وراء البحار فتقدمت باستقالتي من الوزارة وكعادة الرئيس جعفر نميري الذي لا يقبل الاستقالات فقد أعلن أنه أعفاني من الوزارة.

شركة وادي النيل ستكون موضوع فصل خاص إذا إمتد بي العمر لكتابة حقبة مايو ١٩٦٩م.

وتأكيداً للوضع (الريفي) للمدرسة فإن جميع الطلبة خارجيين وداخليين يقومون برحلتين كل عام إلى ريفي مدينة الدويم وينقسم الطلبة إلى مجموعتين: الداخليات الجنوبية ومعها داخلية المنفى ونصف الطلبة الخارجيين والداخليين والداخليات الشمالية ومعها داخلية العراء ونصف الطلبة الخارجيين.

ويشرف على كل مجموعة إثنان من الأساتذة وهما اللذان يختاران موقع الرحلة الذي يبعد في العادة وفي فصل الخريف حوالي عشرة كيلومترات من مدينة الدويم يحمل الطلبة على ظهورهم الخيام والبطاطين دون اللحفات واحتياجات الأكل من الكنتين كالعدس والفول والبصل والزيت والسكر والشاي والشطة والملح وباختصار كل شيء إلا الدقيق. أما في الشتاء فيبعد مكان المعسكر أكثر من ذلك.

وبعد الوصول إلى مكان المعسكر الذي يبعد حوالي كيلومتر عن قرية كبيرة من قرى مدينة الدويم مثل عد العود أو عرشكول (وهو اسم جبل) تبدأ المسابقة بين الداخليات في نظافة أرض المعسكر ثم في نظافة موقع الداخلية الذي تنصب فيه الخيمة.

ويبدأ الجميع في إعداد وجبة الإفطار كل في داخليته والتي غالباً ما تكون في أول يوم من العدس إلى أن يتم (بل) الفول ليسهل نضجه لوجبة أخرى. ثم يرسل الأستاذ المشرف إثنين من كبار الطلبة إلى القرية لإحضار الرغيف واللحم.

تعرف القرى التي يعسكر فيها طلبة الريفية أنهم يحتاجون السلعتين فينشط الجزار والفران في الاستعداد لأكثر من حاجة القرية إذ إن عدد الطلبة يكون حوالي ٦٠-٨٠ طالباً.

وبعد الإفطار تبدأ أول مسابقة يقودها الأستاذان وأحد رؤساء الداخليات من الطلبة لاختيار أنظف داخلية من حيث الخيمة والموقع والأواني المنزلية، ومن حيث النظام في

الطريق بين باحة المعسكر والخيمة وغير ذلك من المعايير التي تحكمها طبيعة منطقة المعسكر كالاستفادة من الأشجار الكبيرة ظلاً لها وهكذا.

وفي العصر بعد الغداء تكون هناك ألعاب رياضية: كرة قدم على خفيف/ ولعبة Rowonders (راوندرز) التي لا نمارسها إلا في الرحلات وتكون أول ليلة راحة من حيث النشاط ولكن تبدأ في الساعة العاشرة مساء (حراسة المعسكر) وحراسة (علم) الداخلية إذ إن لكل داخلية (علم) لا نتذكره إلا في المعسكر.

توقد النار وسط باحة المعسكر وينام الطلبة حولها إلاّ من أربعة من الحراس يتبادلون الحراسة كل ساعتين بترتيب سابق. وعلى بعد قريب من المعسكر يوجد معسكر للداخليات الأخرى يسير بنفس النظام. وفي حوالي الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً تبدأ عملية ما يعرف باسم (سرقة العلم) إذ يتسلل بعض الطلبة من أحد المعسكرين إلى المعسكر الآخر في لحظة يتوقعون فيها إما غفلة الحراس أو غفوتهم فيسرقون العلم الخاص بالداخلية ويعودون به إلى معسكرهم.

فإذا لم يلحظ الحرس الواقعة كانت الهزيمة التي تلاحق المعسكر ليومين أو ثلاثة على الأقل: إما أن يسترد خلالهما علمه المسروق ومعه بالطبع علم المعسكر الآخر لأنهما يكونان مرفوعين جنباً إلى جنب، أو يقوم الأستاذ المشرف باسترداد العلم ويكون في توبيخه لكل المعسكر درس لا ينسى.

غير أنه في معظم الأحيان يصحو الحرس أو بعض الطلبة بحركة التسلل وتبدأ مطاردة المغيرين، ومن يلحقون به يؤخذ أسيراً ولكن المطاردة تركز دائماً على حامل العلم

المسروق الذي يرمي به إذا شعر أنه سيقع أسيراً، في حالات نادرة يتم اشتباك وتبادل ضربات ولكمات.

وفي حالة واحدة وهي التي رويتها بالعقاب البدني الذي تعرض له طالب واحد طوال سنوات الدراسة قام الطالب المعني بحمل (عظم) سنين طعن به سارق العلم مما أدى إلى علاجه ثم العقاب الذي أشرت إليه في الحديث عن بخت الرضا.

وفي خلال ساعات النهار يكون هناك نشاط أدبي في تحرير مجلة أو اكثر للمعسكر من بعض الموهوبين وفي التدريب على أغاني ودوبيت وروايات تكاد تحضر في كل ليلة.

غير أن أهم ما تشمله الرحلة كل ليلة تقريباً تعريف الطلبة بأنفسهم لبعضهم البعض والتعريف بمناطقهم التي أتوا منها.فالرحلة هي الفرصة النادرة التي تجمع الطلبة من الداخليات والطلبة من الدويم ببعضهم البعض في جو بعيد عن الرسميات وفي إطار أخوي حقيقي إذ إنه حتى بعض طلبة الداخليات لا يلتقون مع بعضهم البعض مثلما يلتقون في الرحلات.

كما سبق القول فإن المدرسة كلها تقوم برحلتين أثناء العام الدراسي، واحدة في أواخر الشتاء، مارس والثانية في أواساط فصل الأمطار، أغسطس.

رحلة الشتاء مريحة ونعيش فيها أياماً مليئة بالحركة والنشاط دون مضايقة تذكر من الطقس. أما رحلة الخريف فيتخللها الكثير من المعاناة والتي قد تبدأ قبل أن تنصب الخيام:عاصفةً أو تراباً أو مطراً، أو الثلاثة مجتمعة.

وبقدر ما يتحمل أبناء دارفور وكردفان وأواسط السودان الأمر بقدر من الصبر لسابق معايشة بقدر ما يعاني أبناء الشمالية والدويم لأول خبرة.

ولكن بعد السنة الأولى فإن الجميع يتحملون نفس المشقة والأستاذ المشرف يراقب ويكتب الشكوى والتبرم خاصة من الجوع بسبب ابتلال حطب الحريق بالماء بل وأحياناً الكبريت.

وهنا تبرز الخبرة إذ غالباً ما يحتفظ ذووها بقدر من الحطب والكبريت في حرز بعيد عن البلل في الخيمة والداخلية التي بها مثل هذا النفر غالباً ما تمنح الجائزة الأولى في نهاية المعسكر حتى ولو لم يكن أداؤها الثقافي في التمثيليات أو جريدة (الحائط) متفوقاً بدرجة كبيرة فالأولوية هنا للاستعداد للحياة الريفية وليس للثقافة رغم أهميتها لأن مكانها الأول هو المدرسة.

وبما أن المدرسة قائمة على (التربية) التي يرعاها معهد التربية في بخت الرضا فإن الرحلات هي أيضاً مناسبة يرعى فيها الأساتذة المشرفون أبناءهم الطلبة ويوجهونهم ويدرسون أحوالهم وظروفهم ويكتبون عنهم التقارير الدورية التي تقرأ داخل كل فصل مع نهاية كل فترة دراسية، وهما فترتان في العام: نصفه وآخره، وترسل إلى أولياء الأمور.

فمدرسة الدويم الريفية الوسطى ليس بها نظام امتحانات: لا اختبارات ولا نصف سنوية ولا آخر السنة. المدرسة كلها قائمة على علاقة وثيقة بين الأستاذ في كل مادة ويشجع الآخرين للمزيد ويكتب عنهم التقارير آخر كل فترة وترسل إلى أولياء الأمور وينقل الطلبة آخر العام إلى الفرقة التالية.

هكذا كان أمرنا: لا توجد امتحانات، تشجيع في الاعتماد على النفس في النهوض بها أخلاقياً علمياً بل وفي الاعتماد على النفس أيضاً ما أمكن في الحصول على دخل سنوي يصرف

مرتين في العام من الزراعة التي يرعاها نادي صغار المزارعين ويشرف عليها (الخولي عبدالله) من مصلحة الزراعة.

هكذا كنا إلى أن جاءنا ناظر المدرسة محمد أحمد عبد القادر ونحن في نهاية السنة الرابعة، نهاية المرحلة الوسطى معلناً أن الإمتحان للمدرسة الثانوية- حنتوب- سوف يكون بعد شهرين.

وبما أننا طوال أربع سنوات لم نتعرض لأي امتحان، ولم نعش جو الامتحان فإنه سوف يقوم كل أسبوع بتجربة امتحان في جميع علوم ومواد الشهادة وهي اللغة الإنجليزية واللغة العربية والدين الإسلامي والجغرافيا والتاريخ والحساب.

وأخبرنا أنه سوف يحضر شخص اسمه (المراقب) من خارج أساتذة المدرسة ومعه ظرف مقفول به أوراق الامتحان ويفتحه أمامنا بحضور الناظر ويوزع علينا الأسئلة.

ولكل مادة زمن محدد للإجابة ولا يسمح للطالب بالخروج قبل منتصف الزمن، ثم يعلن المراقب أنه بقى من الزمن كذا دقيقة، غالباً نصف ساعة، ثم ربع ساعة، ثم خمس دقائق ثم توضع الأقلام Pens Down ولا يسمح بعدها بالكتابة ونقوم بتسليم أوراقنا للمراقب.

كانت الأسئلة كما علمنا من أسئلة امتحانات سابقة ولكن وجود أشخاص غريبين عنا في كل امتحان كان مصدر رهبة تساوي رهبة الجو الذي خلفته كلمة الامتحان فينا خاصة وأن أول مراقب كان مفتش المركز البريطاني بنفسه المستر فيلبس والذي جاءنا بعد حوالي أربعين عاماً سفيراً للمملكة المتحدة بالسودان.

وبعد الأسبوع الثالث زالت الرهبة وتعودنا على الامتحانات وأجوائها وعلى المراقبين وأشخاصهم ولم نعرف قدر ما أسداه لنا الناظر محمد أحمد عبد القادر إلا بعد أن

خضنا تجربة الامتحانات الحقيقية ووقف أمامنا لمدة خمس أيام متلاحقة أستاذ سوداني صارم كان في بخت الرضا ثم عاد منتدباً من مصلحة المعارف عرفنا فيما بعد أنه نصر الحاج علي الذي كان أول مدير سوداني لكلية الخرطوم الجامعية ثم جامعة الخرطوم.

وفي مناسبة سابقة ذكرت فضلاً آخر للناظر محمد أحمد عبد القادر عندما أخطر مدير معهد بخت الرضا ومدير مصلحة المعارف بالخرطوم أن (دفعتنا) لم تدرس قواعد اللغة الإنجليزية Grammar وأن هذا كان سبب تجربة حديثة في تدريس اللغة الإنجليزية أجريت علينا وطلب أن يراعى ذلك في تصحيح أوراقنا إذ إننا ليس لدينا خيار بين الأسئلة كما للطلبة الذين درسوا قواعد اللغة.

وقبل أن نغادر المرحلة الوسطى في ديسمبر١٩٤٧م لابد أن أذكر أننا احتفلنا في المدرسة صباح يوم بعيد النصر إذ أعلنت المانيا النازية أنها قد استسلمت للحلفاء: بريطانيا وفرنسا وأمريكا والاتحاد السوفيتي دون قيد أو شرط. كان ذلك في مارس ١٩٤٥م.

وبعد أسابيع كانت مدينة الدويم تموج بحركة غير عادية في نادي الموظفين وأن هناك خطباً وقصائد وحديثاً لم نتفهمه في وقتنا ولكن علمنا أن مؤتمر الخريجين بدأ يذكر حكومة بريطانيا بوعدها أن تعطي الاعتبار الكافي Due Considerationلمطالب السودانيين في الحرية بعد انتهاء الحرب وفي تقرير المصير.

كما علمنا أنه كان هناك لفت نظر من مفتش المركز لكل من الأستاذ محمد توفيق والأستاذ محمد جبارة العوض بسبب كلمات ألقيت في النادي. كما كان هناك عتاب رقيق للناظر محمد أحمد عبد القادر لأنه لم يؤاخذ أياً منهما. محمد توفيق سبقت الإشارة إليه ومعروف أكثر في الحياة العامة السودانية إذ أشرف بعد العمل الحكومي على إنشاء وإدارة

شركة التأمينات العامة ثم وزيراً للإعلام في حكومة انتفاضة أبريل ١٩٨٥م وكاتباً لعمود باسم: جمرات. أما محمد جبارة العوض فقد كان من أشجع وأنقى شباب الحزب الوطني الاتحادي وكان وزيراً في حكومة أكتوبر وتوفى مبكراً: عليه الرحمة واشتهر عندما تقدم قطاراً محملاً بالثوار من كسلا إلى الخرطوم دعماً للثورة في أكتوبر ١٩٦٤م ضد حكومة ١٧ نوفمبر.

محمد أحمد عبد القادر كان يهتم كثيراً بالمواصلة مع الطلبة ويزور الداخليات مرور الكرام كما يقولون قبيل صلاة الجمعة كل أسبوع يتحدث ألينا ويحثنا على اللحاق به في المسجد وتغاضى يوماً عن (رائحة الخمر) كانت في إحدى الداخليات بطلها إما عبدالله زكريا أو مهلب عبد الرحمن علي طه ابن نائب مدير بخت الرضا.

وفي الحالات التي يجد فيها الفرصة لمخاطبة المدرسة في حالة زيارة شخصية تربوية أو خلافها كان يشدد على نبذ القبلية وإعلاء كلمة أنا سوداني.

وفي مرة زار المدرسة معالي هدلستون باشا حاكم عام السودان وقد كان قبل ذلك القائد العسكري الذي كان على رأس قوة دفاع السودان وفتح دارفور عام ١٩١٦م وضمها إلى السودان (السودان الإنجليزي المصري) وقتل السلطان علي دينار رمياً بالرصاص وهو في مصلاته مستقبلاً القبلة.

قام هدلستون باشا بالمرور على الفصول وعند دخوله يقوم الطلبة احتراماً له ويلقى نشيد من أحد الفصول. وقد كان هناك طالب في الفصل الذي يسبقنا اسمه (مزمل سليمان علي دينار) وهو حفيد سلطان دارفور الذي قتله هدلستون باشا. وقد كان يعلم بوجود الطالب عند دخوله الفصل ولما جلس الطلبة بعد عملية القيام المعتادة نادى الناظر على مزمل بالوقوف فوقف.

تقدم منه الحاكم العام ومد يده إليه قائلاً السلام عليكم، لم يرد مزمل السلام ولم يمد يده نحو الحاكم العام الذي استقبل الحدث بالبرود الإنجليزي المعروف وغادر الفصل وترك مزمل واقفاً وعيناه تدمعان.

بعد أن ودع الناظر الحاكم العام عاد إلى الفصل وقال مخاطباً مزمل: عافى منك راجل ود أمير ود سلطان.

كنا نزور بخت الرضا مرة كل شهرين أو ثلاثة لحضور مناسبات ثقافية منها محاضرات قيمة من كوكبة من الأساتذة الذين تزخر بهم أو مناظرات شيقة أو روايات ذات مستوى عالٍ. أو مباريات تنظم بين الفرق بالدويم: الوطن والشباب وفرقة بخت الرضا. وفي عام ١٩٤٤م كان هناك احتفال غير مسبوق بالعيد العاشر لتأسيس معهد التربية في قرية بخت الرضا شمال الدويم إذ كان ذلك في ١٨ أكتوبر عام ١٩٣٤م : عام بعد ميلادي كما تقول شهادة تقدير عمري بأني من مواليد أول يناير ١٩٣٣م.

وقد دعى لحضور الحفل عدد كبير من خريجي بخت الرضا عن طريق(القرعة) ومعهم الأساتذة الذين أسسوا المعهد والذين جاءوا من بعدهم اللهم إلا من لم تمكنه ظروف قاهرة من الحضور.

وقد سرني مقابلة أستاذي بمدرسة النهود الأولية مهيد بانقا، والذي أشرت من قبل أنه كان يرتدي (الرداء والقميص) (تماماً مثل مفتش المركز البريطاني).

ولم ينس الأستإذ إن يسأل تلميذه عن مشاركته في الأنشطة والمسابقات العديدة التي زحمت أيام الاحتفال السبعة، وقد لامني عندما عرف أنني اشتركت فقط في مسابقة واحدة هي تقدير خمس دقائق من الزمن، وقام بتوجيهي أن المساهمة في النشاطات الحية والتي تبرز

شخصية الطالب تمثل نصف الدراسة في بخت الرضا وأنه علي أن أساهم مستقبلاً في أنشطة أكثر حيوية.

وهكذا لا ينسى المعلم خريج بخت الرضا تلميذه ولو لم يكن في مرحلته الدراسية وقد كان هذا بالفعل ديدن كل المعلمين في الماضي إلى أن جار عليهم الزمن.

وكان أبرز ما لفت نظري التمثيليات التي شارك فيها طلبة المعهد والمعلمون والخريجون والأستاذة الكبار أمثال عبد الرحمن علي طه نائب مدير المعهد. وكانت هناك مسابقة في الشعر بين الطلبة، وأذكر أن القصيدة التي فازت كانت للشاعر إدريس جماع وكانت عن استرداد مدينة كسلا من احتلال إيطاليا لها خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م):

جاء البشير مهللاً ومكبراً

كسلا إستردت بعد طول عراك

فسرى السرور على البلاد جميعها

كالكهرباء سرت بلا أسلاك.

وكما كانت هناك مسابقات في الشعر كانت أيضاً في النثر وفي الإلقاء شعراً ونثراً وفي العزف على آلة العود والتي كان فنانها الأول أحمد محمد فضل، المحامي فيما بعد، وعلى الصفارة: وهو أخ عباس محمد فضل نائب مدير البوليس وأول مدير سوداني لمصلحة السجون- والبروفيسور علي محمد فضل مدير جامعة الخرطوم- وابن خالة عبد الله زكريا.

غير أن رواية (هاملت) لوليم شكسبير والتي قام بتعريبها الأستاذ أحمد الطيب وكان منافساً في العبقرية لعبد الله الطيب لولا أن وافته المنية مبكراً. برز في هذه الرواية طالب في

السنة الأولى بمعهد التربية في دور (حفار القبور) وواصل تألقه في هذه الرواية للدرجة التي جعلت المعهد يرسله في بعثة لدراسة الدراما وفن المسرح، والطالب كان الفكي عبدالرحمن ونافست تمثيلية أخرى في إعجاب الجمهور الذي يتكون من الطلبة، والخريجين وبعض مواطني الدويم، والذين لهم ثقافة عالية بحكم وجود بخت الرضا معهم لعشر سنوات. نافست تمثيلية اسمها (الجريمة) قام بتعريبها والتمثيل فيها عبد الرحمن علي طه ومعه الأساتذة وخريجو المعهد القدامى يتقدمهم الأستاذ عبد الرحمن علي طه نفسه مخرجاً وصاحب دور رئيسي.

هذا ما كان من أمر المهرجان الكبير بمناسبة العيد العاشر ولكن المناسبة كانت أيضاً لقاء لعدة أجيال من المعلمين وفرصة لمراجعة شاملة لكل المناهج ولأساليب تلقي العلم ومدى تجاوب التلاميذ مع المواد قديمها ومستحدثها.

وقد علمنا فيما بعد أن المهرجان خرج بفكرة تشجيع ورعاية النبوغ بين طلبة المعهد الذين يفترض فيهم ان يتخرجوا بعد ست سنوات من الدراسة معلمين للمدارس الأولية.

وكانت أول فرصة لرعاية النبوغ تمثلت في الفكي عبد الرحمن وتبعها قرار هو أن يدخل فيمن يتوسم فيهم الأساتذة الذكاء والقدرة على مواصلة التعليم في المرحلة الثانوية، وربما بعدها في كلية غردون التذكارية، أن يدخل هؤلاء الطلبة امتحان المرحلة الثانوية وأن يمنحوا الفرصة إذا كانت درجاتهم في المستوى المطلوب دخول مدرسة حنتوب الثانوية وما بعدها وبشرط هام هو أن يعملوا بمهنة التدريس بعد تخرجهم سواء من المرحلة الثانوية أو ما يعادلها.

أذكر من هؤلاء النابهين عبد الوهاب موسى الذي وصل حتى المرحلة الجامعية وانتهى به المطاف نائباً لمصلحة العمل، وهناك محمد خير عثمان ثم عبدالله محمد آدم الذي التحق بالقوات المسلحة بعد المرحلة الثانوية ووصل إلى رتبة متقدمة في سلاح الإشارة، كان هناك الحلو عبد الله الخبير الزراعي الذي وافته المنية مبكراً وهو في بعثة لنيل الدكتوراه في الولايات المتحدة، وسيد أحمد نقد الله الأديب والسياسي والذي حرمه نشاطه السياسي من الاستمرار في التعليم الجامعي بالسودان فأكمله في ألمانيا الشرقية (في ذلك الوقت)، والعقيد (الجامعي) عبدالله محمد آدم أحد نوابغ سلاح الإشارة بالقوات المسلحة وفصل لأسباب سياسية.

ولعلكم تلاحظون أنه لم يلتحق أي من هؤلاء النابهين بمهنة التدريس إذ تخرجوا جميعاً من المرحلة الجامعية أو ما بعد المرحلة الثانوية مع حصول البلاد على الاستقلال السياسي في أول يناير ١٩٥٦م ورؤي، برحيل الموظفين البريطانيين، أن يستفاد منهم في مجالات غير التدريس.

وبالفعل لم يعد أي من نابغي بخت الرضا إلى معهدهم أو إلى المهنة التي كانت اختيارهم الأول وهم في سن الصبا ما عدا محمد خير عثمان ثم الفكي عبد الرحمن لفترة ثم واصل العلاقة مع التعليم في مجلة الصبيان التي كانت تصدرها مصلحة ثم وزارة المعارف وبالطبع ظل المسرح مسرحه في الحياة طوال عمره.

ذكريات مدرسة الدويم الريفية لا تنتهي، فهذه المدرسة شكّلت بأنشطتها المختلفة وأسلوبها في الحياة شخصية كل من أتى للدراسة فيها. ولكن هل من كان تلميذاً فيها قد أتى

باختياره؟ طلبة كردفان ودارفور والجنوب بل وكل المديريات الأخرى جاء معظمهم إن لم يكن كلهم بقرارات سياسية أو قل إدارية.

وإذا كانت أصابع مفتشي المراكز البريطانيين لم تكن واضحة في كل الحالات إلاّ أن حالة واحدة كشفت المستور، ففي الفصل الثاني من المرحلة الدراسية وقد كنا في السنة الثالثة افتقدنا أحد زملائنا من طلبة السنة الرابعة ألا وهو سليمان مصطفى أم برو، وكما يدل الاسم فهو من قرية أم برو مركز كتم في دارفور، وفي نفس الوقت انضم إلينا في مكانه محمود بشير جماع من نفس المركز.

وقد علمنا أن ناظر المدرسة أرسل إلى مفتش كتم يسأله عما إذا كان يوصي (والتوصية أ أو ب أو ج) على التلميذ سليمان أم برو بالمواصلة في الدراسة بمدرسة حنتوب أم لا، وإذا كانت التوصية بالإيجاب هل هي أ أم ب أم ج.

كان رد المفتش أن طالب المدرسة الريفية الوسطى في سجلاته هو محمود بشير جماع وليس سليمان أم برو وإذا كان هناك خطأ يجب تصحيحه على الفور بإلحاق محمود بشير جماع بالمدرسة الريفية لكي يجلس لامتحان المرحلة الثانوية في حنتوب بتوصية من الدرجة (أ).

أما سليمان أم برو فمن المفروض أن يكون من البداية في معهد التربية ببخت الرضا وعليه يرسل للالتحاق بالمعهد في المكان الذي كان يحتله بشير جماع بالخطأ.

وهكذا كسبت البلاد معلماً وشيخاً ورعاً هو سليمان أم برو بتخرجه من بخت الرضا كما كسبت مهندس ري مقتدر هو محمود بشير جماع.

ويروى عن سليمان أم برو أنه صفع أحد أمراء المملكة العربية السعودية قبل أن يغادرنا إلى بخت الرضا.

ولعل في وجود سليمان أم برو في أي مدرسة يرتبط دائماً بحدث ليس له سابق مثيل، إذ أعلن طلبة السنة السادسة في بخت الرضا في النصف الثاني والأخير من دراس قبيل تخرجهم معلمين أعلنوا (الإضراب)، والكلمة لم تكن متداولة في ذلك الوقت في وسط عمال السكة الحديد في عطبرة إذ أعلنوا إضراباً مفتوحاً عام ١٩٤٦م ما لم يتم الاعتر بهيئة عمال السكة الحديد الجسم النقابي الذي لم يسمح لهم بقيامه بحجة عدم وجود قانو ذلك الوقت ينظم العمل النقابي.

ما يهمنا أن سبب إضراب طلبة سنة سادسة كما كانوا يسمون هو أن تعدل مرتب عند التخرج من ٤.٥ جنيه في الشهر إلى ستة جنيهات.

اهتزت كل بخت الرضا: العميد ونائبه وهيئة التدريس ورجالات الدويم ولاب الخبر قد هز أيضاً مصلحة المعارف والحكومة في الخرطوم فحضر على الفور وفد عال، يقولون، من المصلحة وانضموا إلى قيادة المعهد ومفتش مركز الدويم والثلاثة الكبار أعيان الدويم الخليفة الحسن والد سر الختم الخليفة، وعبدالقادر كريم الدين، ومحمد حمو والد صفية زوجة الدكتور خليل عثمان.

وعندما لم تصل المفاوضات إلى حل مقبول بسبب الحالة المالية للحكومة وأن ا المطالب به ليس له اعتماد في الميزانية، كما أن قبول المطلب سيقود إلى مطالبات من جه أخرى على رأسهم كل المعلمين خريجي كلية غردون.

في نهاية المطالب تقدم رجال الدويم الثلاثة باقتراح هو أن يقوموا بمقابلة المرتبات بين الست جنيهات والأربعة والنصف إلى أن تستطيع الحكومة وضع الا في الميزانية.

وقد شكر وفد الخرطوم وقيادة المعهد أريحية رجال الدويم واعتذروا عن قبول العرض لنفس الأسباب التي رفضوا بها قبول المطالب.

وفي الموكب الحزين الذي ودعت فيه الدويم طلبة سنة سادسة بعد أن تم فصلهم خطب فيه نائب العميد عبدالرحمن علي طه أنهم ليسوا طلبة صغاراً لا يعون حجم قرارهم ولا حجم مسئوليتهم لأنهم على وشك التخرج ليكونوا قيادات للمجتمعات التي سوف يذهبون للتدريس فيها.

ثم أخطرهم أن المعهد سوف يعلن إلغاء فصلهم بعد شهر أو شهرين وسيطلب منهم العودة لاستكمال الدراسة والتخرج بنفس المرتب.

وهو لا يتوقع أن يعود منهم نفر إذا كانوا فعلاً واعين للقرار الذي اتخذوه، ومن لم يعد منهم يمكن اعتباره الطالب المثالي الذي حرصت بخت الرضا على تربيته، وقد علمنا فيما بعد أن العدد الذي عاد كان قليلاً للغاية.

كما علمنا بعد فترة أن إثنين من ذلك النفر هاجرا إلى نيجيريا، وهي بعد مستعمرة بريطانية كالسودان، وتنظر الإدارة البريطانية فيها بكل احترام إلى ثلاثة تجارب سودانية: المساعد الطبي، معهد التربية ببخت الرضا والإدارة الأهلية.

افتتح المهاجران الإثنان مدرسة أولية بها تجربة لتدريب معلمين لمدارس صغرى، وتطورت حتى أصبحت قبلة لكل من يريد لابنه: تعليماً وتربية، وسارت على غرار مناهج بخت الرضا.

أحد المهاجرين الإثنين اسمه الفاضل وكنا ندعوه الفاضل أبو سروال لأنه كان يرتدي سروالاً طويلاً مثل (الناس كبار السن) على عكس الطلبة والتلاميذ الذين كانوا يرتدون سراويل أقصر.

وقد أكد لي أحد أعضاء الوفد السوداني الذي زار نيجيريا مهنئاً بالاستقلال أن (بخت الرضا لا تزال قبلة الجميع).

وظلت تجربة معهد التربية في بخت الرضا تجذب اهتمام رجال التربية في أفريقيا وفي نيجيريا، وكذلك في الجزيرة العربية كما أسلفت.

وهناك معلمون في اليمن ومكوناتها السياسية وفي الصومال كانوا محط الأنظار إلى وقت قريب. ولعل أكبر الدول التي أثارتها تجربة بخت الرضا التربوية وأن لم تأخذ بها لرسوخ النظام الفرنسي بها هي مصر.

وكان عميد رجال التربية في مصر: محمد عطية الأبراشي يداوم بانتظام على زيارة المعهد ويتداول الخبرات مع رجاله.

وفي يوم أخبرنا الناظر محمد أحمد عبد القادر أن المدرسة سيزورها غداً وزير المعارف في مصر الدكتور عبد الرازق السنهوري باشا: مارس ١٩٤٦م (خبير القانون الدستوري) استعدت المدرسة وتم اختيار الطالب الشيخ التجاني من جزيرة مقرات ليقرأ درساً من كتاب المطالعة.

ويتميز التجاني بطول فارع وصوت جهوري ومخارج واضحة للصوت والكلمة مما أهله فيما بعد الالتحاق معلماً في بخت الرضا.

بعد الزيارة خطب الدكتور سنهوري مهنئاً بالمستوى الرفيع وتبرع لنا بمائة كتاب من تأليف كبار أدباء مصر: شعراً ونثراً وروايات فقرأنا لكل من طه حسين وعباس محمود العقاد وزكي مبارك وتوفيق الحكيم وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي محمود طه وأحمد أمين وغيرهم، منهم من لم نفهم ما حوته كتبه إلاّ بعد أن تخرجنا من المرحلة الثانوية.

غير أن سنهوري باشا كان من السياسيين المصريين البارزين والحجة في القانون الدستوري، وهو من الأحزاب التي عرفت في مصر باسم أحزاب الأقلية التي انشقت من حزب الوفد بقيادة مصطفى النحاس باشا وعرفت بأن لديها قيادات على مستوى عال من الكفاءة السياسية والوطنية النظيفة التي لم تتهم بالفساد غير أنها أحزاب ليس لديها جماهير وتتعاون دوماً مع الملك عندما يختلف مع حزب الأغلبية، حزب الوفد، ويكلفها بتشكيل الحكومة.

وقد نجحت قيادات تلك الأحزاب المتمثلة في إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء عام ١٩٤٧م في انتزاع اعتراف بريطانيا بحق مصر في السيادة على السودان وكان ثمن ذلك خروج القوات البريطانية من المدن المصرية وعلى رأسها القاهرة مما كان يعرف بثكنات قصر النيل، المكان الحالي لفندق هيلتون النيل في ميدان التحرير والانتشار على شريط قناة السويس باعتبار أن هذه القوات لم تعد قوات احتلال وإنما قوات صديقة ولديها مسئولية دولية في حماية قناة السويس (من الاتحاد السوفيتي وقتها) وفي تأمين الملاحة في القنال.

وهذا بالإضافة إلى الموافقة النهائية على رقم المديونية البريطانية لمصر ووضع إطار لسدادها. وهي مديونية نشأت خلال سنوات الحرب العالمية الثانية.

عندما انتهى صدقي باشا من هذه الإنجازات عاد من بريطانيا ولما سألته الصحافة عن نتيجة المفاوضات وما جاء به من بريطانيا للشعب المصري قال كلمته الشهيرة(جئتكم بالسيادة على السودان) وهي الكلمة التي أطلقت الشرارة في قلب الإمام عبدالرحمن المهدي ولأول مرة عبأ الأنصار وأخرجهم بقيادة عبدالله عبد الرحمن نقدالله في أكبر حشد يهتف بسقوط مشروع صدقي، بيفن(وبيفن هو وزير الخارجية البريطاني الذي وقع الاتفاق بالأحرف الأولى مع صدقي باشا) ويهتف عاش السودان حراً مستقلاً.

فوجئت الإدارة الحكومية في السودان بكلا الحدثين: مشروع صدقي- بيفن، والسرعة والقوة التي خرج بها الأنصار وخرج بها الإمام عبد الرحمن عن أسلوبه الذي عرف به في إبلاغ رأيه للحكومة.

وبتصاعد الغضب الأنصاري وغضب إدارة الحكم الثنائي للسودان والتي لم تتم استشارتها تراجع المفاوض البريطاني ومات المشروع وماتت معه السيادة المصرية إلى الأبد.

نعود للسنهوري باشا الذي وظف زيارته للتواصل مع قيادات الأحزاب التي كانت تدعو لعلاقة مع مصر تتراوح ما بين الكونفدرالية والفدرالية والتعاون والوحدة ذات الأبعاد والوحدة الكاملة.

غير أن أهم ما خرجت به الزيارة هو تنظيم هجرة الطلبة السودانيين للدراسة في مصر إذ كان الطلبة أفراداً وجماعات تذهب إلى مصر بمبادرات فردية وأخرى يرعاها علي بك البرير من رجالات أسرة البرير السودانية والذي يعمل بالتجارة في مصر والذي أسدى كل الخير لكل طالب علم وصل إلى مصر وإلى كل سوداني قصده في عمل أو علاج، وهو والد

فاروق البرير قطب حزب الأمة وصهر السيد عبد الله الفاضل المهدي في نعمات أصغر شقيقات مبارك الفاضل المهدي.

وقد أطلق على عملية ذهاب الطلبة السودانيين للدراسة بمصر اسم (بعثة الملك فاروق) وخصصت للطلبة الوافدين للجامعات ثلاثة منازل عرفت كل منها باسم (بيت السودان) كما وضع نظام للدارسين بالمدارس الثانوية تركز أساساً في مدرسة حلوان.

وبالمثل تم تطوير ومساعدة نظام الدارسين بالأزهر الشريف الذي كان يعتمد أساساً على (الأوقاف) التي جاء بها سلاطين الحكم في السودان جرياً على السنة الإسلامية منذ مملكة سنار، وسلطنة الفور، وصارت تصرف للدارسين السودانيين مبالغ عالية مقارنة بالمرتبات ومستوى المعيشة في مصر.

ومن المفارقات أن الطالب الجامعي الذي ينجح بدرجة (جيد) فما فوق يمنح إذا كان يسكن خارج (بيت السودان) منحة شهرية تساوي أربعة عشر جنيهاً مصرياً في حين أن خريج الجامعة من مصر يتقاضى إذا تم تعيينه في وظيفة حكومية إثنى عشر جنيهاً ونصف.

ومع ذلك كانت الهجرة للدراسة في مصر لم تشهد ازدهاراً إلاّ بعد قيام الثورة المصرية في ٢٣يوليو ١٩٥٢م. وذلك لما كانت تشهده مصر من نشاط سياسي استقطب الطلبة السودانيين بالذات من كلا اليمين(الأخوان المسلمين) واليسار (الحركات الشيوعية المتعددة) وملاحقة البوليس السياسي، الأمن لاحقاً، للمنضمين أو المشتبه بانضمامهم أحياناً إلى الحركات السياسية اليسارية أو إلى جماعة الإخوان المسلمين بعد خصامهم مع الملك ومحاولة اغتياله الفاشلة فقام أعوانه،كما شاع وقتها، باغتيال إمام الجماعة الشيخ حسن البنا ثم الرد

العنيف من جانب الإخوان المسلمين باغتيال القاضي الخازندار الذي حاكم مجموعة من الأخوان المسلمين ومتابعة اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء ثم النقراشي باشا و... و...

وقد ذاع فيما بعد أن أحد المشاركين في الاغتيالت اليوزباشي، النقيب، محمد أنور السادات وحسين توفيق ابن أحد الباشوات والذي روى قصة مشاركته في تلك الأحداث إحسان عبد القدوس في رائعته (في بيتنا رجل) والتي أصبحت فيلماً سينمائياً قام فيه بدور حسين توفيق الممثل عمر الشريف وقام والد إحسان الممثل المخضرم محمد عبد القدوس بدوره هو في الحياة.

نعود إلى مدرستنا :

عند الوصول إلى السنة الرابعة في مدرسة الدويم الريفية الوسطى يستعد الطلبة لرحلة بورت سودان وهي رحلة يقوم بها طلبة السنة الرابعة في إجازة نصف السنة ويقومون بالتدريب لتمثيل رواية كل عام أمام مواطني بورتسودان برعاية المدرسة الوسطى هناك.

ونظل نحسب الأيام حتى اليوم المشهود للسفر بالباخرة إلى الخرطوم ومنها بالقطار إلى بورتسودان يصحبها ثلاثة أساتذة أجلاء هم عبد العزيز عبدالله أو(دبل عين ع . ع) كما كان يوقع ونسميه وهو أستاذ اللغة العربية والدين ومن سكان مدينة الدويم وكان كما أسلفت أحد الضباط في ثورة ١٩٢٤م وكان عقابه الفصل من الخدمة.

والأستاذ إبراهيم محمد علي نمر، محافظ بنك السودان فيما بعد، والأستاذ حسن عباس، ويتقدمهم الناظر محمد أحمد عبد القادر.

كانت الرحلة تجربة غزيرة بالمعلومات رأينا فيها لأول مرة ما كنا نسمع عنه من البواخر التجارية وحديقة الشُعب المرجانية والمطار الذي حطت فيه طائرة للخطوط الجوية

السودانية عند إنشائها عام ١٩٤٧م. وسوق بورتسودان الذي كان فيه ما لا عين رأت في سوق الدويم أو الأبيض علماً بأننا لم نتجول في سوق الخرطوم أكثر من المحطة الوسطى وحلواني اسمه City Cream Center C.C.C يبيع الآيسكريم كان في موقع طيران الإمارات حالياً.

كانت رحلة منبع المياه في ضاحية (أربعات) خاتمة لأيام سعيدة عشنا فيها يوماً كاملاً مع زملائنا من طلبة السنة الرابعة في مدرسة بورت سودان الوسطى والذين التقينا ببعضهم فيما بعد في حنتوب منهم محمد محمد الأمين باكاش وعبدالرحمن عبده، القاضي الذي حاكم عمر محمد الطيب في قضية الفلاشا.

وقد تعرفنا على الشاعر حسين بازرعة ولم تكن شاعريته الغنائية والفنية قد ذاعت. وفي فترة الاستراحة في التمثيلية التي قدمناها وهي (علي بك الكبير) للشاعر أحمد شوقي وباللغة العربية الفصحى قدم طلبة بورت سودان (منلوج) وعزفاً على العود أسوةً بما حدث في ليالي بخت الرضا.

غير أن المفاجأة هي أننا في آخر ليلة دعانا أستاذنا (دبل عين) على حسابه ومعنا بعض زملائنا من مدرسة بورت سودان إلى مشاهدة فيلم اسمه (النائب العام) في سينما بورت سودان بطولة زكي رستم وإسماعيل يس.

ولا يمكن وصف سعادتنا إذ إن بعضنا شاهد السينما لأول مرة وظل بعضنا يقلد إسماعيل يس في المنلوج الذي ألقاه أثناء الفيلم وسكتنا جميعاً ونحن في بداية سن المراهقة عن إعجابنا الخفي بالراقصة التي هزت وسطها وأوساطنا في الفيلم.

وكانت هذه التجربة بداية لمواصلة لنا في دخول سينما كردفان بالأبيض كلما أسعدنا الحظ وقضينا ليلة في تلك المدينة في طريق ذهابنا أو عودتنا من الدويم ثم حنتوب فيما بعد.كانت مصلحة المعارف تهيئ دوماً رحلات للطلبة في كل مرحلة أو نهايتها ليس فقط للتعرف على البلاد بل وعلى ساكنيها والطلبة كزملاء لبعضهم إن لم يكن اليوم ففي المستقبل.

وهو أمر أحوج ما يكون السودان له اليوم وخاصة بعد أن عادت الجهوية والقبلية للحياة العامة واللتان اجتهد مؤتمر الخريجين وجاهد في القضاء عليهما أو على الأقل في جعلهما أمراً بغيضاً لا يتشرف بذكره السودانيون.

جلسنا لامتحان الدخول للثانوية في ديسمبر ١٩٤٧م اثناء فترة الإجازة بالنسبة لبقية الطلبة ولم يكن في الداخليات العشر سوى طلبة السنة الرابعة.

وفي أسبوع انتهينا من الامتحان التحريري ودخلنا واحداً بعد الآخر في الامتحان الشفوي وكانت الأسئلة تبدأ بالمنطقة التي جاء منها الطالب وأفضل ما وجده في المدرسة، وفي الدويم، ثم رأيه في أي امتحان كان أصعب وأخيراً ماذا سيفعل إذا لم يقبل في مدرسة حنتوب الثانوية: وقد كانت الأسئلة والإجابة باللغة الإنجليزية إلا لمن يعجز.

وقد نبهنا الناظر محمد أحمد عبد القادر إلى أن الإجابة على السؤال الأخير تكون بطلب (الإعادة) والإصرار على مواصلة التعليم بالرغم من أن بعضنا فضل الالتحاق بمدرسة الدويم الثانوية الصغرى، أو بخت الرضا حتى يتخرج بمهنة.

الفصل الخامس
المرحلة الثانوية
يناير ١٩٤٨م - ديسمبر ١٩٥١م
حنتوب الثانوية

جاءت حنتوب، ووادي سيدنا نتاجاً لتقسيم المدرسة الثانوية الوحيدة في السودان، مدرسة أم درمان الثانوية عام ١٩٤٦م إلى مدرستين ثم أضيفت مدرسة ثالثة في خور طقت بكردفان عام ١٩٤٩م.

قامت حنتوب في الشاطئ الشمالي لمدينة واد مدني على أرض تبرع بها الشيخ أحمد أبوزيد. ليس ذلك فحسب بل كان بالأرض بستان مثمر على حوالي عشرين فداناً عرف باسم (جنينة ود أبوزيد) وقد استوعبت الأرض مباني فصول المدرسة العشرين ثم غرفة للمكتبة وأخرى للتاريخ وثالثة للعلوم ورابعة للفنون، بالإضافة إلى قاعة اجتماعات أمامها (مصطبة) تستخدم كمسرح عند اللزوم يليه ميدان فسيح مزروع بالنجيلة يجلس عليه الطلبة كل يوم دراسة قبيل الإفطار في الاجتماع اليومي مع ناظر ومعلمي المدرسة للاستماع إلى ما يستجد كل يوم عن برامج رياضية واجتماعية، وأوامر مدرسية.

وفي شرق المدرسة ومباني الداخليات منازل لكل معلمي المدرسة، ونادي يرتادونه مساء. ألا رحم الله حاج أحمد أبوزيد الذي لا يذكره أحد عند الحديث عن التعليم وعن حنتوب. ابنه رجل القانون (محمد) رئيس جهاز المظالم (٢٠١١م).

دخلنا حنتوب، نحن أبناء الدويم الريفية، أكثر نضجاً من كثير من زملائنا من المدارس الأخرى الذين لم تكن لهم تجربة في حياة الداخلية في البيئة الريفية بل وجدنا آخرين شبه تائهين خلال الشهور الأولى لأنهم لم يغادروا منازلهم إلا إلى المدرسة ثم العودة للمنازل. لم يختلطوا بطلبة خارج الفصول ولم يسافروا من مناطقهم إلى أماكن أخرى: لا باللواري أو القطار أو (وابور البحر).

نظام الدراسة في حنتوب يقوم على الانضباط الدقيق في المواعيد لكل منشط. دفعتنا التي بدأت الدراسة يوم ٢ يناير ١٩٤٨م وانتهت يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١م بعد أن أدت امتحان (شهادة جامعة كيمبردج) مكونة من ١٥٠ طالباً موزعين على خمسة فصول بأسماء مشاهير. في السنة الأولى كانت الأسماء: نيوتن، ابن سينا، شكسبير، سقراط وكولومبس. وطلبة الفصل لا يزيدون عن ثلاثين طالباً. ومن وعت الذاكرة أسماءهم وأحياناً أسماءهم و (ألقابهم) ألا رحم الله الأموات والأحياء وهم:

حنتوب: يناير ١٩٤٨م – ديسمبر ١٩٥١م:

١- عبدالله الطاهر بكر
٢- صالح محمد عبدالله (كرناف)
٣- فــؤاد التوم
٤- مهلب عبدالرحمن علي طه
٥- مصطفى محمد سعيد (مخازن)
٦- عباس مكي مدني
٧- معاوية حسن فريجون
٨- عبدالله إمام
٩- عبدالله حسن (أنكل)
١٠- عابدين حسن عابدين
١١- عبدالرحمن لطفي
١٢- عبدالله محمد حيدوب

١٣- أحمد خليل (قلبها)

١٤- أحمد عثمان بلال

١٥- الريح عثمان موسى

١٦- عامر محمد صالح

١٧- إبراهيم منعم منصور

١٨- بكري حسن أبو

١٩- أحمد علي الطيب (قندران)

٢٠- أحمد عبدالحليم محمد (فصل لأسباب سياسية ولم يكمل معنا)

٢١- عمر حسن جحا

٢٢- عثمان عبدالرحيم (القائد الفعلي للإضراب ١٩٥١م)

٢٣- بدرالدين إبراهيم أحمد

٢٤- محمد عثمان أبو زيد

٢٥- الشيخ محمد أحمد أبوعصايا

٢٦- مكي المرضي إمام

٢٧- إبراهيم أحمد بابكر (قردين)

٢٨- شريف الدشوني

٢٩- بخاري عبدالله الخضر

٣٠- أحمد ناصر محمد الشيخ

٣١- عبدالله زكريا

٣٢- أحمد أيوب القدال

٣٣- عثمان صالح أحمد

٣٤- مالك حيدوب

٣٥- مأمون يوسف

٣٦- حسن خليفة

٣٧- عبدالرحمن سالم

٣٨- محمد أحمد حسن عبدالجليل (توني)

٣٩- حسين محمد علي

٤٠- حميدة محمد الهادي (أبو عشر)

٤١- نصر الدين المبارك

٤٢- إبراهيم حسن أبو حسنين

٤٣- محمد بشار أحمد

٤٤- آدم عبدالله

٤٥- إبراهيم أحمد يوسف علقم

٤٦- عثمان محمد عبدالنور

٤٧- الشيخ أحمد الشيخ

٤٨- جعفر المبارك

٤٩- زكريا واني

٥٠- سبيل أبكر

٥١- عبدالرحمن حامد خليل (شارلس ديكنز)

٥٢- محمد أحمد عبدالرحمن

٥٣- عمار محمد عمار (لم يكمل لأسباب أسرية)

٥٤- ميرغني عبدالرحمن شيبون (لم يكمل لأسباب أسرية)

٥٥- يوسف سليمان أحمد

٥٦- إبراهيم صالح علي

٥٧- مبارك حسن أزرق

٥٨- كودي الدومة

٥٩- حسن إبراهيم حسين (حسن التاج)

٦٠- شوقي حسب الله ملاسي

٦١- بخيت حامد (ود الريس)

٦٢- بابكر محمد أحمد الخواض

٦٣- مبارك عثمان (الخالقها)

٦٤- عبدالله دفع الله

٦٥- الطاهر العبيد أحمد

٦٦- محجوب بابكر سوار الدهب

٦٧- محمد محمد الأمين باكاش

٦٨- عمر بشير

٦٩- عبدالله عثمان أوهاج

٧٠- حسن عبدالله الترابي (امتحن من السنة الثالثة للجامعة)

٧١- موسى عوض بلال

٧٢- محمد عبدالله رمضان (جنقوز)

٧٣- عبدالباسط بحيري

٧٤- كمال الدين عباس (ود العجوة)

٧٥- محمد أبولكيلك

٧٦- موسى محمد صالح (موسى الطويل)

٧٧- عبدالوهاب سليمان (ثلاجة) (فصل لأسباب سياسية)

٧٨- إبراهيم حامد

٧٩- حسن حمزة هيبة

٨٠- بابكر عيسى (شنكل)

٨١- صلاح توفيق

٨٢- موسى محمد نور

٨٣- بشير يوسف العجب

٨٤- جعفر علي (جاسبر)

٨٥- عبدالرحمن عبده (القاضي الذي حاكم عمر محمد الطيب في قضية الفلاشا)

٨٦- عوض إدريس

٨٧- أحمد علي محمد خير

٨٨- حمد عبدالرحمن (لم يكمل لأسباب أسرية) وقد كان من أذكى أبناء الدفعة)

٨٩- المهدي الفحل سنة أولى فقط وانتقل إلى وادي سيدنا)

٩٠- محمد حسن أبو ضلع

٩١- عبد الله علي صالح (السنجك)

٩٢- بابكر عبدالرازق

٩٣- الحاج حسين

٩٤- عباس عبدالسلام البوشي (بعبوشي) لقبه به الأستاذ عبدالحليم على طه

٩٥- إسماعيل منعم منصور(تركنا بعد السنة الثانية مساعداً إدارياً لوالده)

٩٦- محمد أحمد الحاج (ود الحاج)

٩٧- سيد عثمان

٩٨- إبراهيم جاد الله

بادر الإخوة بكري حسن أبو وعبدالله الطاهر بكر وعبدالرحمن لطفي بالدعوة إلى لقاء كل ثلاثة شهور استضافه لأول مرة عبدالرحمن لطفي بداره العامرة ثم رؤي أن نلتقي في مزرعتي جنوب الخرطوم ولا زلنا نواصل اللقاء في مودة وصفاء.

وقد انضم إلينا بعد فترة أحمد عبدالرازق على طه من الدفعة التي سبقتنا وتخرج في ديسمبر ١٩٥٠م. وقد كانت هذه الدفعة تلتقي بانتظام شهرياً في مزرعة عثمان أبو كشوة في ضاحية (بتري) ويلتقي معهم ابن دفعتنا الذي سبقنا ليلتحق بكلية الحقوق حسن الترابي. وكان واسطة العقد بينهم الطيب سيف الدين إذ كان بمثابة السكرتير: يذكر بموعد اللقاء ويجمع الاشتراكات، وبوفاته ثم توعك عثمان أبو كشوة تواصل معنا أحمد عبدالرازق ثم (العم) الدرديري إبراهيم. لم يفكر الترابي في اللقاء معنا كما لم نفكر نحن في دعوته - بالعكس رأينا

أن ندعو إثنين من أول دفعة تخرجت من حنتوب عام ١٩٤٦م وهما: محجوب محمد صالح – ودكتور أبو حسن أبو ثم أحمد علي بقادي – وكذلك عمر إمام الذي تخرج بعدنا في ديسمبر ١٩٥٢م.

عبدالرحمن لطفي كان يقوم بأعمال السكرتارية في تحديد مواعيد اللقاء وجمع الاشتراكات ونشر النعي لمن يفارقوننا إلى رحاب الله، وبسفره للعلاج عدة مرات تولى المهمة الشاقة باقتدار وطول بال عبدالله حيدوب.

وعند دخولنا حنتوب في أول يناير ١٩٤٨م كان عدد الداخليات ستة: أبو عنجة، النجومي، ود ضيف الله، دقنة، الملك نمر وفي العام التالي تم زيادة الداخليات إلى ثمانية بإضافة أبو لكيلك وعلي دينار وذلك لاستيعاب الطلبة المقبولين بالمدرسة الثانوية الثالثة التي أنشئت في كردفان وعرفت باسم خورطقت والتي لم تكتمل مبانيها بعد. وغادرونا بعد سنة وازداد عددنا بحوالي الثمانين طالباً جديداً.

بدأت في سنة أولى (نيوتن) وكنت زميلاً لكل من يوسف سليمان أحمد، جعفر علي، الشيخ محمد أحمد أبو عصايا، بخيت حامد (ود الريس)، عبدالباسط بحيري، عبدالله على صالح، عبدالرحمن حامد خليل (لقبناه باسم Charles Dickens)، المهدي الفحل وقد غادرنا في منتصف العام إلى مدرسة وادي سيدنا رغم أنه (ألفة الفصل) آدم عبدالله، شريف الدشوني، إبراهيم صالح علي، محمد عبدالله رمضان وكنا نلقبه (بـJingos) على شخصية في كتاب مارك توين Tom Sawyer. وزميل اسمه حمد وقد كان في غاية الذكاء غير أن وفاة والده الفجائية أجبرته على ترك الدراسة من السنة الثانية والالتحاق بمصلحة البريد والبرق، وقد أسفنا

جميعاً على فراقه الذي لم نكتشفه إلا في منتصف العام الثاني. وبالمثل أفقدنا اليتم المفاجئ زميلاً آخر هو عمار محمد عمار.

هذا ما كان من أمر الفصل. أما أبناء الدفعة وتجد أسماءهم في بداية هذا الفصل فأذكر منهم ميرغني عبدالرحمن شيبون، أخ الشاعر محمد والذي ترك المدرسة بعد وفاة أخيه الشاعر والتحق بمصلحة الاقتصاد والتجارة والتي قابلته فيها بعد تخرجي من الجامعة في يونيو ١٩٥٦م وكان خير عون لي إذ كان باشكاتب قسم ثم دارت الأيام وكان سكرتير الوزير إبراهيم منعم منصور في١٩٧١م.

ومن أبناء الدفعة البارزين عبدالله زكريا إدريس إذ كان الأول في النقل من أولى إلى ثانية حنتوب وحسن عبدالله الترابي الذي كان أول السودان في امتحان الشهادة الوسطى ثم تقدم وهو في نهاية السنة الثالثة بحنتوب للامتحان لشهادة كيمبردج وحصل على الدرجة الأولى التي أهلته لدخول كلية القانون والتي كان القبول فيها سنة بعد سنة تجنباً لخريجين لا تحتاج إليهم البلاد، ونصر الدين المبارك، وعبدالله حيدوب، وعبدالله الطاهر بكر الذي التحق فيما بعد بالكلية الحربية والذي ما أن استقرت ثلاث (دبورات) على كتفه حتى دفعته روح القيادة إلى المشاركة في انقلاب (البكباشي علي حامد) وكاد أن يطاح برأسه لولا العناية التي منحته ثلاث سنوات سجناً، سنة عن كل دبورة.

كما ذكرت في موضع آخر فإن مصلحة المعارف كانت تضع الرحلات للطلبة أحد أسس التعليم والمعرفة والتعارف بين الطلبة أنفسهم في جو خارج جدران الفصول وبينهم وبين أهلهم السودانيين في مجتمعاتهم الحياتية وهو أمر لا يتسنى بالقراءة والتدريس وحدهما.

سنة أولى في حنتوب كانت تخرج أثناء الفصل الدراسي في رحلة إلى مشروع الجزيرة، وإلى مدينة سنار حيث الخزان الذي يعتمد عليه المشروع في الري.

وحتى تعم الفائدة فإن طلبة السنة الأولى يقسمون إلى مجموعتين كل مجموعة مؤلفة من فصلين ونصف الفصل الخامس، كان حظنا أن نكون الفصل الخامس الذي انقسم بين المجموعتين.

وعاد نصفنا ليواجه الامتحان الأسبوعي كل مساء أربعاء ذلك أن نظام الدراسة كان يقسم اليوم بين الحصص صباحاً ثم الألعاب الرياضية عصراً، ثم المذاكرة مساء بين السادسة والثامنة مساء في كل يوم ما عدا يوم الأربعاء حيث تستبدل المذاكرة المسائية بامتحان في أحد العلوم، أما الخميس مساء فيمنح إجازة على أن تستأنف المذاكرة مساء الجمعة.

تقسيم فصلنا، سنة أولى نيوتن، إلى قسمين ثم الجلوس لامتحان الأربعاء أثار بعضنا مدّعين أننا لم نمنح فرصة كافية للمذاكرة والاستعداد للامتحان كغيرنا من فصول السنة الأولى الأخرى ودعا ذلك البعض إلى (الإضراب) عن الإمتحان، وكلمة إضراب كانت دائماً تلهب الحماس وتحرك روح التحدي والشجاعة.

فاتفقنا جميعاً للحضور للفصل واستلام أوراق الإمتحان والإجابة على أن يكتب كل منا اسمه فقط دون إجابة أي سؤال ونسلم الأوراق بيضاء للمراقب.

وبعد خروجنا من الفصل وقبل أن ننقل الخبر ونتباهى بالتحدي الكبير فوجئنا بالمستر براون ناظر المدرسة يستدعينا إلى مكتبه مستبقاً انتشار الحدث ويجلد كلاً منا خمس جلدات مطالباً الاعتذار ثم إعادة الجلوس لأداء الامتحان في اليوم التالي: الخميس يوم الإجازة.

بالنسبة لي كانت أول مرة أتعرض فيها للجلد منذ السنة الثالثة في كتاب النهود إذ إن مدرسة الدويم الريفية الوسطى لا تمارس العقوبة البدنية، وعلى عكس ذلك فإن زملاء الفصل من المدارس الوسطى الأخرى تلقوا السياط الخمسة كأمر عادي لأن سياط المستر براون لم تكن في حدة بعض المعلمين ومدارسهم أو قسوة بعض الفراشين في الجلد عندهم.

كانت الدراسة شيقة بسبب نوعية المعلمين وتنوع الطلبة، وقد كان هناك السوداني المرح والمحترم والمهاب معاً مثل عبدالحليم علي طه.

كان الأستاذ عبدالحليم علي طه ذا قدرات متنوعة وبجانب طريقته الشيقة في تدريس الجغرافيا حتى لتكاد تشعر أنك في رحلات سياحية كان يشترك في كل النشاط المدرسي الخاص بالطلاب سواء في الرياضة أو في ليالي الأدب والسمر والتمثيل، وبجانب ذلك فهو شاعر مطبوع.

وقد نظم في زملائه الأساتذة قصيدة جمعت المعرفة والفكاهة (والمطاعنات) التي تميز بها ضد دعاة الوحدة مع مصر والتي عرفت عنه في مساجلاته مع الأستاذ محمود الفكي رصيفه في أشهر الإخوانيات السياسية في السودان. وتقول قصيدته على لسان الطالب والتي يبدأ كل بيتين منها بعبارة (أبواتي الكبار) إشارة إلى الأساتذة في كل شعبة من شعب المعرفة في الدراسة:

أبواتي الكبار

أبـواتي الكبـار أهـل الـذكر والرايـة   النـاس في الـسمر هـم كَبـسونا قرايـة

(إشارة إلى كل أساتذة حنتوب)

سـاكنين الـشروق نـارين تبـق ضـواية   خلواتن تطن كل شـيخ يـدرس تايـــة

(موقع سكن الأساتذة شرق المدرسة)

لفوهـا الأمـور بـضمة فـوق الـضاد وكـسروا العـين قاعـدنلو المرصـاد

(أساتذة اللغة العربية)

الجـاني اسـتتر مـاليهو ثـاني قعـاد ونوبـو لي عمرطبيـز رضـا وانقـاد

(نائب فاعل)

أبـواتي الكبـار في لعـبهم مـا بجلـو مظلومين دوام من سبعة قـط مـا بجلـو

(وصف مباراة كرة القدم بين الأساتذة والطلبة)

محيي الدين جرا وفـنجط وقـع في محلـو فيهم ود أبوي يوت البضربو يشـلو

(محي الدين دياب أستاذ رياضي)

أبـواتي الكبـار مـا شـفتهم يـوم جـالو يوم سبق الـشيوخ ورونـا واقعـة جـالو

(واقعة جالو: واقعة شهيرة في الحرب الثانية)

الوقـف انقـبض والجانـا نـاسي نعـالو والوقـع إنكـسر أدو الحـصص لبـدالو

(أحدهم كسر ذراعه بالفعل)

أبـواتي الكبـار الـلي البلـد جُبّـارة زادن جـوهرة وعزيـة والمختـارة

(أساتذة الدين الإسلامي واللغة العربية)(كتب تدريس الدين واللغة)

زيد ضارب عمرو لامن وقـف زمبـارة دون سبة وسبب طلعت قضيته خسارة

(إشارة إلى عبارة النحو: ضرب زيد عمرو)

أبـواتي الكبـار أهـل البنايـة أم طـوب ساكنين غربنـا وقبلـة وصباح حنتـوب

حـامض سرهـم منـه الحجـارة تـدوب وإن خلتوا القزاز الـزول يقـع كرتـوب

(إشارة إلى أساتذة العلوم والأحماض أي خلطوا ما في الزجاج من كيماويات)

أبـــواتي الكبـــار الـــسرهم سريـــاني　　　　أي (أنا) أنت (يو) وي (نحن) قالوا معـاني

(أساتذة اللغة الإنجليزية، والسرياني لغة الأسرار في اليهودية)

يا أبوهاشم تقيف تلحقنـي يـا الجـيلاني　　　　حت ود ضيف هرب لملم خمامو وجـاني

(إشارة إلى أولياء الله، إشارة إلى الأستاذ هاشم ضيف الله)

أبـواتي الكبـار إن شـاءالله لي في العـون　　　　وفي لمحـة بـصر حـالاً يلفـوا الكـون

(أساتذة الجغراقيا، والشاعر منهم)

أهل الخطوة هم كل سـاعة قـالبين لـون　　　　مرن في الفـرات مـرن يخوضـوا الـرون

(إشارة إلى ألوان المناطق الجغرافية ونهر الرون في أوربا)

أبـــواتي الكبـــار أهـــل المـــزاج عـــافين　　　　والذوق أصلو فن والفـن جمـال الـدين

(إشارة إلى أساتذة الفنون، جمال الدين مبارك أستاذ الرسم)

والفـن بالرتـب وانتـو العتـب طـالعين　　　　وفي أصـل الكيـان آدم خُلِـق مـن طـين

(إشارة إلى راتب صديق مصري أستاذ الرسم، والأستاذ عتباني أستاذ الفخار والطين وهو غمز له لأنه (إتحادي) والشاعر استقلالي)

أبواتي الكبـار في الحـضرة لـيلن أمـسى　　　　مغلـــوبين في (واي) يحلـــو الخمـــسة

(إشارة إلى أساتذة الرياضيات، وأي إشارة إلى الحرف y في الجبر)

(زد) في القيد تناتل مـا بـتخلي الطمـسة　　　　قيمتهـا بـالألوف حلالهـا ميـت فلـسة

(زد) إشارة إلى الحرف (z) في الجبر، ما يعادل س و ص في الجبر باللغة العربية وهنا تورية للأستاذ أمين (زيدان) أستاذ الرياضيات الذي عرف، وقتها، بأنه دائما مفلس وقد كان قبل حنتوب سكرتير عام مؤتمر الخريجين)

أبـــواتي الكبـــار الـــذنبهم مرفـــوع والكضب الصحيح في مذهبهم مرفـوع

(إشارة إلى أساتذة التاريخ)

كـم قـسموا البطـون إنقـسمت لفـروع وكم جابو الغلا وكتلـوا الخلـق بـالجوع

(أي بطون القبائل، أصولها، إلى فروع، وبالتالي الدول)

يـوم الخـبر مـا احتـاروا في إسـنادوا بين ناس قـالوا قلنـا وقيـل طبعـاً زادوا

(إسناد) إشارة ذكية إلى أستاذ التاريخ عوض الكريم سنادة)

الواحد منهم يـوم عـرسي يـوم مـيلادو يحكي عن الرشيد عـن ثروتـو وأولادو

(كان بالصدفة يوم زواج الشاعر يوم ميلاد عوض الكريم سنادة)

يالتحـت الـبرج مـن همتـك بنقـيس حيرانـك كتـار صَرِف أمـورك سـيس

(البرج برج مدرسة حنتوب، ويقع تحته مكتب الناظر المستر براون)

حنتوب سبحتك جر الألـف يـا لـويس وحصِن مكتبك النصري عندو حـديث

(لويس: الاسم الأول للمستر "لويس براون" – النصري هو نائب الناظر المربي الكبير النصري حمزة)

تحصلت على هذه القصيدة من زميل الدفعة المهندس آدم عبدالله (واد مدني) والتي ألقيت أول مرة في يوم الآباء ١٩٤٩ بعد دخولي مدرسة حنتوب، ثم ألقاها أستاذنا الجليل عبدالحليم علي طه في مناسبة أخرى بالمدرسة قبل تخرج دفعتنا في ٣١ ديسمبر ١٩٥١.

ومن الأساتذة كان هناك البشوش القريب إلى النفوس مثل عوض الكريم سنادة والأمين محمد الأمين (الشهير بلقب الأمين فاروق - على الملك فاروق) - ومن المصريين أحمد أبوبكر الذي يرتدي البدلة الكاملة في كل مواسم العام مع الطربوش - وقد أسميناه نحن الطلبة _ أبوطربوش وقد علمنا فيما بعد أنه أحد أعلام التدريس في مصر وأحد مؤلفي كتب اللغة العربية للمدارس الثانوية وكان معه أبوالنجا أستاذ الرياضيات والذي كان من أبرع معلميها الذين يتفهم الطلبة المادة منه وباللغة الإنجليزية طبعاً، لغة التدريس تماماً كالمستر هوبسن. وفي الفنون كان هناك الثلاثي: راتب صديق، مصري والسودانيان جمال الدين المبارك وعبدالرحمن عتباني.

وقد حبب إلينا مادة العلوم كل من المستر فوكسلي (وقد سميت في فترة عليه) والأستاذ السوداني السني عباس ونائب الناظر النصري حمزة.

وقد كان هناك قمم في اللغة الإنجليزية لم نعرف قدرهم إلاّ في سنواتنا الأخيرة كالمستر بارات، والمستر وتفيلد، والمستر قوردون والمستر جونز ثم المستر جون لويس جونز الذي كان له فضل تغيير مساري التعليمي بعد حنتوب إلى دراسة الاقتصاد في مصر.

ورغم عدم قناعتي بعلم الجغرافيا والذي يحبه وتخصص فيه أخي عبدالله زكريا إلاَ أن الأستاذ ماكبين كان من ألطف وأحب المعلمين إلى الطلبة لأسلوبه الساحر الفكه.

أما المستر وود Wood أستاذ الرياضيات فقد كسب احترام المدرسة كلها بعد أول إضراب دخلنا فيه بمناسبة رفض الحركة السياسية السودانية للجمعية التشريعية التي أعلنتها حكومة السودان في أواخر عام ١٩٤٨.

المستر وود من أيرلندا وكان يكره الإنجليز المستعمرين ويجاهر بذلك وكم أُعجبنا به وهو يردد: لا تتعاونوا معهم (أي الإنجليز) وإذا أردتم جلاءهم من بلادكم حاربوهم Fight them.

كان طلبة الفصول المتقدمة خاصة الثالثة والرابعة أكثر متابعة منا لما يحدث في الساحة السياسية.

وقد دعينا في أحد أيام الخميس، وهو نصف يوم إذ ينتهي اليوم الدراسي في الساعة الثانية عشرة ويسمح لنصف المدرسة من الطلاب بالذهاب عبر النيل الأزرق بالمراكب أو البنطون المخصص للأساتذة وبعض طلبة السنة الرابعة إلى واد مدني.

في ذلك اليوم اجتمعت غالبية المدرسة واستمعت إلى خطباء من الطلبة ودعوة إلى الذهاب نهار اليوم التالي، الجمعة إلى واد مدني والقيام بمظاهرة عصراً ضد (الاستعمار) لبينا النداء وتمت المظاهرة وكانت غالبيتها منا طلبة حنتوب وتفرقت بسلام بعد نصح وإنذار من الشرطة.

وفي يوم السبت وفي الاجتماع اليومي وقف فينا المستر براون خطيباً بلغة عاطفية بأن نلتفت لدروسنا وأنهم كأساتذة يقدرون موقفنا لكن المهم هو أن نتعلم لفائدة وطننا وأسرنا وأنفسنا ونترك للكبار عمل السياسة وبلغ من شدة حديثة العاطفي أن أجهش بالبكاء الأمر الذي جعل بعضنا يتعاطف معه لولا أن صاح فينا وفيه محمد عبدالرحمن شيبون: لغة الدمع لم تعد منطق اليوم فكفكف دموعك الباقيات. ثم هتف يسقط يسقط الاستعمار... فتبعناه هاتفين نحو السفرة للإفطار.

اتجهنا بعد الإفطار وحضور الاجتماع اليومي Assembly إلى شجرة ظليلة جنوب المدرسة بدل الدخول في الفصل.

وهناك تبارى أيضاً بعض خطباء الطلبة وتم إعلان (الإضراب) عن الدراسة حتى (جلاء المستعمر). أذكر شخصين حضرا، دون المشاركة في الحديث، وظلا يحضران كل تجمع وكان لحضورهما وقع طيب على الدوام بين الطلبة وهما: الريس عبده سائق البنطون والحلاق حمودة العركي الذي انتقل بعد تخرجنا بعدة سنوات من حلاق رؤوس في مستوى الثانوي إلى حلاق طلبة جامعة الخرطوم ورحل من بلدته واد مدني وسكن العاصمة وظلت علاقته بالخريجين والطلبة والأساتذة في أطيب مستوى إلى أن انتقل إلى رحمة مولاه.

حمودة له نوادر وتعبيرات وتشبيهات في منتهى الروعة وذات انتشار واسع ليس هذا مكانها.

وكان في مدرسة حنتوب شخصيات وسط العاملين ظلت محفورة في وجداننا منهم: مصطفى (جرس) وهو العامل الذي يضرب جرس المدرسة منذ السابعة موعد بدء الحصة الأولى وعند انتهاء كل حصة وبدء الأخرى وبالمثل في الأمسيات في حصص المذاكرة.
مصطفى جرس كما سماه من قبلنا وتابعنا التسمية شخص هادئ في صرامة قلما يتحدث إلى أحد أو ينفعل إلى حدث.

وهناك الشاويش ثم (الصول) محمد وهو مسئول التدريب العسكري للطلبة الذين يختارون التدريب العسكري كأحد المناشط التربوية ومع ذلك فهو متواجد وسط الجميع حتى غير طلبة (الكاديت)، كما كنا نسمي التدريب العسكري، وقد علمت بحكم صداقتي مع العزيز موسى عوض بلال أنه أحد أقربائه.

أما عبدالرحمن فهو كبير أو رئيس عمال المدرسة والمشرف على المطبخ الذي يعد الوجبات للطلبة وتراه لابساً على الدوام (مريلة) بيضاء في أوقات الوجبات حتى تخاله أحد الأطباء لبياضها ونظافتها.

وقد كان من درجات الوفاء النقي من خريجي حنتوب أن قاموا بتكريم بعض الأساتذة وبعض الخريجين من الزملاء وبعض العاملين في احتفال سنوي منذ عام ٢٠١٣م وحتى الآن.

داخلية أبوعنجة إختيار أم صدفة

يقال إنه يخصص لها الطلبة المبرزون في الدراسة عند دخولهم المدرسة، ربما، ولكن هناك طلبة مبرزون أيضاً في داخليات أخرى، ومع ذلك فقد جمعت في عهدنا من أصبح قيادة ذات شأن. قبل وصولنا سمعنا عن هارون العوض: أول من (سودن) وظيفة مدير مصلحة الموازين والمكاييل والمقاييس (المواصفات) ثم وكيل ووزير التجارة. وعن حسنين حسن حسنين عبقري الرياضيات وعلم الفيزياء الذي انتهت به نشاطاته اليسارية إلى السجن في مصر ثم النشاط السياسي في الحزب الشيوعي بمدينة الأبيض وكنا شهوداً على (عوض محمد أحمد: عوض القون الطبيب البارع وأبرع من شغل وظيفة حارس المرمي: القون) وعلي محمد فضل بروفيسور الصحة والخبير العالمي – جعفر محمد نميري ومحمد إبراهيم نقد وبرير حامد الأنصاري وعبدالله زكريا وحسن الترابي وعثمان عبدالرحيم (القائد الفعلي لإضراب مدرسة حنتوب عام ١٩٥١) وفؤاد التوم سكرتير المريخ وعميد مدارس بيت الأمانة والجزولي دفع الله رئيس وزراء الانتفاضية في أبريل ١٩٨٥. وكذلك ولسنة دراسية كاملة قبل أن ينتقل إلى مدرسة خورطقت صديق محمد أحمد (شكوكو) كما كنا نلقبه لبراعة تقمصه لشخصية المنولوجست المصري محمود شكوكو هذا ما كان في عهدنا. وربما ما جاء بعدنا من هو أشهر وأفضل ... وأذكى.

كان الأستاذ المشرف House Master إبراهيم مصطفى شرف الدين ومهدي الفراش المسئول عن نظافة كل العنابر الأربعة وغرفة الأستاذ المشرف المقيم والغرفة العامة Common Room والتي توجد بها بعض الصحف والمجلات وتعتبر مكان ملتقى للطلبة للتعارف والمؤانسة وكان مهدي – هو الأخ الأصغر لعبد الرحمن رئيس العمال في منتهى اللطف والرقة.

وفي داخلية أبوعنجة على أيامنا عدد طلبة الداخلية لسبب ما يزيد عن العدد المحدد فتقرر أن يسكن العدد الزائد في الغرفة العامة.

وسواء بالصدفة أو التدبير فقد كان يسكن لمدة عامين من أيامنا كل من: محمد إبراهيم نقد وبرير حامد الأنصاري وبشير أحمد يوسف (الأخ الأكبر للفريق يوسف أحمد يوسف وكنا نسميه أبوظريفة على أحد أصحاب المراكب التي تعمل بين واد مدني وقرية حنتوب) وجعفر محمد نميري وكانوا جميعاً بالسنة الثالثة ثم طالب في السنة الأولى دفعتنا هو إبراهيم صالح علي.

وحسب النظام المتبع فإن الأنوار في كل العنابر وفي الغرفة العامة تطفأ مساءً في الساعة العاشرة ليلاً يسبقها إنذار في العاشرة إلاّ خمس دقائق.

ومن المتوقع بعدها أن يكون الطلبة قد انتهوا من قراءتهم الدراسية أو العامة وأن يخلدوا للنوم إلى أن تعود الأنوار في السادسة من صباح اليوم التالي.

غير أن هناك منشطين يمارسان فقط في داخلية أبوعنجة بعد العاشرة ليلاً بقليل أحدهما (علني) والآخر (سري) أما العلني فهو بعض النقاش والقفشات والمرح الذي يتبعه غناء في الغرفة العامة والذي غالباً ما يقوده الفنان محمد إبراهيم نقد مع (كورس) من زملائه. وهو أمر تضرر منه زميلنا إبراهيم صالح علي ثم ما لبث أن انضم إلى المجموعة عندما وجد أن دماثة خلق الأستاذ المشرف في الداخلية إبراهيم مصطفى شرف الدين لم تردع الفرقة الغنائية المرحة.

أما المنشط السري فقد كان يتم مرة في الأسبوع، غالباً ليلة الخميس، وهو تسلل مجموعة تضم أحمد ناصر محمد الشيخ (وهو عمي وتوفي إلى رحمة مولاه في حادث سير أثناء

دراسة الطب في مصر في مايو ١٩٥٧) وعبدالله زكريا إدريس ومهلب عبدالرحمن علي طه (كان أبوه وقتها وزيراً للمعارف) بالإضافة إلى شخصي الضعيف. كانت المجموعة تجتهد في أن توفر كل خميس مبلغ خمسة قروش وتذهب إلى (إنداية) قرية حنتوب والتي تكون قد خلت من روادها منذ مغيب الشمس فتجلس على (البنابر) وتطلب من (كوكو) واحد جردل (مريسة). وقد علمنا فيما بعد أنه كان يزورها بعد مغادرة الرواد وحضور تلاميذه أستاذ اللغة العربية (عوض عقارب).

وبعد بضعة زيارات حدث تعارف جهوي بين أحمد ناصر (من أبوزبد) وكوكو (من لقاوة) وأصبحنا نحظى بعناية خاصة من حيث الكمية ومن حيث درجة التركيز للمشروب الأمر الذي أدى إلى تفشي الخبر فجذب إلى المجموعة أفراداً غير مداومين على رأسهم أحمد أيوب القدال وهو ليس من داخلية أبوعنجة مثل بقية المجموعة. كما أن درجة تحمّله أخرجته من الاسترسال.

وفي إحدى الليالي لاحظنا أن شخصاً يتبعنا بعد تسللنا واحداً واحداً من العنابر وبما أن الطريق إلى الحانة به بعض الأشجار قمنا بعمل (كمين) لذلك الشخص إذ ظننا أنه الفراش مهدي فيقوم بإبلاغ السلطات أو أحد رؤساء الداخلية الثلاثة.

كانت المفاجأة الأولى أن الشخص هو زميل العنبر فؤاد التوم، سكرتير المريخ فيما بعد، وقد انضم فؤاد إلى حنتوب قادماً من مدرسة أم درمان الثانوية الأهلية.

وكانت المفاجأة الثانية أنه كان يحمل كتباً وكراريس إذ كان يظن أننا نتسلل لكي نذاكر في الحمامات التي كانت أنوارها لا تطفأ بعد العاشرة مساء.

أما المفاجأة الثالثة فهي عندما علم بوجهتنا ولم يصدق خاصة وأن بيننا ابن الوزير مهلب. فكان أن تم بيننا (رهان) وهو أن وصلنا إلى وجهتنا وجلسنا ودار الكأس مرتين لابن الوزير عليه أن يدفع ٢٥ قرشاً، وإذا جلس ابن الوزير مجاملاً ولم يشرب دفعنا له نفس المبلغ.

ولدهشته فإن جميع الندماء ظلوا يتناوبون كؤوسهم بانتظام ليس فقط لدورتين بل حتى انتهاء محتويات الجردل. وشملت الدورة حتى عبدالله زكريا عندما يكون فمه ملآن (بسفة تمباك) فننتظره حتى يفرغ من كلا الخبيثين ويسلمنا الكأس فارغة لتدور على الآخرين.

مبلغ الرهان، ٢٥ قرشاً، أكسبنا وضعاً مميزاً لدى (كوكو) إذ سلمناه كل المبلغ وضمن الجميع خمس جلسات ثم تبرع كوكو بجلسة سادسة من عنده تقديراً للدفع المقدم.

وظللنا في مأمن من أمرنا وفجأة في الجلسة الرابعة أو الخامسة فاجأنا النديم الأكبر عبدالله زكريا بأنه جاء ليودعنا كندماء ولكن علاقته معنا ستستمر كأصدقاء وذلك لأنه انضم لتنظيم (الأخوان المسلمين) وعليه فسوف لا يتعاطى الخمر بعد اليوم وأسفنا أنه لم يبلغنا مقدماً لنعد له حفلة وداع تليق بتاريخه معنا خاصة وأننا جميعاً كنا معه منذ الدويم الريفية الوسطى. كما تعجب بعضنا لوصفه (المريسة) بأنها (خمر).

داعبه البعض بأننا سوف لا ننساه وندلق (كأس الغائب) كل جلسة ونعتبره نصيبه في مبلغ الرهان.

وقد علمنا فيما بعد أن عبدالله زكريا وبابكر كرار وميرغني وإبراهيم النصري وفتح الرحمن البشير وآخرين (ليس من بينهم حسن الترابي) كانوا العمد الذي قامت عليه الحركة في حنتوب وعلمنا أن الحركة شيء مختلف عن الجمعية الدينية التي كان يظهر بعض أعضائها في الموكب السنوي لعيد المدرسة بالزي السوداني وفي يد كل منهم مصحف.

وظلت العلاقات الودية نامية ومتعاظمة حتى اليوم رغم اختلاف التوجهات وسأعود إلى عبدالله زكريا في موضع آخر.

ولكن كيف تعرفنا على موقع الإنداية، بجانب المناشط الرياضية المعروفة مثل كرة القدم وكرة السلة. كان هناك منشطان كل عام وهما مسابقة الداخليات في السباحة على النيل الأزرق الذي يقع على الجنوب الغربي من المدرسة ومسابقة اختراق الضاحية Cross Country Race والضاحية هنا هي ضاحية قرية حنتوب.

ويبدأ السباق لكل المدرسة من الجانب الشرقي ويلف شمالاً حتى مسجد المدرسة ثم يتجه غرباً نحو قرية حنتوب ولكنه لا يخترقها بل يمر أمامها شرقاً.

وفي هذا المنعطف كما يقولون توجد قطية صغيرة أمامها كرنك، وأمامها شجرة صغيرة أطلق عليها ناظر المدرسة المستر براون اسم شجرة المريسة Marisa Tree ومن الاسم تعرفنا حتى نحن طلبة السنة الأولى أنه (إنداية) وبمجرد انتهاء سباق اختراق الضاحية والذي كان أول المتسابقين فيه طوال دراستنا عبدالرحمن أحمد الصومالي الجنسية والذي أصبح فيما بعد سفيراً للصومال قبل تفكيكها بالسودان، ثم الرئيس الأول حتى وفاته لجمهورية (بلاد الصومال). وهو الصومال الشمالي للدولة التي لم يعترف بها أحد حتى الآن (٢٠١٦م) وهي غير صومال النزاعات.

بمجرد انتهاء السباق بدأت الكتيبة في وضع خطة غزو الموقع وتم الاتفاق على أن أنسب وقت هو مساء الخميس خاصة وأننا جميعاً لا نستفيد من تسهيلات قضاء نهاية الأسبوع في واد مدني لأن أهلنا جميعاً من غير المدينة.

أما مسابقة السباحة فقد كنا نمارسها إرضاء لرئيس الداخلية في الحصول على (نقطة) تفيد في التصنيف الرياضي للداخلية وتدعم مركز الفائز الأول الدائم، على أيامنا، في قطع المسافة من وإلى شاطئ واد مدني دون توقف جعفر محمد نميري وينافسه صديقه عبدالله البنا من داخلية (ود ضيف الله) وقد كان معلوماً وسط الطلبة من أبوعنجة وود ضيف الله أن الصديقين كانا يقضيان عطلة نهاية الأسبوع في واد مدني لحضور حفلات الأعراس التي ينقل النهر صداها إلى حنتوب.

وفي الوقت الذي كانت فيه مجموعتنا تتجه سيراً إلى الحانة يتجه الصديقان سباحة، وعلى رأس كل منهما ملابسه، إلى الشاطئ الآخر ويعودان مع انتهاء الحفلات.

لابد من كلمة وفاء في حق فؤاد التوم ووالدته الأم العظيمة التي فتحت لنا دارها في أي وقت خاصة أيام عطلة الأسبوع أو قبل وبعد انتهاء الفصل الدراسي وفي طريقنا إلى حنتوب، أو في رحلة العودة إلى أهلنا بقطار الأبيض.

عندما انضم إلينا فؤاد التوم في عنبرنا بداخلية أبوعنجة كان يعود من مدني عصر الجمعة ومعه ثيرموس أو إثنان بهما شاي أحدهما بالقرنفل، كوب الشاي في قهوة عم محمد بنصف قرش بدون حليب وكنا ننعم بالشاي السادة المجاني سواء للمتعة أو للمساعدة في الاستذكار.

أما أيام الجمعة والتي لا يشملها قرار الذهاب إلى أهله في واد مدني فإنه يطلب من (محمد) الشاب الذي يدور على الداخليات حاملاً صينية (الباسطة) والقطعة بقرش ونصف القرش، يطلب منه أن تكون نهاية مطافه في داخلية أبوعنجة وفي عنبرنا بالذات فنتقاسم باقي الصينية على حسابه.

أما منزله في واد مدني كما ذكرت مفتوح وأمه الكريمة الودودة ترحب بكل زملاء ابنها سواء كان موجوداً أو غائباً.

صينية الغداء، الشاي، المراتب للنوم أرضاً لمن لا تسعهم السرائر الأربعة في الديوان.

وكعادة السودانيين والسودانيات فإنها لا تظهر علينا إلا عندما لا تجد من يحضر الصينية أو المراتب وَتَحَرِجْنَا كما هي العادة عن سؤالها عن اسمها أو سؤال فؤاد التوم عن اسم والدته، يرحمها الله وأنزلها أعلى عليين.

أما والد فؤاد فقد كان يتاجر بين السودان وأثيوبيا ولم يلتق به إلا القليل من الزملاء. عائلة كريمة سخية وودودة لها خير الجزاء من الله.

الفترة من يناير ١٩٤٨م حتى نهاية عام ١٩٥١م والتي قضيناها في حنتوب كانت كلها حراكاً وطنياً في العاصمة المثلثة (الخرطوم، أم درمان، الخرطوم بحري) وفي واد مدني وكل المدن الكبرى والصغرى في السودان: الأبيض، عطبرة، بورت سودان، كسلا ...

بدأت الدراسة في مدرسة حنتوب الثانوية في يناير ١٩٤٦م، أول دفعة، بعد أن تم تقسيم المدرسة الثانوية الوحيدة في السودان: مدرسة أم درمان الثانوية إلى مدرستين: وادي سيدنا شمال أم درمان وحنتوب في الضفة الشرقية للنيل الأزرق قبالة مدينة واد مدني ومعذرة للتكرار فإن الأرض التي قامت عليها المدرسة بكل منشآتها من فصول ومكاتب وداخليات للطلبة ومنازل للمعلمين وللعمال وللموظفين بل وعدة ملاعب كاملة لكرة القدم وكرة السلة ونادي المعلمين ومسجد ومتجر وتقريباً كل ما يخطر على البال. كل الأرض قدمها هدية مجانية للعلم المواطن أحمد أبوزيد من أعيان واد مدني. وزاد عليها اجزاء أخرى العركية - وعبد الله والكارب من أعيان ود مدني - وإبراهيم مختار من أعيان قرية حنتوب

وإضافة إلى الأرض شملت الهدية حديقة عرفت باسم (جنينة ود أبو زيد) والحاج أحمد أبو زيد هو والد القانوني المستشار محمد أحمد أبو زيد يشغل عند كتابة هذه المذكرات منصب رئيس ديوان الحسبة والمظالم. قليلون الذين يعرفون هذه الحقيقة التي لم يشهرها صاحبها ولم تباهى بها أسرته من بعده وهكذا أصلاء السودان – وأعتذر للتكرار – ولكنه وفاء لمن يستحق فرداً وأسرة.

كان معلم الرياضيات إسماعيل الأزهري عند تقسيم المدرسة الثانوية يشغل في نفس الوقت منصب رئيس مؤتمر الخريجين لتلك الدورة وكان يشغل منصب سكرتير المؤتمر زميله معلم الرياضيات أيضاً أمين زيدان.

وقد تم نقل كليهما إلى مدرسة حنتوب ليكونا بعيدين عن المركز الساخن للصراع الوطني رغم أن كليهما معلمان للرياضيات مما يعكس القصد الواضح للإبعاد.

حكى أستاذنا أمين زيدان بعد فترة من تخرجنا من حنتوب ومن تقاعده بالمعاش في لجنة ترأسها لترجمة قوانين السودان إلى اللغة العربية حكى أن زميله الأستاذ إسماعيل الأزهري رفض النقل الذي رأى فيه إبعاداً عن العاصمة وعن مركز العمل الوطني خاصة وأنه الرئيس دون منازع.

أما هو فقد وافق على النقل باعتبار أن واد مدني في حاجة لأمثاله للعمل بجانب الأستاذ أحمد خير المحامي (صاحب فكرة مؤتمر الخريجين والذي دعا إليه من واد مدني عام ١٩٣٨م ثم إنتقلت الفكرة إلى أم درمان) وخاصة بعدأن توفي أحد كبار رجال الحركة الوطنية المرحوم عثمان شندي في هجوم قادته مجموعة من الأنصار أثناء معارضة الاتحاديين للجمعية التشريعية. قبيل اعلانها رسمياً.

ذكر أمين زيدان في حسرة أن قبوله النقل إلى حنتوب قوبل بفتور شديد من جانب رجالات الحركة الوطنية في كل من أم درمان وواد مدني بل أن واد مدني عاملته بدرجة من التشكيك في ولائه وأنه خضع لضغوط الاستعمار وإن لم توجه إليه مباشرة تهمة الجبن أو سهام العمالة.

أما رجال الحكومة في واد مدني فقد شددوا عليه الرقابة واحصوا أنفاسه في كل زيارة إلى المدينة وعند مقابلته لأي مجموعة من المواطنين.

وهكذا قضى معظم سنواته في حنتوب محل شك وحذر من كلا الوطن والاستعمار إلى أن تأكد بعد حين لزملائه في أم درمان وواد مدني أنه ضحية الشكوك التي تلازم دائماً العاملين سراً أو علناً في الكفاح الوطني.

خواطر عن حنتوب

بسم الله الرحمن الرحيم

حنتوب ....الجميلة

كما ذكرنا فقد انقسمت مدرسة أم درمان الثانوية (الوحيدة عام ١٩٤٥) إلى مدرستين: وادي سيدنا وحنتوب. ورغم أن حنتوب بعيدة عن العاصمة الخرطوم أصبح لها اسم وصيت ابتلع كلا من (أمدرمان الثانوية الأم) ووادي سيدنا الصنو ... ثم خورطقت ١٩٤٩ بل وجميع المدارس الثانوية التي قامت بعد ذلك: المؤتمر – الأهلية – الأحفاد – بورتسودان وجميع المدارس.

حياها كما حيا وادي سيدنا بالاسم الأستاذ أحمد محمد صالح في قصيدته التي مدح بها أم درمان الثانوية ... ومع ذلك ظل اسم وادي سيدنا خافتاً. قال عند انقسامها إلى شطرين وادي سيدنا وحنتوب ١٩٤٥ :-

كلية غردون القديمة

(مدرسة أم درمان الثانوية)

مال ميزانها وحان الغروب — وانقضى عهدها فليست تؤوب

شمس علم قد عبرت نصف قرن — وهي كالسيف عزمها مشبوب

تبعث الدفء والحياة إلى الناس — وترعى الشباب وهي تشيب

ثم حان الفراق وانفرط العقد — فريعت لدى الفراق القلوب

كم صديق شكا فراق صديق — وحبيب بكى عليه الحبيب

في سبيل الأوطان يستسهل الصعب — ويحلو التشريد والتغريب

نحن كالعهد لا نملُّ جهاداً — ولا وليست تنال منا الخطوب

برزت من قرابها (وادي سيدنا) وانبرت في عرينها (حنتوب)

يارفيق الصبا ويا عدل نفسي أين منا الشباب وهو قشيب

يوم كنا لا تسل كيف كنا والصبا وارف الظلال خصيب

تتغنى طيوره صادحات تلك شحرورة وذا عندليب

نحن كالطيور في غسق الليل أضاءت وإن كواها اللهيب

نقطع الليل بين كد ودرس وسوانا المدلل المحبوب

وأضاف عبدالله الشيخ الطاهر ابن الكلية:-

كم أسأنا وكم عفوت وأحسنت فلله منك صدر رحيب

كرم الأصل كرم زانه كرم النفس لعمري أنت الحسيب والنسيب

وكما حياها الأستاذ – ثم عضو أول مجلس سيادة بعد الاستقلال – أحمد محمد صالح – استقبلها الشاعر محمد عوض الكريم القرشي وإن كان البعض ينسب القصيدة خطأً إلى الشاعر حميدة أبو عُشر (شاعر أغنية غضبك جميل زي بسمتك) والذي كان ضمن فريق العمل الذي قام ببناء وتشييد مباني المدرسة بقصيدة صارت لها عنواناً أسماها (حنتوب الجميلة) تغنى فنان الجزيرة الخير عثمان برائعة القرشي (حنتوب الجميلة) وأصبحت نشيد الافتتاح بعد وأحياناً الختام قبل آي الذكر الحكيم في كل مناسبات أبناء حنتوب طلبة وخريجين – ترتفع الأصوات: الرخيم والوخيم والناعم والأجش وتنشد في حماس يعيد للجميع حيويتهم وشبابهم.

حنتوب الجميلة

كلمات محمد عوض الكريم القرشي – أداء الفنان الخير عثمان

في اليوم الرياضي عند افتتاح المدرسة عام ١٩٤٦ بحضور الناظر المستر لويس براون

بهديك تحياتي وبهديك وجداني

الجميلة الجميلة حنتــوب الجميلة

منظرها البديع ياروعة جلالو تعجب حين تزورو وتجلس في تلالو

الجميلة الجميلة حنتوب الجميلة

هنا فيها الآداب وهنا فيها الشباب ... الشباب ... الشباب

العامل لوطنو وما داير ثواب

الجميلة الجميلة حنتوب الجميلة

ليك أعظم رسالة تحطيم الجهالة

لنشر المعارف وبلدي تنيل منالا

الجميلة الجميلة حنتوب الجميلة

للنيل باقية شامة والهدهد علامه ومنسق نظاما وفي تقدم دواما

الجميلة الجميلة حنتوب الجميلة

بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على افتتاحها تداعى خريجوها – وطلبتها – بل وأساتذتها الحاضرون والمتقاعدون للاحتفال بعيدها أو يوبيليها الفضي: لم يفعل ذلك منسوبو وادي سيدنا .... بل ولم يتحرك منهم أحد. رغم أن خريجي مدرسة خورطقت قد أدوا واجب الأمومة نحو مدرستهم – هل لأنهم كانوا من نَسْل وصُلْب حنتوب إذ لا يخفى

أن مباني مدرستهم لم تكتمل فقضوا السنة الأولى في مدرسة حنتوب ثم انتقلوا إليها: فتخرجوا سنة أولى من حنتوب. وقد ظل خريجو حنتوب في تواصل خلاّق مع بعضهم في شتى المناسبات وأسسوا رابطة تجمع خريجي كل الدفعات واستأجروا لها داراً ثم تابعوها لتكون لهم مقراً دائماً مملوكاً لهم.

عند احتفالهم باليوبيل الفضي دعوا أول ناظر لها المستر براون وكل المعلمين والعاملين السودانيين الأحياء الذين أثروا العقول والأبدان ... وظلوا يحتفلون ليس فقط مع بعضهم بل والعاملين والمعلمين السابقين وبقدامى الخريجين في تواصل فريد.

وفي العيد الخامس والعشرين اعتلى المنصة دكتور حسبو سليمان خريج دفعة ١٩٤٦ (عليه واسع الرحمة – ومن زملائه أطال الله أعمارهم: دكتور أبو حسن أبو – محجوب محمد صالح) وألقى القصيدة التالية:–

حنتوب

(المدرسة الثانوية التي صنعت العظماء)

فرقتنا مع الزمان الدروب	ومضينا وما علينا رقيب
ثم عدنا وكم غريبٍ يؤوب	ليت شعري هل كان فينا غريب
إيه أُمّاه قد أتينا إليك	نحمل الود واللقاءُ يطيب
كم لعبنا على المروج وفينا	من عبير المروج عطرٌ وطيبُ
كم سعدنا على الرمال صغاراً	والهمومُ الكبارُ فينا تجوبُ
وأقمنا على الشواطيءِ صرحاً	واستبقنا والضاحياتُ كثوبُ
وصديقي كالصيدِ يسبقُ دوماً	فهو كالصيدِ كله عرقوبُ

والليالي القمـــراء فيها (شليـلٌ)[1] وشليــــلٌ إذا لَعِبْـــــنا عجيــبُ

قبـضــوه مـع الرمـــالِ فحسّـــوا (بدبيب)[2] وويلهم لو يـصـــيبُ

غطّسُوه في الزيـرِ وهـو حبـــيسٌ ثم صاحوا ربــاهُ هــذا دبيــبُ

نحــن يــا درة الديــــارِ رجـــالٌ كُلُنَـا ســيدٌ كـــريمٌ رهيـــبٌ

أســألينا فقــد نجيــبُ فهــــذا قائـــدٌ ملهــمٌ وهـــذا طبيـــــبُ

قــد رفعنــا للعلـمِ كـلّ منـــــارٍ ما عجزنـا وما اعترانـا لغُـــــوب

وإذا عربـد الـوطيسُ وهاجـــت في ظلامِ الأحقاد تلك الخطـــوبُ

كـم هزْعنَــــأ نـصارعُ المـوتَ إنــاّ قــاهرو المـوتِ إن دعَانــا نجيـــبُ

قــد بنينــا الــسودان في كــلٍ قلــب وكتــابُ الــسودانِ درسٌ حبيـــبُ

نحــن والله مــا خــذلناكِ يومـــاً أنــت أمٌ لهــا المعــالي قلـــــوبُ

فاذكرينــا ورددي لحـــسن شـــوقٍ كــل ذكـرى في عمرنــا حنتـــوبُ

الاسم بالكامل حسب الرسول سليمان رستم (حسبو سليمان)

خريج دفعة ١٩٤٦ داخلية أبوعنجة

كبير استشاريي الطب النفسي

كتب دكتور حسبو عنواناً لقصيدته عن حنتوب إنها (المدرسة الثانوية التي صنعت العظماء) – كما يقول آخرون أنها قدمت للسودان قيادات وشخصيات لا تنسى من الرعيل الأول: جعفر نميري – حسن الترابي – بابكر كرار – عبدالله زكريا – خليل عثمان – محجوب

(١) شليل: لعبة شعبية سودانية

(٢) الدبيب: الثعبان بلغة العموم السوداني

محمد صالح – صلاح أحمد إبراهيم – فتح الرحمن البشير – محمد إبراهيم نقد – الرشيد الطاهر ... و... ومن ذخرت بهم الدفعات المتتالية إلى أن تم اغتيالها.

لكن وادي سيدنا قدمت أيضاً: منصور خالد – عبد المنعم مصطفى – أحمد عبدالعزيز – عبدالغفار محمد أحمد – أحمد أبو الدهب. كما جادت خورطقت بدفع الله الحاج يوسف – صديق محمد أحمد – موسى عبدالله حامد – الفاتح بشارة – كمال حمزة وغيرهم من الوادي والخور ممن ذخرت بهم أيضاً الدفعات المتتالية. وعفواً لمن لم يكونوا من الرعيل الأول فلم نذكرهم.

مع ذلك فإن الذي وأد الدراسة فيها وفي كل المدارس (القومية) كان يخشى ولا يزال (يخشى) لقاء الشباب السوداني على أساس (قومي) ذلك أن (النقاء) الوطني في تلك المرحلة سيظل هو الرابط الأقوى بين مقومات القومية السودانية مهما تداخلت وتزاحمت حولها الأيديولوجيات. فإن مالت يوماً سوف تصحو يوماً وسيلتقون طال الزمن أو قصر تحت علم السودان إخواناً أو زملاءً أو رفقاء وسيرفعونه بعودة الوعي ثابتاً لا يميناً ولا يساراً. ربما كان هذا الذي يُرعب الذين تهيّبوا الوجود (القومي) للشباب في المدارس (القومية) وفي (داخليات) تجمعهم دون وصاة أو رقباء. فحاربوها ثم قفلوها وغيروا معالمها – وجنت البلاد أجيالاً لا تعرف بعضها ولا وطناً واحداً يجمعها ... فتدابروا وتباغضوا وتحاربوا ... ولم يجدوا من يجمع شتاتهم ... الله يجازيهم.

وكما استقبل الأستاذ أحمد محمد صالح حنتوب ووادي سيدنا عند انشطار مدرسة أم درمان وانضم إلى هيئة التدريس في حنتوب – ودع حنتوب وهو يغادرها إلى رئاسة وزارة المعارف بالقصيدة التالية:-

حنتـــوب

أحمد محمد صالح

لقاء إلى وداع ١٩٤٧

جمح القلب بعـد مـا قلـت تابـــا وذكـــرت الـــديار والأحبابـــا

ونبا مـضجعي فـما أطعـم الغمـض وأحســست بــين أهــلي إغترابـــا

ذكريـات لآل حنتـــوب عنـدي تـــستثير الهمـــوم والأوصابـــا

فركبت البخـار مـضطرب النفـس سريـــع الخطـــى أحـــث الركابـــا

آمــلاً أن أرى الــديار بعيـــــني وعـــسى أن تـــرد دار جوابـــا

وبــرغم الزمــان تــم التلاقـــي وأقمنـــا الأفـــراح والترحابـــا

وغفرنــا للــدهر مــا كــان منـــه ونـــسينا عنـــد اللقـــاء العتابـــا

****

رب عــيش لنــا بحنتــوب غــض كـــان أنقـــى مـــن الـــزلال شرابـــا

وليـــال هـــي الربيـــع إبتـــساماً عبقـت بالـشذى وفاحـت ملابـــا

وبنــات الهــديل يهـتفن باللحـــن شـــجياً وبالأغـــاني عذابـــا

يــوم كنــا وكــان شــملاً جميعـــاً نثـــر الـــدهر عقـــده وأصابـــا

ذاك عهـد مـضى فـلا تقـرع الـسن عـــلى فائـــت تـــولى وغابـــا

****

قــال لي عــاذلي تنكــرت للعهـــد وأزمعـــت فرقـــة واجتنابـــا

وأطلــت الثــواء بالبـــلد النــازح واخـترت عـن صـحاب صحابـــا

كنــت فينــا عــلى الوفــاء دليـــلاً كيـف خنـت الـصديق والأترابـــا

أتكـون العهـود منـك بروقـــاً ... خلبـاً والوعـود منـك سـرابـا
أيهـا اللائـم المعنـف مهـــلاً ... بعـض هـذا فـما نطقـت صـوابـا
كيـف أنـسى صـحابة آزرونـــي ... وكـسوني مـن الفخـار ثيابـــا
رفعـوا منـزلي وأعلـوا مكـــاني ... فتناولـــت باليـــدين الـــسحابا
وتفيـأت مـن نـداهم ظـــلالاً ... كانــت الخلــد أو أعــز رحابـــا
مــن كهــول أعفّــة وشـــيوخ ... ضربــوا المجــد بــالعراء قبابـــا
نخـدم العلـم لا نريـد جـــزاءً ... ونـــربي عـــلى الإبـــاء الـــشبابا
وزرعنـــا الوفـــاء غـــصناً جمـــيلاً ... فـــنما زرعـــه وطـــال وطابـــا
وشـــباب عـــلى الفـــضيلة شـــبوا ... يعـــشقون الأخـــلاق والآدابـــا
كلهـم مرهـف الـشعور نبيـــل ... إن ذكرت الصعب خـاض الـصعابا
وإذا مـا دجـا وأظلـم خطـــب ... إنـــبرى كوكبـــاً ولا شهابـــا
عنـد بـذل النفـوس والأمـر جـد ... لم يكـــن وانيـــاً ولا هيّابـــا
عُـدّتي إن هممـت يومـاً بأمـــر ... وســـيوفي إذا أردت الـــضرابا
أسروني فـــما أطيـــق فكاكـــاً ... لا ولا عنـه إرتـضيت الذهابـــا

****

يارفـاقي دنـا الرحيـل وأضـحى ... أمر هذا الفراق حتماً مجابـا
لكـم العهـد أن أظـل عـلى العهـد ... وإلاّ أزداد إلاّ اقترابـا
فـــاذكروني إذا تـــبلّج فجـــر ... واذكروني إذا الأذان أهابـا
واذكـــروني إذا الخطـــوب ألّمـــت ... واذكروني إذا الرئيس تثابـى
واذكـــروا ناصـحاً أمينـاً وفيـاً ... لم يكن في ودادكم مرتابـا

****

الفصل السادس
مصــــر

- الرحلة إلى مصر
- الدراسة في الإسكندرية
- تباشير الاستقلال

نهاية الحلم:

لا كلية طب- لا كلية زراعة- ولا معهد فني:

الرحلة إلى مصر

في فترة قفل المدرسة وقبل عودتنا استضافنا، نحن مجموعة من أبناء كردفان ودارفور الذين ما كان يمكننا السفر لأهلنا، استضافنا زميلنا محمد أحمد حسن عبداالجليل والذي أطلقنا عليه لشدة حيائه (توني) البطل في رواية إنجليزية كانت مقررة علينا في السنة الثالثة تسمى (She Stoops to Conquer) ولا يزال اللقب لاصقاً به ويتقبله بابتسامته الكريمة والمعهودة.

ولقد لقينا منه ومن أسرته رعاية كلما نتذكرها نردد مع الفنان (حليل الناس النسونا أهلنا) وقد سعدت فيما بعد بمزاملة وصحبة أخويه الشبلين في ذلك الوقت : إبراهيم حسن عبد الجليل وعبد الجليل حسن عبد الجليل: الأول بروفيسور الإدارة بالجامعة والثاني زعيم المزارعين والوزير في حكومة مايو.

بعد انتهاء الامتحانات سجل كل منا الكلية التي يود الالتحاق بها إذا أهلته نتيجته لذلك، وقد سجلت كلية الزراعة في الوقت الذي كان الجميع يتوقع أن أسجل كلية الطب، ولكن لهذا قصة.

في أثناء إجازة نصف السنة، حوالي يوليو ١٩٥١م حضر إلى النهود مفتش الرئاسة في مديرية كردفان ومقره الأبيض ويدعي المستر (ماكوماس). كان بمركز النهود ثلاثة مفتشين بريطانيين إذ كان أكبر مركز في السودان وجميع من شغل منصب السكرتير الإداري لحكومة السودان بالخرطوم كان يوماً ما المفتش الأول لمركز النهود منذ عام ١٩٠٢م.

ويساعد المفتش الأول، مستر بيتر هوق Peter Hogg، مفتش قبيلة حمر التي أنتمي إليها وكان اسمه ، هنتر Hunter، والمفتش الثالث اسمه ، تبس Tibbs، ولقبه مساعد المفتش للمسيرية والدينكا.

كان بالمركز (مأمور) هو السوداني المساعد في شئون الإدارة للمستر هنتر، ويشغل في نفس الوقت منصب ضابط مجلس ريفي دار حمر واسمه مصطفى يوسف تكونة، وهناك طرفة تحكى عن تكونة أفندي حسب لقبه الرسمي.

فقد كان له مكتبان: أحدهما في (المركز) حيث المفتشون الثلاثة، ومكتب في المجلس الريفي الذي يرأس فيه الجهاز التنفيذي. وقد كان تكونة أفندي يود أن يوضح للمواطنين أن عمله في (المركز) الذي يتبع السكرتير الإداري، ووزارة الداخلية فيما بعد، يختلف عن عمله في (المجلس) الذي يتبع قسم (الحكومة المحلية) في مكتب السكرتير الإداري.

هناك أعمال يقع تصريفها من اختصاص المركز مثل الحصول على تصديق المباني في المدينة أو رخص السيارات أو القيادة، كما أن هناك أعمالاً من اختصاص الحكومة المحلية مثل مكافأة رجال الإدارة الأهلية في تحصيل الضرائب أو الرخص التجارية ونحوها.

فكان إذا حضر مواطن في عمل يخص (المركز) وهو جالس في مكتبه في (المجلس) يطلب منه أن يذهب إلى مأمور المركز الذي هو مصطفى أفندي تكونة.

وإذا كان الأمر يخص عمل الحكومة المحلية وهو في المركز يطلب منه أن يذهب إلى ضابط المجلس، وعندما يذهب المواطن بعد فترة إلى مكتب الضابط يجد تكونة أفندي هناك.

وقد ساهم أسلوبه بطريقته الأبوية الصارمة في أن يتعلم المواطنون بسرعة تقسيم الاختصاصات.

حضر المستر (ماكوماس) وطلب من تكونة أفندي أن يستدعي إبراهيم منعم منصور لمقابلته وبحضوره في مكتب مساعد المفتش لدار حمر المستر هنتر.

سألني المستر ماكوماس عن رغبتي في الدراسة بكلية غردون التذكارية إذا نجحت في امتحان شهادة كيمبردج، أجبته على الفور: الطب، رد على الفور: لا. تدخل مدرسة البوليس والإدارة School of Police & Administration

كانت المفاجأة أكبر من أن أتحملها فانفعلت فيه أنني أنا الذي أختار ما أدرسه. وفي برود إذهلني رد بأننا نحن الذين نختار لك ما تدرسه فأنت ابننا: ابن الشيخ منعم منصور ناظر عموم حمر.

ثم طلب مني أن أصغى إليه جيداً لأنه سيتحدث عن خطة الحكومة لمستقبل السودان لفترة عشرين سنة قادمة، أولاً: سوف تحكم البلاد بحكم محلي بواسطة مجالس ريفية، ومجالس بلدية في المدن الكبرى. ثانياً: سوف تلغى (المراكز) تدريجياً ويختفي (مفتش المركز) ويحل مكانه (ضابط بلدية) أو (ضابط مجلس ريفي) وتتحول سلطات مفتش المركز إلى المجلس الريفي وإلى قاضي مقيم يتبعه البوليس لحفظ الأمن.

ثالثاً: سوف يتم اختيار الضباط خاصة ضباط المجالس الريفية من أبناء النظار والعمد والأعيان الذين يملكون المؤهلات لأنهم سيكونون أقدر على تفهم أحوال أهلهم في الأرياف من أولاد الأفندية والتجار في المدن والذين سوف يشوهون أهداف الحكم في الأقاليم ولكن سيكونون من ضباط المجالس البلدية.

رابعاً: سيتم إلغاء المراكز ووظائف المفتشين وإحلال الضباط تدريجياً بما في ذلك وظيفة مدير المديرية والذي سيصبح كبير التنفيذيين Senior Executive وبحلول عام

١٩٧١م، أي خلال عشرين عاماً سيكون الذين يديرون السودان كلهم من السودانيين وسوف لا يوجد من البريطانيين إلا أربعة وهم معالي الحاكم العام، سعادة القائد العام، سعادة السكرتير المالي، سعادة السكرتير القضائي. وستعم عملية الإحلال كل الوظائف الأخرى في جميع المصالح.

لهذه الأسباب ولتحقيق هذه السياسة كان دخولي كلية الطب غير ممكن، وعلى أي حال سوف يتم إخطار الكلية بعدم قبولك عندما تذهب إلى الإنترفيو.

في ذلك الوقت كان الدخول لكلية الطب ليس فقط بالتفوق الدراسي بل بالمعاينة التي يرأس جلساتها مدير المصلحة الطبية (وزارة الصحة) وعميد الكلية ومسئول شئون الطلبة Students Warden وقد روى المهندس أحمد الطيب بابكر زميلي في عمل المقاولات فيما بعد أن أول دفعتهم الذي أحرز الدرجة الأولى Grade One بأرقام ممتازة في معظم العلوم تقدم لكلية الطب كالعادة. وعندما سئل ماذا سيفعل إذا لم يقبل في الطب رد على اللجنة: ليس هناك من سبب يمنع قبولي فأنا أول الدفعة. كان الرد المباشر من رئيس اللجنة: هذا هو السبب الذي يمنع قبولك فأنت مغرور Conceited أكثر من اللازم وإذا كان هذا هو ردك على اللجنة وأنت لم تدخل كلية الطب فكيف يكون تعاملك مع المرضى بعد أن تتخرج من الطب.

ولعل من محاسن المعاينة (الإنترفيو) أنها أبعدت مثل هذا الطالب من كلية الطب. وكذلك من محاسنها أنها أبعدت عون الشريف قاسم أيضاً من كلية الطب إذ كان يسكن ضاحية (حلفاية الملوك) واستقل (البص) قاصداً الخرطوم للمعاينة لمدرسة طب كتشنر (كلية طب جامعة الخرطوم فيما بعد) تعطل البص الوحيد في الطريق.

وكان عليه أن يسير راجلاً حتى مدينة الخرطوم بحري لكي يستقل سبل المواصلات الأخرى ليصل إلى مباني الكلية في شارع (فكتوريا، القصر الآن) قرب مباني محطة سكك حديد الخرطوم بعد فوات الميعاد بساعات.

لولا المعاينة لخسر السودان العالم والمفكر بروفيسور عون الشريف قاسم.

أكد لي المستر ماكوماس أنني سوف لا أقبل في كلية الطب وإزاء رفضي القاطع بأنني سوف لا أقبل دخول مدرسة البوليس والإدارة فأوصاني بأن أدخل أي كلية لمدى سنتين حتى ولو لم تكن كلية البوليس والإدارة والتي تتكون الدراسة فيها من سنتين يحصل الخريج على دبلوم إدارة.

وفي خلال السنتين أقبل أن أتدرب أثناء الإجازة في مجلسين: أحدهما كما سماه Model Municipal Council وهو مجلس بلدي مدينة بورت سودان إذ إن العمل في هذا المجلس يشمل التعامل مع البواخر والأجانب الذين تحملهم إلى داخل المدينة ليقضوا فترات قد تمتد إلى أيام. كما أن بها الميناء والجمارك ثم الحج السنوي والعمرة. أما المجلس الثاني Model Rural Council فهو مجلس ريفي أم روابة فقد ذكر فيه تنوع القبائل وتنوع المحاصيل وأنه من المجالس التي بدأت فيه تجربة تسليف المزارعين وهي تجربة إذا استمرت ونجحت سوف تغير الحياة في البيئة الريفية ويمكن تطبيقها على مناطق أخرى ومنها ريفي حمر، ويعتبر كذلك Model Rural Council. وحتى يكتمل الترغيب والإغراء فقد أكد لي المستر ماكوماس أنني إذا دخلت مدرسة البوليس والإدارة أو قضيت أي سنتين دراسيتين في أي كلية وتدريب خلال الإجازات في هذين المجلسين فإنه سوف يرقيني بعد سنتين إلى درجة DS. وهي درجة أكبر، كما قال لي ، من درجة تكونة أفندي الذي هو في الدرجة أف F. وبسرعة أكد لي تكونة أفندي أن DS أكبر من درجته وأنه إذا قدر لي أن أحضر لمجلس ريفي

دار حمر فسوف أبدأ عملي فوراً بأعلى من درجته، ورئيساً عليه. في سن الشباب تلك والطموحات وما يختزنه العقل الباطن من مقارنة بين ضباط المجلس والدكتور لم أقتنع بما التزم به المستر ماكوماس في حضور مساعد المفتش لدار حمر ومأمور المركز وضابط ريفي مجلس دار حمر وطلبت مهلة للتفكير لحين ظهور نتيجة الامتحان.

وفي ختام الجلسة التي استمرت قرابة الأربعين دقيقة ألمح لي المستر ماكوماس أنهم أرادوا إقناعي والبدء في تدريبي برضىً مني ومن والدي ولا يريدون تكرار ما حدث لمنصور أخي حيث أدى عدم انضباطه وعدم طاعته لناظر المدرسة الأميرية (الحكومية) الوسطى في الأربعينات عام ١٩٤٢م إلى إخراجه من المدرسة قبل إكمال تعليمه الأوسط والحاقه بقوة دفاع السودان (القوات السودانية المسلحة فيما بعد).

قصة أخي منصور، أكبر أبناء الشيخ منعم والذي التحق بمدرسة الأبيض الأميرية الوسطى تمهيداً لتعليمه وتنويره ليكون خليفة لوالده وتطبيقاً لسياسة إلحاق أبناء زعماء العشائر بالمدارس لخلق جيل من نظار القبائل على درجة من العلم بجانب ما يتلقونه من تجارب وهم يلازمون آباءهم في المحاكم وفي مجلس الصلح والحكم.

تطبيقاً لهذه السياسة ألحق حسن ابن السير علي التوم ناظر الكبابيش بنفس المدرسة كما ألحق هارون ابن أحمد عمر ناظر الجوامعة وابن عمه الطيب هارون بمدرسة الدويم الريفية الوسطى.

كان مع منصور مجموعة من الأصدقاء الذين يسمر معهم ولا تخلو مجالسهم في (فريق أبو خمسة) بالأبيض من تجاوزات وهو حي عرف بذلك.

وقد كان منصور متزوجاً كما سبق بيانه من ابنة الناظر ناصر محمد الشيخ، جدية، حتى يذهب إلى المدرسة مستكملاً نص دينه ويشعر بالمسئولية. وفي لحظة دعابة ذهب أحد الأصدقاء إلى مكتب البريد وأخذ ورقة تلغراف وكتب عليها برقية (ابننا منصور منعم المدرسة الأميرية الوسطى رزقتم بمولودة أسميناها نفيسة مبروك ... والدكم).

فأصبح اسمه من لحظتها (أبو نفيسة) وقرر الأصدقاء الاحتفال بالمناسبة والتي يبدو أنها تجاوزت حدود السهر فحضر مع بعض الأصدقاء متأخراً في طابور الصباح قبل بدء الدراسة.

ويبدو أن الحادثة لم تكن الأولى فقرر الناظر، عمر سليمان، توقيع عقوبة الجلد عليهم.

وكما قام بعضهم بتزيين الوضع الجديد له كأب حرضوه خفية بعدم الامتثال للجلد، (وتنبر) أنا أبونفيسة فاعتدى على (الأربعة) من الفراشين وكبار الطلبة الذين يرفعون الطالب من يديه ورجليه ليتلقى العقوبة.

ولما كان الرفض والاعتداء أمام الطلبة في الطابور بحضور الناظر وكل الأساتذة فقد قرر الناظر أن يرفع الأمر إلى مدير المديرية في الأبيض نسبة لمكانة والد الطالب والذي ربما كان يتعرض للفصل من المدرسة إذا لم يكن والده ناظر قبيلة.

استدعى المدير الطالب بعد أن تأكد على تكرار سوء السلوك الذي بدر منه الأمر الذي يتطلب تأديبه حتى يكون مطيعاً ومنضبطاً لكي يكون جديراً بمنصب وكيل ناظر عموم دار حمر في المستقبل.

كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م-١٩٤٥م) دائرة في ذلك الوقت وقوة دفاع السودان تحارب في الحبشة التي اعتدت عليها إيطاليا وهناك (بلوك: كتيبة) تستعد للسفر إلى هناك فقام مدير المديرية بإلحاقه بها وسافر منصور مجنداً إلى الحبشة.

ولما كان قد دخل المدرسة الوسطى ويعرف قدراً من اللغة الإنجليزية فقد عينه رئيس الفرقة في درجة (بلوك أمين) أي أمين مخازن أو ما شابه دون إعفائه من كافة التدريبات العسكرية التي يؤديها الجنود المستجدون حتى يكون في تمام الاستعداد للخدمة.

وبعدما استقر به المقام جندياً في قوة دفاع السودان أخطر مدير المديرية الشيخ منعم بالإجراء التأديبي الذي أتخذه بشأن (إبننا) منصور، وقد وافقه الوالد لعلمه أن ما تم في صالح الولد ومستقبل القبيلة.

جال في خاطري كل ذلك في شريط سريع وبدأت أستعد لمرحلة جديدة في حياتي خاصة بعد أن أخطر المستر ماكوماس والدي بأني رفضت كل العروض التي قدمت لي.

وبعد انتهاء إجازة نصف السنة وأنا أستعد للسفر إلى حنتوب للفصل النهائي في المرحلة الثانوية والجلوس لامتحان الشهادة أبلغني والدي بأنه لا يوافق على سفري ولا على تكملة المرحلة الثانوية أو الجلوس لامتحان الشهادة ما دمت قد خالفت قرار المستر ماكوماس.

ورغم ما قدمت من شرح وما تطوع به الوسطاء لم يتغير الموقف. ولحسن الحظ فقد كان على أيامنا، ولا أدري الحال اليوم، فقد كان يصرف لنا أول العام كل الكتب المقررة في كل العلوم ونتعهد بإعادتها آخر كل سنة دراسية.

ولما كانت معي كتبي فقد بدأت مذاكرة يومية جادة لكل المواد ما عدا مادة الجغرافيا التي يعشقها عبدالله زكريا ورأيت أن مقررها أطول من أن أستوعبه بدون مساعدة أستاذ في فصل فقررت أن أسقطها من المواد التي سوف أجلس لها وبمعنى آخر بلغة الطلبة في زمننا أن (أدكها) وقد كان.

ولما كان الحد الأدنى للعلوم التي تؤهل الطالب للشهادة هو ستة علوم فقد ركزت على: اللغة الإنجليزية، الأدب الإنجليزي، الرياضيات الأولية، التاريخ، اللغة العربية، العلوم الأولية والعلوم المتقدمة.

وقد كان من الممكن أن أضيف عليها علم (الصحة العامة) Hygiene وهو علم بسيط وسهل ولكن لم يكن لديه كتاب في المقررات فآثرت عدم المغامرة.

حاول بعض الأهل تقديم عون مالي يمكنني من السفر ودفع القسط الأخير من مصروفات المدرسة ولكنهم تهيبوا أن يعرف والدي بالأمر إذ كان التعليم في غالبه (مجاناً) ما عدا الطلبة الذين أباؤهم مقتدرون.

غير أن العم عثمان، زوج خالتي فاطمة، حضر من صقع الجمل واستفرد بي ليلاً وسلمني (حِجْل) من الفضة ثقيل الوزن وحتى لا يحرجني فقد أكد لي أن هذا (الحِجْل) أحد مخلفات المصوغات التي تركتها والدتي عند وفاتها منذ حوالي ١٥ عاماً وظلت خالتي تحتفظ به وتذكرته هذه الأيام عندما سمعت بحالتي.

وطلب مني عدم بيعه إلا بعد عودته بعدة أيام إلى صقع الجمل حتى لا يربط أحد بين الزيارة والبيع، ونصحني أن يتم البيع لدى مولانا الصائغ عباس الفكي علي عبدالماجد وهو شيخ ورع وفقيه النهود الأول. وهو ابن عم منصور خالد عبدالماجد المشهور بدكتور

منصور خالد، وخال إدريس الصوييم رائد الحركة الوطنية الأول بمدينة النهود قبل انتقاله إلى مدينة نيالا عندما أصبحت المركز التجاري الأهم في دارفور بعد وصول خط السكة الحديد إليها.

قام أخي محمد الشيخ منعم بعملية البيع وقد اخترته للمهمة لأنه معروف لدى مولانا عباس الفكي علي بصفته أحد تلاميذه في معهد النهود العلمي وبصفته، وهذا الأهم، الشخص الذي يعهد إليه والدي سنوياً بحمل ما لديه من ذهب وفضة ليذهب بها إلى مولانا لوزنها وتحديد (الزكاة).

ونسبة لحجم وزن (الحِجْل) فقد كان مبلغه كافياً لمقابلة كل احتياجاتي وساعدني بكل التقتير الذي مارسته والمساعدة من أخي منصور لفترة طويلة.

وبعد ظهور نتيجة الشهادة الثانوية حصلت على الدرجة الأولى التي تؤهلني للدخول إلى أي كلية، ولكني كما ذكرت فقد وضعت كلية الزراعة أسبقيتي الأولى امتثالاً لحديث أو تحذير المستر ماكوماس للبعد عن كلية الطب واختيار أي كلية أخرى لقضاء سنتين فيها.

وقد جاء اختيار كلية الزراعة لأن من المتقدمين لها الصديق منذ مدرسة الدويم الريفية الوسطى مهلب عبد الرحمن علي طه ولأنها بعيدة من الخرطوم، في ضاحية شمبات، ولا أتعرض منها أو هكذا خيل لي إلى المضايقات من المستر ماكوماس وأعوانه.

ولكن الدراسة لم تبدأ في يناير ١٩٥٢م كما كان معلوماً لنا إذ تم تغيير التقويم لكي تبدأ السنة الدراسية الجامعية في أول يوليو من كل عام، وكذلك الميزانية السنوية للحكومة.

وقد شغلت نفسي بالمذاكرة وكذلك بإعطاء دروس في الرياضيات لأبناء عبدالله وبشير محمود وهما من (قبيلة البرياب) التي سكنت صقع الجمل في كنف عميدها ولكن من أركان حمر أيضاً الشرتاي بخاري علي وسأتطرق له في الحديث عن القبيلة، أما عبدالله وبشير محمود، ومعهما أخوهما إبراهيم محمود، فقد كانا من كبار تجار صقع الجمل فالنهود فيما بعد.ومن أقرباء الدكتور الدرديري إبراهيم.

وعند قرب بدء الدراسة توجهت للخرطوم واستضافني عبدالرحمن عمر عبدالله أول نائب برلماني لدورتين عن الدائرة الشمالية الشرقية لدار حمر في أول انتخابات حددت استقلال السودان.

قابلني بالخرطوم ثلاثة من أبناء النهود أحدهم محمد البشير مفرح طالب كلية البيطرة وخال بشير آدم رحمة ووالد زوجته إسراء وأخبرني أن مسئول الطلبة بالكلية (إبراهيم أحمد) يسأل عني.

وبعد التشاور مع بعض الأصدقاء قررت أن ابتعد عن محيط كلية الخرطوم الجامعية ولا أتابع قبولي في كلية الزراعة رغم إلحاح مهلب وتقدمت لوظيفة محاسب في شركة النور والقوى الكهربائية (Sudan Light & Power Company) وكانت بجانب قيامها بتوليد الطاقة الحرارية للكهرباء في (بري) تقوم بتسيير خطوط مواصلات ترام كهربائي بين الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري، وترام بخار بين الخرطوم بحري وشمبات حتى شاطئ النيل.

هذا بالإضافة إلى احتكار تسيير بصات تربط الخرطوم بأم درمان حتى محطة (ود أورو) وبخط آخر حتى (أبوروف) على شاطئ النيل مقابل مرسى نهاية خط ترام البخار.

يربط بين أبوروف وشمبات خط نهري (معدية) وبالإضافة إلى كل ذلك فإن الشركة مسئولة عن صيانة كبري الخرطوم أم درمان وكبري الخرطوم بحري الخرطوم وتحصل عن كل سيارة تاكسي بين الخرطوم وأم درمان مبلغ خمسة قروش في كل رحلة ونصف هذا المبلغ ما بين الخرطوم والخرطوم بحري.

وقد وضح لنا فيما بعد أن كلا الجسرين شيد على نظام البوت (BOT) باحتكار لمدة ثلاثين عاماً انتهت في ١٩٥١م. قابلني مدير الشركة بترحاب كبير ونصحني أن شهادتي تؤهلني للدراسة العليا ولكن إذا كانت ظروفي لا تسمح من الأفضل أن أتقدم لمعهد عال أسس حديثاً ويتبع لمصلحة الأشغال العمومية ويقوم بتدريس علوم الهندسة المختلفة: مدنية وكهربائية وميكانيكية كما أنه، وهذا مهم في حالتي، يعتبر الطلاب المقبولون موظفين بالمصلحة في درجة (J) الحكومية وتستوعبهم الأشغال العمومية في خدمتها بمجرد تخرجهم كما أن فيه فرصاً لبعثات في بريطانيا.

شكرته وراقت لي الفكرة وعند مناقشتها مع بعض أبناء الدفعة علمت منهم أنهم تقدموا للمعهد الفني الجديد وتم استيعابهم في خدمة الأشغال وستبدأ الدراسة في نفس التاريخ مع كلية الخرطوم الجامعية.

وأننا سنكون الدفعة الثانية في المعهد لأن المعهد بدأ الدراسة قبل سنة التحق به من أبناء حنتوب بابكر علي التوم.

وقد كانت لبابكر شهرة لدينا لأنه أحد أركان البطولة المحبوبة في مسرحية (الرجل والسلاح) للكاتب الأيرلندي الشهير بيرنادشو (Arms and The Man) انخرطت مع الأخوة حميدة محمد الهادي، أحمد خليل، بدر الدين إبراهيم وغيرهم.

وقبل أن أصرف مرتب شهر يوليو ١٩٥٢م، وكان ١٨ جنيهاً مصرياً إذ كانت العملة القانونية هي الجنيه المصري إذ نحن تحت الحكم الثنائي البريطاني المصري. قبل الصرف بأسبوع أذاع اليوزباشي محمد أنور السادات البلاغ رقم (١) بقيام ثورة ٢٣يوليو في مصر بقيادة اللواء أركان حرب محمد نجيب.

في هذه الأثناء ظل البحث عني جارياً إلى أن تقدمنا في المعهد الفني بعريضة بأن يكون مرتب الخريج في الدرجة أتش (H) وليس (J/H) وحضرت للمعهد لجنة برئاسة المهندس ومسئول شئون الطلبة في كلية الخرطوم الجامعية (إبراهيم أحمد/ وزير المالية في الديمقراطية الأولى ومدير البنك التجاري السوداني عند قيامه عام ١٩٦١م).

وعند مرور اللجنة على الفصول والورش لمحني إبراهيم أحمد وبفراسة غير عادية قارن الشبه بيني وبين والدي ولكنه تريث إلى أن ذهب وطلب من محمد البشير مفرح أن يتأكد أنني في المعهد الفني أم أن من رآه مجرد شبه.

ولما رأيت الرسول اختفيت منه ونبهت زملائي بأن ينكروا وجودي وسطهم. وفجأة سمعت في الإذاعة المصرية وقرأت في الصحف السودانية أن قائد الثورة اللواء محمد نجيب والذي ينسب،بحق، إلى أصول سودانية قد أعلن أن أي طالب (ناجح) في الشهادة بصرف النظر عن درجاته ويريد الالتحاق بالجامعات المصرية سوف تجد له الثورة مكاناً.

ولم يثر الإعلان في نفسي شعوراً غير عادي إلا عند عطلة نهاية الأسبوع إذ قابلت في (المحطة الوسطى) بالخرطوم وهو ملتقى الترام القادم من أم درمان والخرطوم بحري والذي يربط بطريقة دائرية بعض أجزاء الخرطوم عن طريق شارع السيد عبدالرحمن الحالي ويسمى (ترماي الدوران) قابلت أحد أساتذتي البريطانيين في حنتوب ويدعي جون لويس

جونز(John Lewis Jones) وكان يدرس مادة الأدب الإنجليزي والتاريخ والتربية الوطنية(Civics).

سألني في أي كلية أدرس فسردت له باختصار ما حدث مع المستر ماكوماس حتى لحظة مقابلته وأني ربما سافرت إلى مصر لدراسة الطب، بادرني بسرعة Don't

بعد قيام الانقلاب المصري وأحاديث السياسة سوف تحدث تغييرات في الوضع بالسودان، وسواء حدثت أو لم تحدث فإن مستقبل السودان يتطلب أن يتجه الطلبة المبرزون إلى العلوم الإنسانية، وأنه سر كثيراً لاتجاه حسن الترابي لدراسة القانون لا الطب والهندسة.

وبما أن كلية الخرطوم الجامعية ليس بها كلية لتدريس الاقتصاد فإنه ينصحني إذا اتجهت إلى مصر أن أدرس الاقتصاد، وتساءلت ما هو الاقتصاد؟ تبسم ووعدني إذا حضرت غداً في نفس المكان والموعد أن يهديني كتاباً مبسطاً يجيب على سؤالي ثم نجلس لنتناقش بعد ذلك بأيام.

وفي جلسة بمكتبه في مصلحة المعارف التي نقل إليها من مدرسة حنتوب أقنعني تماماً بتغيير مساري إذ حبب لي العلم. وزاد عليه بأنه هو الذي يحرك تقدم البلاد أما الأطباء أو المهندسون فيمكن استئجارهم من أي مكان غير أن العاملين في حقل الاقتصاد والقانون يشكلون المجموعة التي تقود البلاد سياسياً على أساس من العلم وليس الهواية. ولا أريد أن أعلق على اتجاه مجموعات الأطباء الذين تسربوا للقيادة السياسية.

وبعد أن صرفت مرتب شهر أغسطس ١٩٥٢م بدأت أبحث عن رفاق درب إلى مصر فوجدت شرف الدين مصطفى شرف الدين أحد أبناء الدفعة من واد مدني وحنتوب وأخ مشرف الداخلية وأستاذ العلوم إبراهيم مصطفى.

وقد أخبرني شرف الدين أن أخاه الطبيب دفع الله مصطفى حكيمباشى مستشفى بورت سودان ذهب في إجازة إلى مصر ورتب له القبول بكلية طب الدمرداش.

لقب حكيمباشى كان سائداً ويعني الحكيم (الطبيب) المسئول عن المستشفى. أما الدمرداش فكان أحد الخيرين المصريين الذي أنشأ على نفقته كلية للطب أصبحت فيما بعد معروفة باسم كلية طب عين شمس.

إلى مصر: مع كل الود والحب:

استخرت الله وتوجهنا ذات صباح مع شرف الدين مصطفى سوياً إلى محطة سكك حديد الخرطوم وغادرنا بقطار حلفا متجهين نحو القاهرة. لم أخطر أحداً سوى عبد الرحمن عمر عبدالله الذي ودعني مشفقاً. وسوى التجاني محمد أحمد الصحفي بجريدة السودان الجديد على عهد أحمد يوسف إبراهيم (أبو الصحف) وهو زميل صغر وصبا عمر، وسأتناوله في موضوع خاص. رافقنا في القطار طالب يلبس بدلة كاملة ويتحدث بطلاقة وثقة وقدم لنا نفسه بأنه طالب في القاهرة واستبشرنا به فشخصيته المحببة التي تألفها من أول وهلة وعرفت أنه من (بارا) بكردفان اسمه حيدر مكي فاقتربت منه أكثر.

عرفنا منه أنه بوصولنا مدينة (وادي حلفا) حلفا القديمة قبل قيام السد العالي الذي أغرقتها مياهه، سوف نستقل باخرة نيلية بها صندل درجة ثانية يركبه في العادة الطلبة فقط إذ إن الحكومة المصرية تمنح تصاريح سفر مجانية بالدرجة الثانية بالقطار من الإسكندرية أو القاهرة إلى أسوان ثم بالباخرة وبالقطار إلى الخرطوم وبالعكس.

وعليه وبما أن الباخرة سوف لا يكون فيها ركاب إلا الطلبة فلا داعي لشراء تذاكر من حلفا إلى أسوان، وبما أن الأخ شرف الدين مصطفى له أخ معلم هو إبراهيم مصطفى فقد

استخرج له (تصاريح سفر) على كفالته وأصبح الأمر متعلقاً بي أنا فقط لأن حيدر لديه (تصاريح سفر) من الحكومة المصرية وهو عائد من الإجازة.

دخلت الباخرة دون تذكرة وفي (قمرة) الدرجة الثانية والتي بها سريران فوق بعضهما ورغم إصرار حيدر فقد رفضت أن أنام على أي من السريرين واستلقيت على بطانية بالأرضية واستغرقنا جميعاً في نوم عميق بعد رحلة طويلة بدأت من الخرطوم ويفترض أن تنتهي صباح اليوم التالي في الشلال، الميناء البحري، لمدينة أسوان المصرية. شعرنا ليلاً بأن باب (القمرة) قد فتح وأن شخصاً أضاء نور (بطارية طورش) ثم قفل الباب دون أن يتحدث إلينا.

نزلنا في الأرض المصرية وفحص ضباط الجوازات وثيقة السفر وتسمى (الشهادة بـ Certificate B) ولم يكن تفتيش جمركي يذكر في أغراض الطلبة.

وبما أن حيدر قدم النصح ووفر لي تكلفة التذكرة فقد بدأت أرتب معه كيفية التصرف في ركوب (قطار الصعيد) كما كان يسمى والذي سيقلنا إلى القاهرة في الرابعة عصراً لنصل نهار اليوم التالي لنبدأ إجراءات التقديم للدراسة وتدبير أمر السكن.

وفجأة حضر عسكري مصري وطلب مني ومن حيدر أخذ أمتعتنا والتوجه معه لمكتب جناب البكباشي (المقدم) وجدنا مع البكباشي أحد السودانيين قدم نفسه بأنه وكيل سكك حديد السودان بين حلفا والشلال وإنه المسئول عن إدارة البواخر التي تسير بين البلدين وطلب منا إبراز التذاكر التي ركبنا بها الباخرة من حلفا.

كان ردي بأني علمت أن الباخرة مخصصة للطلبة وركبت بدون تذكرة على أساس ان (الكمساري) سوف يفتش الركاب كالعادة وسأدفع قيمة التذكرة. دافع عني حيدر بأن هذه أول مرة أسافر لمصر وأنه لا يعرف أنه كان عليه شراء تذكرة مقدماً.

لم يقتنع وكيل السكة حديد وأمر البكباشي المصري العسكري أن يأخذنا إلى (الحبس) وهكذا أول ما وطئت رجلي أرض الكنانة كانت في سجن (ميناء الشلال) وهو غرفة متر ونصف في ثلاثة أمتار عليها في جانب (مصطبة) جلسنا عليها وأنا غير مصدق. أما حيدر فكان في حالة اعتذار، حقيقي، بأنه السبب، ولكنها ستفرج.

كنت في ذلك الوقت أدخن السجائر وكانت الماركة المنتشرة في السودان هي (البحاري) وليست معروفة في مصر لوجود إنتاج محلي رخيص السعر وإنتاج مستورد سعره ليس في متناول العامة والعساكر.

تساءل العسكري عن ماركة السجائر التي أدخنها وأطلعته عليها وعرضت عليه بدل السجارة الواحدة سجارتين فكان أن ذاب الجليد وسألنا إن كنا قد تناولنا وجبة الإفطار أو نحتاج إلى (جرانيل، ترجمها لي حيدر بأنه يعني جرايد) نفرشها على المصطبة لنكون أكثر راحة.

وقبل بدء التعامل معه جاء عسكري آخر وطلب الذهاب معه إلى المكتب وعند دخولنا وجدنا وجبة إفطار كاملة في مستوى ما يقدم على قطارات سكك حديد السودان.

وهنا فقط عرفنا اسم وكيل السكة الحديد: محمد كرار، من واد مدني وشقيق كل من إبراهيم كرار لاعب فريق الاتحاد مدني ولقبه أبو حمامة، وكذلك شقيق زميلنا بابكر كرار.

وبعد الإفطار عدنا إلى السجن وحوالي الساعة الثالثة والنصف ظهراً أخذنا محمد كرار إلى محطة السكة الحديد واشترى لي تذكرة درجة ثانية إلى القاهرة على حسابه واحتجز حيدر في الشلال عقاباً له. لقد رصدنا محمد كرار في حلفا. فهو من واد مدني ويعرف شرف الدين وقطعاً تأكد له أني وحيدر لسنا من بلدة مدني ولم أتقدم لشباك التذاكر لأشتري تذكرة.

حكى لي حيدر فيما بعد أنه بمجرد أن تحرك القطار أركبه معه سيارته وذهب به إلى منزله وقدمه لأسرته وحذره من المسلك الذي سار فيه وأنه كان من الممكن أن يدخل طالباً بريئاً، هو أنا، في مشاكل تعرقل مستقبله في بلد كمصر قبل أن يبدأ الدراسة.

ورغم ذلك فقد صاحب الأسرة في جولة حول أسوان والخزان ثم دخول السينما، وفي اليوم التالي اصطحبه إلى محطة السكة الحديد وأشرف على سفره للقاهرة.

أما أنا فقد قررت هذه المرة أن (أربط كفاحي) كما كنا نقول مع زميل حنتوب والرحلة، والحياة فيما بعد، شرف الدين مصطفى.

وتعرفنا في القطار على طالب في كلية الزراعة اسمه محمد الغالي سليمان: أحد خبراء الزراعة وتصنيع السكر بالسودان فيما بعد. وأوصلنا معه من (محطة مصر) إلى أحد بيوت السودان الثلاثة في القاهرة التي خصصت لسكن الطلبة الجامعيين: المنيرة المبتديان والقصر العيني. وذهبنا معه إلى بيت السودان في المنيرة. توفى محمد الغالي سليمان بعد عطاء لا يقدر في مجال السكر، وفي صمت في أبريل ٢٠١١م وللأسف قرأت نعيه بعد فترة ولم أتمكن لظروفي الصحية من التعزية فيه.

وكان هناك بيت رابع للطلبة السودانيين بمصر: في الجيزة لم أتعرف عليه إلا بعد شهور تستأجره حكومة السودان لا الحكومة المصرية. وخصصته للطلبة الذين تبعثهم

حكومة السودان من خريجي معهد أم درمان العلمي القسم العالي (الثانوي) ليلتحقوا بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) وهؤلاء يتم تعيينهم معلمين في المدارس الوسطى ويرسلون للقاهرة وهم موظفون ليعودوا للتدريس في مدارسهم. وهم في هذا الموضع يتعاطون بجانب السكن المجاني الكامل مرتباتهم في هيئة التدريس وتضاف لها علاوة (البعثة الدراسية) التي تمنح للطلبة الذين يبعثون إلى المملكة المتحدة وهي ثلاثون جنيهاً إسترلينياً في الشهر - تقل قليلاً عن الثلاثين جنيه مصري - بالإضافة إلى (بدل لبس) ومبلغاً لشراء الكتب ومعينات الدراسة الأخرى. وهؤلاء قلما يختلطون ببقية الطلبة ولهم وضعهم المميز لدى (وكيل حكومة السودان- السفير السوداني بعد الاستقلال) وبالطبع ليست لهم علاقة مع الحكومة المصرية ولا وكيل وزارة شئون السودان الدرديري أحمد إسماعيل، والمسئول عن الطلبة الذين يدرسون على نفقة الحكومة المصرية.

وفي صباح ٣ سبتمبر ١٩٥٢م دخلت مصر من البوابة الجنوبية الشلال وقضيت بعض النهار في سجنها وفي ٤ سبتمبر وصلت القاهرة مع شرف الدين مصطفى واستقر بنا المقام في بيت السودان وأخبرنا المشرف أنه غير مسموح بالسكن إلا للطلبة المسجلين في الكليات والذين تتسلم إدارة البيت إخطاراً بأسمائهم. وتوسط محمد الغالي بأننا سنحتفظ فقط بأمتعتنا لديه وسوف ندبر أمر قضاء ليلتنا وما بعدها. مكان التقاء الزوار والسكان بالسودان هو ما نعرفه باسم (المحطة الوسطى) سواء في الخرطوم أو أم درمان شمال المسجد العتيق أو الخرطوم بحري بين مجلس بلدي مدينة بحري ومسجدها الكبير، ولذا سألنا الأخ الغالي عن المحطة الوسطى في القاهرة لأني تذكرت أن ابن حنتوب وابن النهود الشيخ أحمد جحا يدرس الطب بالقاهرة وعلمت أنه يسكن في (شقة) خارج بيوت السودان، كما أن

شرف الدين أخبره أن أخاه دفع الله الطبيب بالسودان وحكيمباشى مستشفى بورت سودان ينتظره في كلية طب الدمرداش حسب البرقية التي تلقاها قبل مغادرته الخرطوم. طمأننا الغالي بأن الشيخ أحمد جحا يدرس الطب في نفس الكلية وأنه سوف يحصل لنا على عنوانه إذ يمكنه إذا سمحت ظروف شقته أن يستضيفنا هذه الليلة. حصلنا على العنوان وأركبنا الغالي الترام الذي سيصل بنا إلى مكان اسمه (ميدان الإسماعيلية- ميدان التحرير فيما بعد) وتنطلق من هذا الميدان بصات إلى مختلف نواحي القاهرة وطلب منا أن نركب البص (الأوتوبيس كما يسمى في مصر) رقم ٣٠ المتجه إلى حدائق القبة ونطلب من الكمساري أن ننزل في محطة جامع الملك وسنجد في المحطة دكاناً كتب عليه(بقالة الصدق والأمانة) سيدلنا صاحبها على منزل الشيخ جحا. اجتهدنا في حفظ كل هذه الأسماء ولكننا رأينا- لسبب ما – أن نختصر الأمر إذ ربما لا تسعنا شقة الشيخ جحا أو لا نهتدي إليها بهذا الوصف. فقررنا أن نسأل (السودانيين) الذين رأينا عدداً منهم في ميدان الإسماعيلية عن دكتور دفع الله مصطفى حكيمباشى مستشفى بورت سودان والذي لابد أن يكون معروفاً لعدد منهم إن لم يكن لهم كلهم. فصرنا كلما رأينا وجهاً (أسمر) نسرع إليه في بشاشة ونسأله عن دكتور دفع الله مصطفى حكيمباشى مستشفى بورت سودان.

ولقد ساءنا أول الأمر أن بعضهم لم يحفل حتى بالرد علينا وتركنا ومشى لحاله، كما دهشنا عندما تساءل بعضهم عن حكيمباشى يعني إيه... وبعد عدة محاولات يائسة حكمنا فيها على السودانيين بمصر (لئام ومتعالين) إذ كيف لا يعرفون طبيباً مثل حكيمباشى مستشفى بورت سودان أو لا يعرفون حتى لقب حكيمباشى. رجعنا بعد ذلك نتذكر الورقة التي كتبنا عليها خريطة الطريق إلى منزل الشيخ جحا، وبدأنا نبحث عن الأوتوبيس (٣٠)

فجاء إلينا شخص أسمر ربما رأى حيرتنا وتنقلنا من شخص أسمر إلى أخر وسلم علينا سلاماً بعث فينا الطمأنينة وسألنا متى وصلنا من السودان وماذا نريد؟ ولما قصصنا عليه أمرنا ضحك وقال لنا ليس كل أسمر سوداني وهؤلاء بعضهم من النوبة وبعضهم من الصعيد وفي جميع الأحوال لا أحد في مصر يعرف لقب حكيمباشى، أما الأطباء في مكانة دفع الله مصطفى فالذين يعملون في عيادات خاصة في هذا الميدان وحده أكثر من كل أطباء السودان. وبعد أن راجع معنا الخريطة طمأننا على سلامة الطريق وأننا سوف نصل بالسلامة وطلب منا إبلاغ دكتور جحا سلام: سيف الدولة يحيى عمران وهو الشخص الأسمر الذي أعاد لنا الطمأنينة والذي يدرس القانون بمصر وهو ابن القاضي يحيى عمران. واستقبلنا الشيخ أحمد جحا بترحاب بالغ وطمأن شرف الدين أنه سيقابل أخاه غداً في التاسعة صباحاً التي يحضر فيها إلى الكلية كل يوم. أما أنا فقد أخبرني أن الجامعات مقفلة حالياً لأسباب سياسية ولكن عملية القبول تتم بالنسبة للسودانيين بشكل منتظم عن طريق مكتب الدرديري أحمد إسماعيل- رئيس حزب وحدة وادي النيل بالسودان- والذي عينته الثورة في منصب وكيل وزارة شئون السودان. وقد تمت إجراءات قبول شرف الدين وقبولي بيسر فائق إذ فرغ الشيخ جحا يوماً صاحبني فيه للمكاتب المختصة وإلى أن تم استخراج بطاقات القبول للالتحاق في السكن ببيوت السودان أما الشيخ جحا إذ كان يسكن في شقة فسيحة بها أربع غرف إثنتان منها بها أثاث يخص أحد السودانيين الذين كانوا يعملون مع القوات البريطانية في قناة السويس واستقالوا إستجابة لنداء حكومة النحاس باشا قبل الثورة بمقاطعة القوات البريطانية. بذل الأخ الشيخ جحا مجهوداً معي لكي أدخل كلية الصيدلة إذا كنت مصمماً ألا أدخل كلية الطب. لكني تمسكت بكلية التجارة. والحقتني إدارة البعثات ببيت السودان في حي

(المبتديان) وتقع الكلية التابعة لجامعة إبراهيم باشا الكبير والتي أعيد تسميتها بجامعة عين شمس على بعد قريب من بيت المبتديان الذي يسكنه عدد أقل من الطلبة مقارنة بالبيتين الآخرين وأغلبهم يدرسون في كلية دار العلوم التابعة لجامعة فؤاد الأول ثم أصبحت جامعة القاهرة والتي تقع أيضاً على بعد قريب من البيت.

المنطقة هادئة نهاراً ولا تشعر فيها بالصخب الذي تتميز به القاهرة عموماً ولكن ما أن يأتي الليل- حوالي العاشرة مساء- حتى تشعر بدرجة كبيرة من الإزعاج المنظم إذ يبعد بيت المبتديان حوالي خمسين متراً من محطة سكة حديد حلوان وهي المحطة التي تربط بين القاهرة وحلوان بقطار كل نصف ساعة فتسمع (صفارة القطار) وهو يدخل المحطة ثم وهو يغادر المحطة ولا تتوقف الحركة إلا بين الساعة الثانية والرابعة صباحاً ومن عجب فبعد الأسبوع الأول أصبحت معتاداً على صوت الصفارة والتي صارت تمثل منبه للصحيان المبكر. وقد قضيت السنة الأولى في جو جامعي من الحرية في الدخول إلى المدرجات المكتظة بالطلبة أو الجلوس في البوفيه للإجابة على الأسئلة الجادة والفضولية من الطلبة المصريين الذين اكتشفت أن معلوماتهم (السياسية) سواء عن مصر أو السودان ضحلة للغاية مقارنة بمجتمع الطلاب السودانيين الذي جئت منه والذي تخرج منه سياسيون أكثر كما تخرج منه طلبة نسبة لانشغالهم الزائد بالسياسة.

صراعات الطلبة السودانيين السياسية انعكست بالطبع على (لجنة المطعم) في بيت السودان والتي تشرف على استلام المأكولات مع الطباخ من المتعهد الذي يوردها. وحسماً للخلافات رأوا أن يوكل أمر اللجنة إلى الطلبة الجدد الذين لم ينخرطوا بعد في الخلافات. كان موسم الفواكه هو موسم البرتقال أبو صرة الشهير- عجيباً- طلب الزملاء أن يتم التغيير إلى

(التفاح) وكان التفاح بالنسبة لي موضوعاً قرأته في كتاب (المطالعة) ثم في دراسة النحو عند استخدام (لا سيما) فمرة تقرأ: أن أكل الفاكهة ينقي الدم ولا سيما تفاحة على الريق، وكلمة تفاحة تقرأ مرفوعة ومرة منصوبة ومرة مخفوضة، ولكل معنى عند علماء النحو، ولكني ومعي بعض المستجدين لم نرى التفاح ولم نأكله. طلبت من المتعهد أن يحضر في اليوم التالي بدل البرتقال تفاحاً، وخشية من أن يأتي بالتفاح ذي اللون الأحمر الذي يقل حلاوة عن التفاح الأصفر وارغمته وامتثل للأمر وجاء بتفاح أصفر وبما أني لم أر تفاحاً في حياتي ووقع نظري على اللون الأصفر في الفاكهة المستديرة فقد رفعت حنجرتي رافضاً البرتقال وطالباً التفاح كما أمرته في اليوم السابق، وابتسم المتعهد في خبث بعد أن اكتشف جهلي وغمز إلى الطباخ الذي همس لي وأنقذ الموقف. ومن يومها خرجت من اللجنة.

كانت ثورة ٢٣ يوليو المصرية في شهورها الأولى قد دخلت ومنذ الوهلة الأولى في عداء مع كل الأحزاب المصرية خاصة حزب الوفد الذي كان يشكل أكثر من ٩٠٪ من الشعب المصري وكان يقود العمل السياسي ضد بريطانيا التي كانت تحتل مصر- في قناة السويس- بحجة حماية الملاحة الدولية ومصالح الإمبراطورية في آسيا ووقاية للعالم (الحر) من أي تغول من الاتحاد السوفيتي. أصدرت الثورة قراراً بحل جميع الأحزاب وأبقت على جماعة (الأخوان المسلمين) باعتبارها جماعة دينية لا تعمل بالسياسة، وكان يدور همس أن عبد اللطيف البغدادي وحسين الشافعي وهما من مجلس قيادة الثورة من مؤيدي الجماعة بل أن البعض كان يهمس أن جمال عبد الناصر زعيم تنظيم الضباط الأحرار الذي قاد الثورة فعلاً وأعطى القيادة ظاهراً إلى اللواء محمد نجيب كان يوماً من الأخوان المسلمين. وقد ضمت الوزارة المصرية إثنين من قيادات الأخوان المسلمين هما أحمد حسن الباقوري

وعبدالعزيز كامل الذي سبقت الإشارة إليه في علاقته مع عبدالله زكريا. غير أن الجماعة بقيادة المرشد القاضي حسن الهضيبي (بك قبل إلغاء الألقاب) رأت بطريقة أو أخرى إحتواء الثورة وطالبت أن تقوم هي بتعيين من يمثلها في الوزارة ولما لم تستجيب الثورة فصلت الوزيرين من التنظيم، ثم رأت الثورة المصرية أن يكون لها تنظيم سياسي يمثلها بعيداً عن الأحزاب وعن الأخوان المسلمين فأسست(هيئة التحرير) وأطلق اللواء محمد نجيب شعار الثورة في (الاتحاد والنظام اوالعمل) وهكذا أصبح للثورة أعداؤها من الأحزاب ومن الأخوان المسلمين الذين رفضت الأحزاب التنسيق او التعاون معهم لأنهم ناصروا الثورة عليهم واتهموهم بالتآمر عليهم.

كان الطلبة السودانيون في مصر في لب الصراع الدائر، بعضهم ينتمون للحركات اليسارية العديدة في مصر بعكس حركة اليسار الوحيدة وقتها في السودان والمعروفة باسم(الحركة السودانية للتحرر الوطني- الحزب الشيوعي السوداني فيما بعد) وبعضهم كانوا في جماعة الأخوان المسلمين وبعضهم- وهم قليل- شايع هيئة التحرير الحزب الحكومي.وكما هي العادة كان الخلاف بيننا كما هو في السودان رغم المخاطر التي قابلت البعض. وفي هذه الأثناء كلفت الثورة المصرية أحد أبرز أعضائها وهو الصاغ (الرائد) صلاح سالم بتولي ملف السودان يساعده عدد من زملائه ضباط الجيش اشتهر منهم الصاغ أبو نار. كما كانت الثورة تقود مفاوضات جادة مع الحكومة البريطانية بشأن الجلاء عن مصر- وعن السودان. وقد كان موضوع السودان دائماً هو العقبة في المفاوضات المصرية البريطانية منذ عام ١٩٣٦م إذ إن بريطانيا- والتي تولت قيادة أعادة فتح السودان بهزيمة الثورة المهدية باسم حكومة خديوي مصر بأنها تسعى لرفاهية الشعب السوداني وتأهيله لتقرير مصيره في الوقت المناسب، وأن

مسألة وحدة وادي النيل أمر يقرره شعب السودان خاصة بعد المفاوضات الفاشلة بين رئيس الوزراء صدقي باشا وبيفن وزير الخارجية البريطانية. لذلك اتجهت الثورة المصرية إلى كسب ود الأحزاب السودانية المتعددة سواء تلك التي تدعو للاستقلال بقيادة حزب الأمة أو التي تدعو للوحدة مع مصر بقيادة حزب الأشقاء. فقامت أولاً بتوحيد الأحزاب الاتحادية كلها في حزب واحد هو الحزب الوطني الاتحادي برئاسة إسماعيل الأزهري ثم دعت الإمام عبدالرحمن المهدي إلى مصر وتحدثت معه مطمئنة إلى أنها لا تسعى لفرض وحدة مع السودان بل تعمل على جلاء بريطانيا عن السودان وإعطاء السودانيين حق تقرر مصيرهم سواء بالاستقلال التام أو قيام نوع من الوحدة مع مصر.

وتحصلت الثورة بثقة في شخصية قائدها (الظاهر) اللواء محمد نجيب على تفويض من الأحزاب السودانية على التفاوض مع بريطانيا بهذا المفهوم. وقاد المفاوضات البكباشي أركان حرب جمال عبد الناصر مع قائد القوات البريطانية في قناة السويس (الجنرال هيد Head) ممثلاً للحكومة البريطانية. وطرحت مصر موضوع السودان أولاً وتم الإتفاق في ١٣فبراير ١٩٥٣م على (إتفاقية السودان) والتي نصت في أهم بنودها على: إنشاء لجنة تسمى لجنة الحاكم العام تشرف على تصرفاته وتقيد سلطاته في القيام بواجباته رئيسها باكستاني وأعضاؤها من مصر وبريطانيا والسودان- ولجنة للانتخابات رئيسها من الهند وأعضاؤها من مصر وبريطانيا والسودان تشرف على إجراء انتخابات عامة في السودان شماله وجنوبه لقيام برلمان من مجلسين: مجلس نواب- ومجلس شيوخ يشرّع للبلاد خلال فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات تبدأ من أول يناير ١٩٥٤م يقرر بعدها السودان في استفتاء عام إما الاستقلال كدولة- أو الاتحاد مع مصر. ونصت الاتفاقية أيضاً على قيام لجنة تشرف على إحلال

السودانيين مكان الأجانب العاملين في كل مرافق الدولة سميت لجنة(السودنة Sudanisation) تنتهي مهمتها قبيل الاستفتاء في أول يناير ١٩٥٦م إلاّ تلك الوظائف التي ترى الحكومة السودانية المنتخبة أن تبقى عليها باعتبار أنها ضرورية للبلاد أو لا تؤثر على الجو الحر المحايد للإستفتاء.وبموجب الإتفاقية فقد تم تعديل مسودة الدستور التي أعدها رئيس القضاء السوداني البريطاني الجنسية استانلي بيكر والتي كان من المقرر أن يحكم به السودان لولا قيام الثورة المصرية. وأصبح بموجب الاتفاقية والدستور للسودان مجلس وزراء ورئيس للوزراء- وزعيم للمعارضة على نسق الحكم في بريطانيا- مع تقييد في عدد الوزراء بحيث لا يتعدى الـ ١٥ وزيراً ولا يزيد عدد الوزراء غير المنتخبين منهم كأعضاء في البرلمان عن إثنين وتعزز بموجب الدستور موقف وسلطات لجنة الخدمة العامة التي تشرف على استقلالية الخدمة وعلى الترقيات لمناصبها خاصة العليا بحيث لا يتم تجاوز بسبب الحزبية أو المحسوبية أو عدم الكفاءة.

وجدت الاتفاقية معارضة عارمة من الحركة السودانية للتحرر الوطني (الحزب الشيوعي فيما بعد) بحجة أن بريطانيا لا تفي بالوعود، وأنه لم يحدث أن نال بلد حريته باتفاقية بين قوتي الاحتلال (بريطانيا ومصر) وفي وقت مصر نفسها فيه محتلة- وأن الحاكم العام رمز الإستعمار موجود ولا تستطيع (لجنة) أن توقف تصريفه لمسئولياته بموجب دستور(استانلي بيكر) والتي على رأسها، إعلان حالة الطوارئ في كل أو أجزاء من البلاد إذا حدث إنهيار أمني- أو اقتصادي- أو دستوري، وفي أي من هذه الحالات يمكن تعليق تنفيذ بنود الاتفاقية كلها أو بعضها بما يراه مناسباً- لمعالجة الموقف. كذلك عارض الاتفاقية جهراً السيد الدرديري (بك) وكيل الوزارة لشئون السودان الملحقة برئاسة مجلس الوزراء المصري.

وقد أوضح الدرديري عن رأيه أمامنا نحن الطلبة الذين كنا في زيارة لمكتبه في بعض المطالب كالعادة ورد على تلفون من الرئاسة بأنه سوف لا يحضر حفل التوقيع ولا الاحتفال المقام بالمناسبة وقال لمحدثه على الطرف الآخر بين دهشتنا كلم جمال قول ليهو الدرديري بقولك عملت زي النحاس باشا عند توقيع معاهدة عام ١٩٣٦م: خسرنا المعاهدة ولكن ربحنا صداقة الإنجليز، كان عبد الناصر ورجاله قد اعتادوا على صراحة الدرديري ولعلمهم بإخلاصه ووطنيته فإنهم كانوا يتقبلون نصحه وتعليقه في الشأن المصري والسوداني بكل موضوعية وحسن نية.

بتوقيع الاتفاقية تأجج الصراع بين الطلبة السودانيين في مصر - كما حدث أيضاً بين كل المواطنين من جهة اليسار ومن جهة أخرى- حدث نشاط محموم من قبل الصاغ صلاح سالم ومجموعته من الضباط لاستقطاب كل قطاعات الشعب خاصة الطلبة وغير المنتمين- وكذلك الجنوبيين. وفي محيط الطلبة طلب من بعضهم- أو قل تطوع بعضهم - للانضمام إلى الدعوة إلى وحدة وادي النيل سواء وسط السودانيين في مصر أو الذهاب إلى السودان للقيام بالدعاية اللازمة- أو الالتحاق بإذاعة جديدة أنشأتها الثورة المصرية في القاهرة باسم (ركن السودان) وأدارها كادر إخواني سابق كما يقال اسمه جمال السنهوري واتحاديون صميمون بينهم علي محمد شمو، كانوا يؤمنون صدقاً بالوحدة مع مصر -آنذاك.

وكما عاد طلبة سودانيون من مصر إلى السودان للدعاية للاتحاد أرسلت الجامعات بعثات من طلبتها للتعرف على (السودان) إذ كانت تحكى قصص عجيبة عن الأسود والنمور والأفيال التي تتبختر في شوارع الخرطوم وعن التخلف الذي سيكلف مصر رهقاً لانتشال السودان منه ولكنه كله يهون بالطبع مقابل النيل والأرض والتوسع جنوباً. ولما أبرزت

الصحافة المصرية صوراً للصاغ صلاح سالم وهو يرقص بملابسه الداخلية مع بعض القبائل في الجنوب وبعضها عار تأكد جزء كبير من القصص كما أثار في نفس الوقت مشاعر القوى الاستقلالية في السودان في تدخل مصر في الجو الحر المؤيد للاستقلال.

في هذا الأثناء انتقلت إلى جامعة الإسكندرية كما سيجئ:

تدفق مال كثير على السودان على أعوان الصاغ صلاح سالم والاتحاديين بالسودان وسرعان ما تسرب خبر تأكد فيما بعد أن الصاغ صلاح سالم استولى على خمسة ملايين جنيه مصري من خزينة وزارة المالية دون علم وزير المالية الدكتور عبدالجليل العمري. والدكتور عبد الجليل العمري هو أول وزير مصري للمالية يحمل مؤهلات في الاقتصاد إذ كان كل وزراء المالية في مصر رجال قانون. تقدم العمري باستقالة مسببة ولم تفلح كل الجهود في إثنائه فقبلت.

عاد وفد الأساتذة والطلبة من جامعة الإسكندرية الذين زاروا السودان وعادوا بإنطباعات مختلفة تماماً عن السودان الذي صورته لهم وسائل الإعلام. وفي ندوة أقامها الوفد اشاروا إلى ذلك بوضوح وذكر أحد أعضاء الوفد حادثتين أثارت دهشة الحضور: الأولى أنهم دعوا لحضور مباراة في كرة القدم في إستاد الخرطوم ورأوا بأعينهم جموع السودانيين (واقفين صف) للحصول على التذاكر وهو أمر لم يكن معهوداً في مصر في ذلك الوقت إذ كان التدافع والهرج سيد الموقف، والحدث الثاني أن الرئيس الأزهري دخل الإستاد ليحضر المباراة ونزل إلى الميدان وحيا اللاعبين ولم (يصفق أحد) يعني لم يقابل بالتصفيق كما هو في مصر عند حضور أي زعيم سياسي لأي مناسبة كهذه وبمثل الهدوء الذي دخل به الأزهري إلى الإستاد (أو دار الرياضة كما كنا نسميه) خرج قافلاً إلى داره. فقد كان في مناسبة إجتماعية.

كان ازدحام الكلية في القاهرة وصغر حجم المدرجات بالنسبة للأعداد الكبيرة التي رأت- الثورة استيعابها من الأسباب التي جعلتني مع بعض الأخوة السودانيين- من حنتوب نتجه إلى جامعة الإسكندرية رغم أني نجحت في الانتقال إلى السنة الثانية بدرجة أعانتني لكي أحصل على منحة شهرية قدرها خمس جنيهات بالتمام والكمال تسمى (البعثة)، وتمنح لكل طالب من أي كلية ينجح بدرجة (جيد) على الأقل في النقل من سنة لأخرى. الإخوة الذين ذهبو إلى جامعة الإسكندرية واستكشفوا الجو العام وعادوا وأقنعوني إليها هم: صالح محمد عبدالله- أحمد عبد الحليم – عبد المطلب إبراهيم، وجدنا كل عون ومساعدة من مساعد الكلية وهو أسمر من أصل نوبي- أصوله الحقيقية من قرية (عبري) في المديرية الشمالية بالسودان. وكانت الإسكندرية كمدينة وكليتها نقلة كبرى بالنسبة لي من ازدحام القاهرة: مدينة وكلية- ومن السكن الكئيب الرتيب في بيت السودان بالمنتديان ٧٦ شارع حلوان- المنيرة. كان عدد الطلبة في الكلية- قسم الاقتصاد والعلوم السياسية عموماً معقولاً ومناسباً لتلقي المحاضرات ومناقشة الأساتذة والحوار مع الزملاء- كما كان معظم الطلبة المصريين يفضلون الدراسة في قسم المحاسبة وبدرجة أقل في قسم إدارة الأعمال. أما قسم الاقتصاد والعلوم السياسية فعدده أقل من القليل كما أن به كل الطلبة العرب تقريباً من الأردن وسوريا ولبنان. من السودان في دفعتي كنا ستة: عبدالرحمن عبد المجيد عبد المنعم- عيسى مصطفى سلامة- إبراهيم الحويرص-حسن فرح- إبراهيم منعم منصور، ثم ظهر قبيل الامتحان فاروق مختار أبايزيد،أما أحمد عبد الحليم-صالح محمد عبدالله- عبد المطلب إبراهيم فقد كانوا في الدفعة التي خلفنا،فاروق مختار أبا يزيد من (عبري) ولكنه يكبرنا عمراً وخبرةً إذ يعمل موظفاً في البنك العثماني بالإسكندرية ويستفيد من الرخصة في عدم وجود جلسات عملية إلاّ

في محاضرات علم الإحصاء والتي تكون عادة مرة في الأسبوع فيستأذن لمدة ساعة يحضرها ويغادر الكلية دون أن نشعر به ليزاول عمله بالبنك، وفي نهاية العام الدراسي يحصل على إجازته السنوية لمدة ثلاثة أسابيع يكثف فيها الاستذكار معنا مستفيدين من تجاربه ومعلوماته في كل العلوم ومستفيداً من التحصيل الذي نختزنه وندونه من حضور المحاضرات والمناقشات.

وبينما يقضي فاروق عطلة نهاية الأسبوع في الاستذكار ونقل بعض المذكرات نجدها نحن فرصة لعلاقات إجتماعية مع بعضنا كطلبة سودانيين قليلي العدد بالإسكندرية- لم نكن أكثر من ١٥٠ طالباً في كل الجامعة بينما القاهرة تعج بالآلاف.

النادي السوداني بالإسكندرية: والعم يوسف عباس: بداية قنصل سوداني

وبجانب الطلبة شملت فرص التعارف السودانيين العاملين بالإسكندرية والذين أسسوا النادي السوداني. كان معظمهم من صغار الموظفين (صغار وظيفة: كتبة- محاسبين) ومن العمال : سائقي سيارات كبار موظفي الدولة والشركات الأجنبية التي كانت السمة الغالبة في الإسكندرية في ذلك الوقت- وكذلك الطباخين والسفرجية والبوابين وهي مهن برع فيها السودانيون من المديرية الشمالية وكان معظمهم في خدمة الأجانب: بريطانيين- فرنساويين- وإيطاليين- وبلجيك أو باشوات إذ قلما يستطيع رجل أعمال مصري لا يحمل لقب (الباشوية) استخدام سوداني لكبر المرتب من جهة ولأن نوعية الخدمة التي يؤديها ليست من الصنف الذي يعيشه المصري العادي ويستأجر من أجله (بربري كما كان يطلق على السوداني) وقد استبشر أعضاء النادي من أهل الإسكندرية بالمجموعة التي انضمت إليهم منا وبأعداد قاربت العشرين قبلت في كليات الطب والزراعة والقانون. وسرعان ما شهدت

مصر خلال أعوام الثورة الأولى محاكمات لرموز السياسة في مصر ما قبل الثورة شملت حاشية الملك فاروق الأولى الذي تنازل عن العرش- وفقاً للدستور- إلى ابنه الطفل في ذلك الوقت أحمد فؤاد الثاني. وقد نص الدستور- على تعيين (وصي) على العرش فتم تعيين الأمير محمد عبد المنعم أكبر أفراد الأسرة الذي لم تكن عليه شائبة ثم أستبدل باللواء محمد رشاد مهنا من الضباط الأحرار والمتهم بميوله (الأخوانية) وكان واضحاً أن المحاكمات كانت سياسية أكثر منها جنائية سواء بالفساد أو المحسوبية وأن الجميع كانوا يتعاملون في إطار نظام يقبل ما كان يدور. ثم حدث خلاف حاد بين الثورة والأخوان المسلمين تبلور منذ رفض الجماعة تعيين وزراء منها دون موافقتها ووصل ذروته بعد توقيع اتفاقية جمال- هيد إذ كان الأخوان يرون ألا بديل للجلاء إلا الكفاح المسلح بواسطة كتائبهم وكتائب متطوعين وطنيين آخرين ضد الوجود البريطاني في قناة السويس. الاتفاقية استبدلت الجنود والضباط بمستشارين منزوعي السلاح ولكن يمكنهم أن ينقلبوا إلى ترسانة عسكرية في أي لحظة يحصل فيها تهديد لقناة السويس من قوى معادية (الاتحاد السوفيتي) وفي الذكرى السنوية الثانية لرحيل الملك يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٤م وفي حفل بميدان المنشية في الإسكندرية قامت محاولة لاغتيال جمال عبد الناصر بواسطة الأخوان المسلمين أصيب فيها بجروح بسيطة الوزير السوداني ميرغني حمزة- ضيف الشرف- ونجا الرئيس المستهدف- وبعدها صدرت القرارات بحل الجماعة وتكوين المحاكم وشهدت بنفسي قيام أفراد من الحرس الوطني بإضرام النار في المركز العام للأخوان المسلمين في ضاحية الحلمية حيث كنت في زيارة لبعض أبناء النهود الذين يدرسون بجامعة الأزهر. وشهدت كيف منع أفراد الحرس الوطني (مليشيات الثورة) قوات المطافئ من إخماد النار في المركز فلجأت المطافئ إلى حماية المباني المجاورة. طالت المحاكمات كل

القيادات- ما عدا المرشد حسن الهضيبي- الذي راعت ظروف سنه ومرضه. وبحكم العلاقة التي كانت بين الثورة وبعض أعضائها بالجماعة فقد وصلت الاعتقالات والمحاكمات إلى (الجهاز السري) والذي ظهر أن سماحة المرشد لا يعلم عنه سوى اسمه وكانت قيادته وتسليحه وقراراته تصدر عن الجهاز والذي كان أمين السلاح فيه تاجر حبوب على قدرٍ عالٍ من التدين- والبراءة- إذ قدم للمحاكمة مرة شاهداً فلم يخف سراً بعد أن أقسم على المصحف، ثم قدم متهماً في موضع آخر وكان نصيبه الإعدام. ومن الطريف في محاكمته- التي رأسها قائد الجناح جمال أخ الصاغ صلاح سالم- أنه سأله إذا كان قد شارك في قرار فصل الوزيرين فقال أن بعضهم كان يرى عدم فصلهما وقلنا لسماحة المرشد (وأمرهم شورى بينهم- وشاورهم في الأمر) فرد علينا أن أكملوا الآية(وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)، ثم أصدر القرار بعد أن عزم وتوكل. وهذا- في تقديري- سيكون شأن كل حاكم يتولى الأمر باسم الدين: يجلس على الكرسي باسم (الشورى) ثم يحكم منفرداً (بالعزم والتوكل) وفي كلا الحالتين الدين بجانبه. تاجر الحبوب أمين السلاح أسمه يوسف طلعت رحمه الله.

تكونت لجنة ثقافية في النادي وأصبحت هناك محاضرة أو مناقشة كل أسبوع أو آخر فجذبت هذه المناشط بعض الأسر التي كانت حبيسه المنازل خاصة الطالبات اللاتي لم يكن يعرفهن حتى زملاءهن في نفس الكلية وقد حضرن بصحبة الأمهات. وعندما تقدم أحمد عبد الحليم باقتراح تكوين اتحاد نسائي للطالبات بجانب اتحاد الطلبة وجد الأمر ترحاباً من الآباء والأمهات وصار للطالبات يوم خاص بهن بجانب نشاط الطلبة في أيام الخميس. ويتم اختلاط حذر في الأعياد والمناسبات فقد علمنا- ثم اكتشفنا- أن السودانيين بمصر والنوبيين

على وجه الخصوص محافظون أكثر من الأهل بالسودان رغم أنهم يعيشون وسط بيئة متحررة في مصر. وقد سعدنا جميعاً طلبة وأولياء أمور عندما تقدم طالب الطب في السنة قبل النهائية عابدين أحمد شرف أخصائي الصدر فيما بعد بخطبة أمينة- سودانية من أصول نوبية.

وكان لأحد السودانيين بالإسكندرية يوسف عباس اهتمام خاص بالطلبة رغم تعليمه المحدود ووظيفته المتواضعة مقارناً مع السيد بيرم (والد الدكتور منير بيرم) سمسار - البورصة ذي المركز الاجتماعي والاقتصادي المرموق. يوسف عباس إمتاز بعطفه الشديد على الطلبة إذ هم (أغراب) في مصر وصب كل حنانه هو وزوجته علينا- لأنهما لم يرزقا ذرية. وقد كان لحكومة السودان- خلال الحكم الثنائي ثم الفترة الانتقالية وحتى بعد الاستقلال بسنوات- كان لها وجود في القاهرة فقط رغم أعداد السودانيين في العديد من المدن المصرية ومنها الإسكندرية. وبعد الاستقلال بسنوات- في عام ١٩٧٢م على ما أذكر برزت فكرة تكريم يوسف عباس عندما حضر للسودان في مناسبة خاصة. ثم تبلورت الفكرة إلى أن عين (قنصل فخري) لحكومة السودان في الإسكندرية أسوة بالعديد من الدول الأوربية التي لها جاليات بالإسكندرية وتمت الموافقة والاعتراف الرسمي من الحكومة المصرية. وفي واقع الأمر فإن يوسف عباس حصل فقط على (اللقب) إذ كان يقوم بكل ما يهم المواطن السوداني ويسافر على حسابه إلى (القنصل- والسفير) في القاهرة حيث يتم ختم الأوراق واعتمادها. وبحقيبته انتقلت الأختام إلى الإسكندرية وتم استئجار مكتب له ورفع العلم عليه وأدرج ضمن قائمة القناصل لدى الخارجية المصرية ولدى محافظ الإسكندرية وأجهزته الرسمية. وقد فرض عليه المنصب مظهراً أكثر أناقةً ويقوم بتقديم القنصل السوداني أو السفير الذي يزور الإسكندرية من وقت لآخر إلى السلطات الرسمية. وكانت ميزانيته لا تتعدى الإيجار

للعقار وبعض النثريات التي تساعده في استقبال رصفائه القناصل أو مواطنيه مع مقابلة تكاليف الحفل السنوي للعيد القومي. وكان ينتقل بعربة أجرة- تاكسي- إذ لم تكن السفارة في القاهرة تعطيه الوضع الذي يفرضه المنصب. وقد فوجئت وكنت وزيراً للمالية عام ١٩٧٢م أن أرسل لي طلباً شخصياً بمنحه(سلفة شخصية) قدرها خمسمائة جنيه ليشتري بها سيارة بيجو صالون مستعملة وفي حالة جيدة حتى يكون مظهر قنصل السودان لائقاً أمام القناصل الأجانب وأمام المسئولين فلم أتردد ووافقته على أقساط مريحة له شخصياً لتكون سيارته الخاصة له ولأسرته. وسارع عيسى مصطفى سلامة وقد كان المسئول الإداري لوزارة الخارجية لإدراج ميزانية وسيارة للقنصلية السودانية في الإسكندرية. ومن الطريف أن (طمع) بعد فترة من الزمن والنجاح بعض منسوبي الوزارة في المنصب بتحويله إلى قنصل- بدل قنصل فخري- حتى يحتله أحد موظفي السفارة. وكان أن تزامن ذلك مع مسودة قانون للقناصل الفخريين تقدم بها لمجلس الوزراء وزير الخارجية محمد ميرغني مبارك على أن يكون القنصل الفخري (يحمل درجة جامعية- عمره لا يزيد عن الستين عاماً- ولائق طبياً). وقد قدت في مجلس الوزراء معارضة شديدة للمسودة وذكرت أن أفضل وأنجح ثلاثة قناصل فخريين للسودان لا تنطبق عليهم هذه الشروط وهم عثمان الطيب في نيجيريا وإبراهيم المقبول في أثيوبيا- ويوسف عباس في الإسكندرية. وإذا حاولنا أن نطبق شرط اللياقة الطبية في وزارة الخارجية فإن وزير الخارجية نفسه غير لائق طبياً. وتجاوزت المدى عندما ذكرت أن الذين حركوا هذا القانون في وزارة الخارجية يرمون إلى احتلال مواقع جاهزة وناجحة ما كانوا هم يستطيعون أن يخلقوا فيها هذا النجاح.تقبل محمد ميرغني مبارك نقد الوزراء وآراءهم بصدر رحب بل وافق على أن بالأمر شيئاً ثم أعلن سحب المسودة. صادفت مناقشة

القانون أول جلسة حضرها عبد السلام صالح عيسى وزيراً للصحة وعلق أنه ما كان يعتقد أن جلسات مجلس الوزراء تشهد مثل هذه المناقشات الجادة والصريحة بين الوزراء في حضور الرئيس جعفر نميري إذ إن الاعتقاد السائد أن المسائل (تمر زي ما الرئيس عاوز). كان ذلك عام ١٩٨٤م على ما أذكر.

نعود إلى يوسف عباس: فكالعادة في تلك الأيام هناك من يعتقله جهاز الأمن المصري- أو يستدعيه للاستجواب- كما أن هناك من يتأخر التحويل المالي الذي يصله من السودان أو حتى الذي يشتبك مع الذين يتعامل معهم من بقال أو جزار أو مكوجي فتجد يوسف عباس حاضراً معه دون أن يستدعيه لنجدته. وقد كان حضور يوسف عباس في هذه المواقف أمراً لافتاً ومثلجاً لصدور كل الطلبة من هم في محنة أو غيرها فصار الأب الراعي لنا جميعاً قبل أن نعرف لقب (القنصل) إذ كانت البلاد لم تعرف الاستقلال بعد إذ كان لقب (قنصل) في ذلك الوقت مكروهاً ومرتبطاً بالامتيازات الأجنبية التي كانت تعاني منها مصر تحت الاحتلال منذ القرن التاسع عشر.كان عدد الطلبة السودانيين في الإسكندرية كما ذكرت قليلاً ورغم الانتماءات السياسية كانوا يتمتعون بدرجة كبيرة من التسامح والتوادد فيما بينهم وقد تعرفنا على من ينتمون إلى أسر كبيرة في المال مثل عبد الرحمن عبد المنعم وفي المال والسياسة معاً مثل محمد عثمان شندي وأخيه غاندي وعيسى مصطفى سلامة أخ زوجة الزعيم إسماعيل الأزهري ومن الإدارة الأهلية علي إبراهيم الحويرص وعلي ابن المأمور مأمون محمد عيسى هذا بالإضافة إلى ابن حنتوب فاروق أبو عيسى وإبن مدينة واد مدني المخضرم يوسف أحمد ميرغني. كما فوجئت بعد سنة بوجود إثنين من خريجي معهد بخت الرضا واللذين كان من المفترض أن يكونا في مهنة التدريس بالمدارس الأولية (الأساس)

بالسودان. علمت أنهما ومعهما آخرون منهم أحمد محمد فضل معطر أمسيات بخت الرضا الرسمي وخصوصاً بالعزف على العود هاجروا إلى مصر وأكملوا تعليمهم الثانوي بمدرسة حلوان الثانوية وإلتحق الإثنان (مدني أحمد عيسى ومختار) بكلية الطب بالإسكندرية بينما آثر أحمد محمد فضل- كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول- القاهرة- وقد فاتني أن أذكر أن جامعة الإسكندرية كان اسمها جامعة فاروق الأول وكان وكيل الجامعة في ذلك الوقت أخ اللواء محمد نجيب فجمع مجلس الجامعة وقرروا تغيير الاسم يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢م حتى قبل أن يتنازل الملك فاروق في ٢٦ يوليو وقبل أن يتضح موقف نجاح الثورة مما جعل الآخرين في جامعتي فؤاد الأول وإبراهيم باشا الكبير يحذون حذوهم.

كان عيسى مصطفى سلامة في غاية التواضع والسماحة والقبول لدى زملائه رغم أن بعضهم يتهيب إقامة علاقة معه وهو دفعتنا وقد سبقنا إلى الإسكندرية، وكان يسكن في شقة بها أربع غرف نوم- وصالون فسيح يطل على بلكونة على البحر الأبيض المتوسط في الطابق السادس، وفي مدخل الشقة كانت هناك قعدة بها كراسي أقل قال لنا أن اسمها (المدخل Entree) ولم تكون مصر قد عرفت بعد مظاهر الرفاهية الحالية فلم يكن بالشقق مراوح ناهيك عن مكيفات ولم تكن بها ثلاجات بل كان ذوو المال يملكون صناديق الثلج Ice Box ومنهم عيسى، كما كانت لديه مكتبة من الأسطوانات مع راديو وفنوغراف وكانت كل الأسطوانات من الغناء والموسيقى الغربية، وقد كنا في لقاءاتنا في النادي السوداني نتفاكر في مكان نلتقي فيه مرة كل شهر عند استلام التحويلات... أو مبلغ (البعثة) نتعشى فيه ونسمر ونطرب- إذ كان بيننا مطربون- سمع بلا شوف أبرزهم صالح محمد عبدالله- كما أن البعض يتوقون إلى (شربة بسترة). وسعدنا للمفاجأة إذ قرر عيسى مصطفى سلامة والذي سكن معه

محمد عثمان شندي- استضافة الجميع في شقته. ونشط يوسف أحمد الميرغني والشهير باسم يوسف ميرغني وأعد قائمة باحتياجات العشاء لحوالي ثلاثين شخصاً تحوى بجانب الفول والطعمية والجبنة وثلاثة أو أربعة أرطال كباب وكفتة وكذلك علب ساردين وكمية من الزيتون والطحنية وعدداً من زجاجات البيرة (استيلا) المصرية الشهييرة ومعها زجاجة كبيرة من الكونياك توزع على أربع زجاجات فارغة ثم تملأ من زجاجات البيرة وتقفل جيداً حتى تتفاعل لتكون أكثر تأثيراً عند احتسائها، وكان أغلب الطلبة يشربون بإعتدال من أجل المؤانسة الاجتماعية Socialization والقلة التي لا تشرب تعيش الجو المرح تغييراً للتحصيل المتواصل الذي اشتهر به طلبة الإسكندرية. واحد من القلة أصر في أحدى الليالي أنه قرر أن (يسكر) رغم تحذيرنا له أننا ما جئنا للسكر وألا يبدأ تجربة لم يعهدها وهو في كلية الطب، ومع إصراره أعطى كأساً من البيرة ولكنه طالب أن يتذوق ما يتعاطاه كبار (الشريبة) فنازلهم كأساً بكأس حتى آخر الليل، ومن عجب فإنه لم (يسكر) على الإطلاق فحمدنا الله أن ما تعاطاه في تلك الليلة لم يحبب إليه الخمر، الطالب كان عبدالعزيز هلال- الطبيب فيما بعد. كنا نسمي هذه (اللّمة) الشهرية باسم (الجمعية العمومية) وفي اليوم التالي يتم حساب تكاليف الليلة وتوزع بالتساوي على الجميع وكانت لا تتعدى العشرين قرشاً للفرد حتى عندما يضاف إليها أحياناً ثلاثة أو أربعة أرطال كباب وكفته إذ كان الرطل بمبلغ ١٣ قرشاً وزجاجة البيرة بأحد عشر قرشاً وزجاجة الكونياك المصري بستين قرشاً أو تسعين قرشاً للصنف اليوناني المهرب من الميناء. وإلى أن تخرجنا كانت (الجمعية العمومية) بما فيها من انتشاء وطرب هي المتنفس البرىء وتدور فيها مناقشات هادئة عن الشأن السوداني- وقد أبعدت (الجمعية العمومية) عدداً كبيراً من الطلبة عن (غرز) الحشيش والمخدرات الأخرى. ومع تخرجنا تخرج عيسى

مصطفى سلامة ومحمد عثمان شندي وعدد من العضوية من دفعتنا. وعلى ذكر الانتشاء فإن الطلبة السودانيين على عهدنا- وآمل أن يكونوا حتى اليوم- لم تقرب من سهراتهم الغانيات ولا القمار- ولا المخدرات من حبوب رغم أن الحشيش منتشر لدرجة مخيفة حتى في أوساط الطلبة المصريين على تدينهم ويرون أنه لو لا حادث اغتيال الشيخ حسن البنا لربما إستمر تعاطي الحشيش في المقاهي الشعبية بمصر مع الشيشة. غير أنه بعد حادث الاغتيال قامت حكومة الحزب السعدي (وهو من أحزاب الأقلية القريبة دوماً من الملك فاروق) بمنع تعاطي الحشيش في الأماكن العامة بل وتجريمه كما قامت بإغلاق بيوت الدعارة (العلنية) التي كانت تنتشر بالقاهرة وخاصة في شارع شهير باسم (كلوت بك) وفي أجزاء أخرى من القطر المصري. وبمرور الأيام حرّم الحشيش إلى أن وصلت عقوبة المتاجرة به الإعدام.

احتج البعض على وصف الجمعية العمومية باللهو (البرئ). كان ردنا أن أمر من بعض الدواء الداء. إذ إننا أنقذنا غالبية إن لم يكن كل طلبة الإسكندرية من داء أكبر.

شهد عام ١٩٥٤م ميلاد أول حكومة سودانية بموجب انتخابات حرة مباشرة بمجلس النواب فاز فيها الحزب الوطني الاتحادي بقيادة إسماعيل الأزهري بالأغلبية المطلقة لأول وآخر مرة في تاريخ السودان حتى كتابة هذه الذكريات (٢٠١١م) وتحت الاحتلال تماماً كما فازت حماس في أول انتخابات حرة مباشرة تحت الاحتلال الإسرائيلي. وبدأت الدعاية المصرية لتغليب الوحدة عند الاستفتاء آخر الفترة الانتقالية ودخلت لأول مرة وبصفة علنية أموال مصرية بواسطة الصاغ صلاح سالم وأعوانه- وتلقفتها أياد سودانية قلبتها إلى حناجر تهتف باسم الوحدة غير أن الفرحة المصرية والاتحادية لم تدم طويلاً إذ دعا حاكم عام السودان كلاً من الرئيس محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة ووزير الخارجية

البريطانية سلوين لويد لحضور الاحتفال بافتتاح أول برلمان سوداني في ٢ مارس ١٩٥٤م غير أنه بوصول اللواء محمد نجيب في أول مارس للخرطوم قابلته مظاهرات عارمة نظمها حزب الأمة معترضاً بطريقة عنيفة على حضوره الذي سوف يعطي دعماً للإتحاد مع مصر ويؤثر على (الجو الحر المحايد) الذي نصت اتفاقية السودان على أن يسود خلال (الفترة الانتقالية) حتى لا يكون هناك تأثير على الناخب السوداني.

وقصدت المظاهرة (سراى الحاكم العام- القصر الجمهوري) حيث كان من المقرر أن يكون فيها مقر إقامة الضيف الكبير. وقد التحمت جموع الأنصار مع قوات الشرطة التي لم تكن في كامل الاستعداد لهجوم الأنصار بالأسلحة البيضاء فتوفى مدير شرطة الخرطوم البريطاني ونائبه السوداني وهو من أسرة أنصارية: أسرة عثمان صالح. وقد تداركت الإدارة البريطانية الموقف بأن حولت مسار موكب اللواء محمد نجيب إلى وجهة أخرى غير القصر وبقرار حكيم عاجل من سيادته رجع إلى المطار واستقل الطائرة عائداً إلى القاهرة. شكلت الحادثة انهياراً أمنياً مفاجئاً في كل العاصمة المثلثة: الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري كاد يطيح بالحكومة الوليدة. غير أن الحاكم العام سير روبرت هاو احتوى الأمر بتشكيل لجنة تحقيق وتقديم المحرضين لمحاكمة سريعة أعادت هيبة الحكومة. كان البعض يتوقع أن يستغل الحاكم العام الحادثة ويعلن الانهيار الدستوري الذي نصت عليه الاتفاقية- وهو من سلطاته التقديرية وحده دون لجنته- ويوقف أو يحل البرلمان وتعود البلاد إلى المربع الأول كما يقولون ولكنه لم يفعل. وعندما حكمت المحكمة على كبار رجالات الأنصار بالإعدام والسجن المؤبد تصرف رئيس الوزراء الأزهري بحكمة وأوصى إلى الحاكم العام الذي يصادق على أحكام الإعدام بصفته رئيس الدولة بتخفيف الحكم. ثم تم العفو على مدى الأيام بعد ذلك

فلم تخلف (أول مارس) كما ظلت تعرف في تاريخ السياسة السودانية مرارات سياسية في القلوب وهي تتدبر أمر مستقبل البلاد. وهذا الحدث عكس أصالة جيل من المواطنين- ولا أقول السياسيين- السودانيين كما خلق لأول مرة درجة من التقارب- ثم الثقة – بين الزعيم الأزهري والحاكم العام.

سارت الأمور في السودان كما هو مخطط لها في الاتفاقية ونشطت لجنة (السودنة) ولما عدت في الإجازة السنوية إلى النهود وجدت السيد أحمد مكي عبده أول مفتش سوداني استلم من المفتش الأول المستر (بيتر هوق) وبقى مساعد مفتش حمر المستر هنتر لفترة لأنه تأهل في القانون وأصبح القاضي المقيم دون أي علاقة له بالإدارة ثم رحل بعدها. كما وجدت الدكتور عثمان مضوي قد حل مكان الطبيب المصري دكتور شحاته، أما المأمور وضابط المجلس مصطفى يوسف تكونة قد تمت ترقيته ويستعد للذهاب إلى الدلنج. وفي يوم عيد الأضحى أوائل ١٩٥٥م كان في زيارة والدي كل (الحكومة) المفتش والمأمور والمفتش الطبي (كما كان يلقب) ومأمور السجن و.... وقدمني والدي للحضور باعتباري الابن الذي رفض العمل معهم في الإدارة والتحق بالجامعات المصرية في وقت تسارعت فيه الأحداث وبدأت ثمار السودنة تعم البلاد. كان لابد للسيد مفتش المركز أن يقدم لي نصيحة بإعادة النظر في قراري مواصلة لقرار الإدارة والحكم الذي سبق أن قدمه لي المستر ماكوماس ولكن الدكتور مضوي دافع عني وعن الدراسة في مصر ذاكراً أن جناب المفتش نفسه لديه إثنان من أبنائه يدرسان في مصر- حسن وحسين أحمد مكي عبده- مما شجعني لأذكر أننا في نفس الجامعة والمدينة الإسكندرية. ثم تحدث نفر أو إثنان في صفي مما أذاب الجليد مع الوالد ولما تأهبت للعودة إلى الإسكندرية شكرت الأخ منصور منعم الذي ظل يدعمني شهرياً بمبلغ خمس

جنيهات كاملة وأخبرته بنجاحي الذي أهلني للحصول على نفس المبلغ من الحكومة المصرية باسم (البعثة) ثم عند وداعي للوالد نصحني بالإلتفات لدروسي وأن جناب المفتش والمفتش الطبي أبلغاه ندرة التخصص في الاقتصاد وقد علم أنه سيدخل مقررات كلية الآداب بكلية الخرطوم الجامعية ابتداء من العام القادم فقط. وأنه حسب علمهم هناك فقط إثنان تخرجا من الاقتصاد أحدهما الإداري محمد عثمان يس - والآخر في المالية - مأمون بحيري، وقد تخرج فيما بعد وقبلي بعامين كل من إسماعيل المصباح مكي وأسد إسماعيل شيبون من جامعة القاهرة.

عدت إلى الإسكندرية مسلحاً برضا الوالد وبمبلغ محترم حرص أحمد جحا - والد الشيخ أحمد جحا - أن يكون مجزياً حسب تجربته مع ما يرسله شهرياً للشيخ. وكما ذكرت فقد كان عددنا في قسم الاقتصاد والعلوم السياسية قليلاً وكان يحاضرنا أساتذة على قدرٍ عالٍ من العلم بعضهم عاد بنظريات حديثة عن الإدارة والتجارب الاقتصادية من الولايات المتحدة وبعضهم كان يحضر من جامعة القاهرة إذ إن تخصصه يفرض عليه أن يوزع وقته - على الجامعتين. ولقد لفت نظرنا اهتمام أحد الأساتذة (عبدالمنعم الشافعي) بنا نحن السودانيين وكان يحاضر في علم الاقتصاد والإحصاء وقد علمنا منه أنه كان أستاذاً للرياضيات في كلية غردون الجامعية ويحاضر في كلية العلوم وكلية الهندسة وأنه يفاوض في ذلك الوقت الحكومة السودانية للعودة مديراً لمصلحة الإحصاء بديلاً للمستر هارفي المدير البريطاني الحالي المتقاعد، وقد عاد بالفعل لفترة وجيزة في مصلحة الإحصاء واحتفل به طلبته من المهندسين.

واحتفلنا بالاستقلال ورفعنا العلم داخل النادي السوداني

شهد عام ١٩٥٥م توتراً في العلاقات بين حكومة الثورة والحكومة الانتقالية في السودان انعكس على التعامل معنا نحن كطلاب، وهذه (ظاهرة) ملازمة للعلاقات السودانية المصرية حتى اليوم إذ إن أي توتر أو خلاف تعكسه كل الأجهزة المصرية في تعاملها مع السودانيين بمصر: طلاباً ومواطنين. سبب التوتر هو أن تياراً داخل الحزب الوطني الاتحادي بدأ يهمس بل يجهر باستقلال السودان بديلاً للوحدة التي ظل ينادي بها الاتحاديون منذ الأربعينات. في ذلك العام انعقد أول مؤتمر لدول عدم الانحياز في ضاحية (باندونج) في أندونسيا، وكان السودان لا يزال تحت الحكم الثنائي: بريطانيا ومصر ويرتفع على كل ساريات القطر العلم البريطاني والعلم المصري. قررت الحكومة السودانية الإشتراك في المؤتمر واعترضت مصر بصفتها إحدى الدول الرئيسية في حركة عدم الانحياز (مصر والهند ويوغسلافيا وأندونسيا) بأن السودان ليس دولة مستقلة بعد. ولكن الزعماء المجتمعين وأفقوا أن يحضر السودان بصفة (مراقب) وقرر الزعيم الأزهري أن يرفع (علم أبيض) باسم السودان حيث لا يمكن بالطبع رفع العلمين البريطاني والمصري. ودون التعرض لما حدث بين البلدين مما تذكره كتب التاريخ إلاّ أننا كنا كطلبة- والسودانيين في الإسكندرية- بدأت تقابلهم بعض المضايقات من سلطات المحافظة- ومن هيئة تحرير الحزب الحاكم والتي كان يرأسها في الإسكندرية أخ الزعيم جمال واسمه الليثي عبد الناصر، وعندما أصبح واضحاً أن السودان سيختار الاستقلال ووافق البرلمان على الاقتراح في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥م بأن السودان سيكون دولة مستقلة ابتداءً من أول يناير ١٩٥٦م قرر النادي السوداني إقامة حفل

بهذه المناسبة ودعا له كل السودانيين ومحافظ الإسكندرية ورئيس هيئة التحرير، الساعة الثانية عشرة (بعد ساعتين من رفع علم السودان بالخرطوم).

قبل يوم الحفل حضر ضابط من (المباحث) وطالب بإلغاء الحفل ودخل في مشادة مع (عمي عمر) رئيس النادي الذي كان في نفس الوقت (رئيس البوابين) لخمس عمارات شاهقة في رمل الإسكندرية وذا شخصية قوية وشجاعة، وأمام جمع من السودانيين كانوا بالنادي أبلغ الضابط أن ما يقوله من تهديد للأفراد وللجنة النادي وأنه سيقفل النادي ويصادر أثاثه (دا كان زمان يا بني دلوقت نحنا عندنا أولاد متعلمين دكاترة ومحامين ومهندسين، ما تقدرش كنا زمان غير متعلمين ونشخط الاشتراكات بالطباشير في الحيطة، دلوقت، أصبح عندنا دفاتر ومحاسب قول للسيد الليثي عبد الناصر أحسن ييجي يحضر الاحتفال، بكرة الحكومة تنقل بتاع المباحث وهو موظف وتنقل المحافظ وهو موظف وسنكون نحن وهو أهل إسكندرية مع بعض، يا بني قول له إحنا أصبحت عندنا دولة) ويبدو أن الضابط قد نقل من هذا الحديث ما أقنع الليثي عبد الناصر على الحضور قبل دقائق من بدء الاحتفال واحتل مكانه على يسار (عمي عمر رئيس النادي وشيخ البوابين) ثم فجأة ظهر المحافظ وجلس على كرسيه الشاغر على يمين عمي عمر مع بدء تلاوة الافتتاح. وزال التوتر مؤقتاً إذ تلقينا التهاني ورفعنا العلم الأزرق والأصفر والأخضر داخل النادي مع الهتاف عاش السودان حراً مستقلاً، وعاشت مصر والسودان، ومن عجب فقد كانت مصر لا تزال محتلة بجيش بريطاني يرابط على ضفاف القنال.

وإذا وصلنا طلبة بمصر إلى أن رفعنا علمنا داخل النادي السوداني لابد لنا أن نتعرض لشخص سوداني أصيل هو بابكر الديب نائب مدير عام الشرطة يوم أن تسلم

الرئيس إسماعيل الإزهري رئاسة الوزارة وقبل (سودنة) الوظيفة التي كانت يشغلها بريطاني. كان المطلب الأول لمن هم حول الرئيس ولقيادات العمل الاتحادي فصل إن لم يكن سجن اللواء بابكر الديب، ولكن الرئيس الأزهري أفهمهم جميعاً أن بابكر كان موظفاً تفرض عليه واجبات الوظيفة أن يقوم بما كان يقوم به من عمل، وهو لم يؤذ أحداً (لم تكن كلمة تعذيب معروفة ولا الفعل نفسه) ولم يقم بعمل ضد القانون كما أنه كان عف اللسان واليد. والحل ترقيته مدير عام البوليس ونقله حفاظاً على الشعور العام إلى وظيفة في القاهرة كانت قبل الاستقلال يشغلها بريطاني وتسمى (وكيل حكومة السودان) ولها صفة في لندن بنفس الاسم. وأصبح بابكر الديب بحكم وظيفته الممثل الرسمي للحكومة الوطنية. ويشهد الجميع بأنه قام بأداء مهمته في أحلك ظروف العلاقات مع مصر عند ظهور بوادر الاستقلال وحمى العديد من الطلبة وحافظ على كرامة السودان فرفض أن يوقف الدعوات لممثلي الدول الأجنبية في الأعياد- وبالأخص في عيد توقيع اتفاقية السودان (١٣ فبراير) وقد ظلت الحكومة المصرية تقاطع كل دعواته باعتبار أن السودان ليست لديه الشخصية الدولية الاعتبارية المستقلة عن دولتي الحكم الثنائي- بريطانيا ومصر- التي تؤهله لمخاطبة سفراء وممثلي الدول الأجنبية بمصر. وكان الاحتفال بالاسستقلال احتفالاً ضاقت عنه دار (السفارة- الوكالة سابقاً) فأكمله في عدد من الحدائق العامة في القاهرة. ثم صار سفير جمهورية السودان بمصر، أول سفير. وقد أنصف أحمد سليمان المحامي بابكر الديب عندما كان نائباً للمستر كوتس مدير عام البوليس فذكر في أحد كتبه أنه كان عائداً من موسكو- أيام الجاهلية كما يسميها- وتلقفته المباحث (الأمن حالياً) وأتت به إلى مكتب مدير الشرطة البريطاني الذي أجلسه وأمر له بقهوة، ثم سأله إذا كانت الحقيبة التي أمامه تخصه فأجاب

بنعم- ثم سأله إذا كان يعرف أحداً أو إثنين بمكتب (السكرتارية- مكتب السكرتير الإداري أو وزارة الداخلية) فأجاب بالنفي، فقال له المدير أنه أرسل في طلب نائب المدير بابكر أفندي الديب لكي يقوم بتفتيش الحقيبة ولكن حسب القانون لابد من حضور شاهدين. كان رد أحمد سليمان- كما أورده أنه يثق في خلق البوليس السوداني وفي بابكر الديب، وإزاء إصرار أحمد سليمان على التفتيش بدون الشاهدين- أو حتى بدون حضوره هو شخصياً- حمل بابكر الديب الحقيبة إلى غرفة مجاورة وقام بتفتيشها ثم عاد وأدى التحية قائلاً: ليس فيها شيء ضد القانون . لم يهد أحمد سليمان الواقعة إلى روح بابكر الديب إذ كان في رحاب الله عندما أوردها بل أهداها- محقاً إلى ... إلى.... ولا بلاش، إذ هل يستحق.


مسطورات
MUSTORAT

استراحة أولى
غيبيات وخوارق

إذا كان الملل قد أصاب البعض برتابة السرد حتى هذه المرحلة من المسيرة سأحاول أن أعود به إلى الوراء ليشهد بعض ما قابلني فيها من عجائب أمور الدنيا- لا يزال بعضها يشكِّل بعضاً من وجدان الحياة ومن أمور الدين الذي هو ملازم دوماً للحياة. أردت أن أقول مما عشته وعايشته إن ديننا واسع ورحب حاول البعض أن يفرض رؤيته هو – احتكاراً- على الناس : بالجيش والأجهزة القمعية تحت شتى المسميات ولكنه موجود في (كل العالم) بممارسات وطقوس وتفسيرات يعيشها كل الناس منذ ١٤ قرناً وسيواصلون تقليداً بالعقل- وتعاملاً ومعاملةً بالعقل.

وأشياء أخرى حامياني: متع الله البوني بالصحة وطول العمر:

كانت مدينة النهود ملتقى وتجمع التجارة والسلطة في الربع الأول من القرن العشرين عندما كان سلطان الحكومة يقف في حدود دارفور. ورغم التقسيم والتمزيق فإن دارفور عرفت بحدودها ووحدتها منذ القدم وعاصمتها الفاشر. وكانت جزءاً من السودان قبل وأثناء وعند سقوط دولة المهدية.

وقد غادر علي دينار مثل معظم قيادات القبائل مدينة أم درمان بعد معركة كرري واتجه إلى دارفور واستعاد فيها حكم أهله وأصبح السلطان علي دينار ويحكم سلطنة دارفور حكماً إسلامياً: يعترف بمرجعية هي الخلافة الإسلامية في تركيا وعاصمتها الأستانة. ويرسل زكاة السلطنة وتبرعاتها إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وبنى مساكن لطلاب العلم في القاهرة حول الأزهر الشريف ويعد (كسوة سنوية) لبيت الله الحرام تسير بكل ما هو نفيس في قافلة دينية سنوية تعرف باسم (المحمل).

وعند قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) كانت تركيا- دولة الخلافة الإسلامية- تقف في تحالف مع ألمانيا وإيطاليا والنمسا ضد بريطانيا العظمى وفرنسا ثم أمريكا. وفي الوقت الذي كان يرسل فيه السلطان علي دينار سنوياً ما أشبه بالجزية إلى حكومة السودان وتسلم إلى مدير مديرية كردفان كان يراسل سراً الخليفة العثماني في الأستانة مؤيداً دولة الإسلام في حربها ضد الكفر.

غير أن العيون والجواسيس كانت تراقبه وتستولي على الرسائل وتبادلها بأخرى حتى قررت الحكومة (إعادة فتح دارفور) أسوة بما حدث للسودان. كانت نقطة التجمع والارتكاز مدينة النهود وعلى ربوة غرب المدينة كانت هناك شجرتان من التبلدي كأنما هيئتا لهذا الموقف، رفع على أحدهما العلم البريطاني وعلى الأخرى العلم المصري.

بعد الفتح ازدهرت النهود ونُقلت إليها بعد سنوات رئاسة نظارة عموم دار حمر وتربّع فيها (حوش الشيخ) وأصبح ملتقى أبناء السبيل من غرب وشمال وغرب أفريقيا في طريقهم إلى حج البيت الحرام، أو الخدمة في مشروع الجزيرة أو كليهما، وبعضهم طاب له المقام فاستقر في دار حمر الواسعة واستقل عن (حوش الشيخ).

في هذا الحوش وجد الصالح والطالح. وكثيراً ما تبدر حوادث من شجار أو تعديات على الممتلكات أو يختلط الجميع في الغرف والديوان الكبير وفناء المنزل وهنا يبرز بعض ذوي العلم لكشف السارق والمسروق، والتعرف على المشبوهين، وطريقة ذلك تتم دائماً عن طريق (القرآن) بواسطة شيخ يلقب تارة (فكي فلان) وتارة (الشريف فلان) إذا كان من الوافدين من دار شنقيط، موريتانيا الآن أو كانت بشرته بيضاء.

كانت هناك طريقتان للتعرف على السارق، الأولى تسمى (البرهان) وهي أن يطلب من الجميع أن يجلسوا على (فروة صلاة) وأحداً بعد الآخر . وبعد أن يقرأ الفكي أو الشريف آيات من القرآن في سره، في حالة السارق تلتصق الفروة بمؤخرته ويقوم وهو يحملها ومهما يحاول إنزالها لا يستطيع ولا يكون أمامه وهو يسمع صيحات الجميع إلا أن يعترف ويعيد المسروقات ويطلب السماح.

الطريقة الثانية هي (الدليل) ، ينادي على المتهمين بالإسم، وعندما يجئ دور السارق يصعب عليه الحديث أو كما يقولون (يتبكم) ويسير من تلقاء نفسه يتبعه الشخص المسروق إلى المكان الذي خبّأ فيه المسروقات أو الشخص الذي سلمها له فيكون هو (الدليل) على نفسه. وبعد أن شاع أمر البرهان والدليل اختفى اللصوص من وسط (الحوش) خاصة بين الضيوف.

كما ذكرت فإن النهود جذبت أيضاً من كانوا (ينزّلون) المال بطريقة أشبه بأسلوب (الحاوي) وإن كانو يؤكدون أنها تتم بمعرفة آيات قرآنية واستخدام نفر من الجن المسلم كالذين أخضعهم سيدنا سليمان عليه السلام.

ألقت الشرطة القبض على أحدهم من الوافدين من نيجيريا بعد إجراء (كمين) له رأى فيه البوليس (الريالات) الفضية وقد كانت العملة المتداولة في أربعينات القرن العشرين تتساقط من عل كلما ضرب بيده المنضدة التي أمام أحد التجار.

وبعد فترة حضر أخوه من نيجيريا وأخبره أبناء عشيرته الذين سبقوه الاستيطان بالنهود بأن الإفراج عن أخيه لن يتم إلاّ إذا قام بالوساطة لدى القاضي المقيم البريطاني الذي

أمر بحبسه رهن تحقيق الشيخ منعم منصور لأنه رجل متدين ويؤمن بالجن وبالقدرات التي لدى بعض المشائخ.

كنت جالساً مع بعض الإخوة والأصدقاء أمام (الحوش) عندما جاء أخ الرجل المحبوس وسأل عن الشيخ منعم، كنت أيامها من المدخنين، وعندما استعد أحد الإخوة لإدخاله إلى الدار همست قائلاً: معقول يكون هناك من يستطيع (إنزال) ريالات من الهواء ؟ تبسّم الأخ ورفع يده إلى السماء وأنزل علبة سجاير وسلمني لها قائلاً : علم الله واسع، وسط دهشتي في المقام الأول ودهشة الحضور، توسط الشيخ منعم للقاضي البريطاني وأقنعه بأن (يطرد) المتهم من السودان ويتعهد أخوه بأن يغادرا الحدود في ظرف سبعة أيام يؤكدها وصول تلغراف من سلطان دار مساليت بمدينة الجنينة.

لم تعرف قبيلة حمر بالتدين الشديد وبوجود رجال دين عديدين متفقهين وذوي شهرة، او لديهم مقامات تزار كما هو متواجد بكثرة في منطقة الجزيرة. جدنا الأكبر (الحاج منعم) زار بيت الله الحرام في القرن التاسع عشر وحمل اللقب ولم نسمع عن آخر إلا والدنا (الحاج منعم) الأول سكن وتوفى في ناحية (الكول) شمال مدينة (الخوي) وعرف بالحاج منعم (ساكن الكول) والوالد عرف فقط بالحاج منعم أبو العازة. أول وأكبر ذريته، وقد عرف بالتدين ويروي مدير مخابرات الحكم الثنائي أن تدينه وعدم شربه للخمر كان أحد أسباب اختياره ناظراً للعموم خلفاً لوالده بعد أن تجاوزه أحد أعمامه وأحد أبناء عمه في النظارة. غير أن في كل المقابر الرئيسية لقرى حمر- كما هو العادة بالسودان- رجل دين تسمى مقبرة القرية باسمه. وخلوة (مسيد) لتدريس القرآن باسمه وتحت رعايته.

الزبال– والمعمر :

في أربعينات القرن العشرين كان بالنهود شيخ (حمري) ومع ذلك يسمى (الشريف الزبال) كانت تروى عنه كرامات. وأنه مع ذلك يشرب الخمر: عرقي العيش على وجه الخصوص ويحمله معه في (الإبريق) أينما حل.

ويسكن (الشريف الزبال) الحي الجنوبي الشرقي من النهود. وكان معروفاً عنه أنه يأتي إلى منطقة آبار مياه النهود وتطيب له العبادة باسم الجلالة (لا إله إلاّ الله) وهو يقفز على (قصبة) من ساق الذرة يضعها على باب البئر وسط إعجاب ودهشة الحضور دون أن تنكسر القصبة أو تخطئ رجلاه فيقع في البئر.

كبرى بنات (الشريف الزبال) تزوجها (الشريف محمد أحمد الشهير باسم الشريف المعمر) الذي تنقل في السودان ما بين منطقة النهود وغبيش ومدينة (الشوُكْ) في شرق السودان وشمبات مع أسرة الشيخ أونسة وكوستي حيث توفى وله بها ضريح يزار.

كانت للشريف محمد أحمد ذاكرة حية على مدى عقود من الزمان يقال أنها زادت عن إثنى عشر عقداً. أي أكثر من ١٢٠ عاماً، رغم أن البعض يقدّر عمره بحوالي (٢٠٠) عام. كنت بحكم علاقته مع والدي أزوره بانتظام عندما كان في شمبات وكان يشرف على علاجه ويزوره الطبيب الشيخ أحمد جحا بحكم صلة والده به. كما كان يجاوره في ذلك الوقت القطب الاتحادي بشير محمد خير في شمبات. ويروى في مجلسه الذي يمتد من الضحى حتى الليل أحاديث وتواريخ وأنساباً لزواره تحير الجميع.

ويبدو أن بشير محمد خير قد وصلت حيرته بإحدى الحوادث لدرجة (الشك) دون أن يفصح، ولكن الشريف عرف ذلك إذ إنه كما ورد في الأثر (إذا كنت مع الحاكم أمسك

لسانك. وإذا كنت مع الفكي أمسك قلبك) : إذ إن (الفكي) يأتيه إلهام بما يضمره قلبك خاصة إذا كان الأمر يهمه.

في اليوم التالي حدثت الحركة العسكرية للعقيد محمد نور سعد ٢ يوليو ١٩٧٦م واحتل جنوده مداخل الكباري والمرافق الحيوية فأرسل الشريف إلى جاره وحواره بشير محمد خير وهو على بعد أمتار وطلب منه أن يذهب بسيارته إلى دكتور الشيخ جحا في منزله بحي بانت بأم درمان ويحضر له دواء كان قد وعده به ونسى أن يسلمه له عند زيارته له بالأمس. جادل بشير بأن الكباري مقفولة حتى على من يمشي على رجلين ناهيك عن من يقود سيارة.

وأمام إلحاح الشريف توكل بشير واتجه من شمبات إلى أم درمان. أعاد الانقلابيون سيارتين كانتا تسيران أمامه ولكن لدهشته لم يوقفه أحد. وكانت الدهشة الأكبر لدى الشيخ أحمد جحا عن كيفية وصول بشير من الخرطوم بحري- شمبات. ولكن الشيخ أكد لبشير أنه سلم الدواء للشريف وأنه وضعه في أسفل السرير الذي يجلس عليه.

عاد بشير بنفس الطريق ولم يستوقفه أحد، وعندما دخل على الشريف ضحك وقال له: أصبحنا ننسى، الدواء أنا وضعته تحت السرير وهاهو. علم بشير أن الشريف أراد أن يعطيه درساً عملياً و (كرامة) وقال معتذراً يا أبونا أنت ما نسيت أحداث عمرها قرن تنسى حدث حصل أمبارح. أنا فهمت.

أبو الساري- والناجي :

وبجانب (الشريف الزبال) لدى قبيلة حمر شيخ متدين دفن بين مدينة النهود ومدينة الخوي يدعى (أبو الساري) وله ضريح يزار مبنى من القصب- قصب الدخن- في شكل (كرنك) وحوله باحة مسورة بشوك شجر اللالوب. يزار الضريح يومي الإثنين والجمعة

ويدفع المريدون النذور التي يتلقاها خليفته ويصرف على تجديد السور والكرنك ونظافة الباحة واستضافة المريدين. فجأة توفى الخليفة ويبدو أن حجم النذور أغرى بعضاً من أبنائه بالاختلاف فيمن يخلفه ومن يتلقى النذور واقتسامها، ونصيب كل منهم. وكم يصرف على التجديدات وخدمة الزوار وضيافتهم.

وبمرور الزمن خيّم الإهمال على كل شيء وفوجئ الجميع أن ناراً شبت وحرقت (الكرنك) الذي يظلل القبر. ولم تتعد النار إلى أي شيء آخر سوى (الكرنك) وبعد أن مرت أيام جاء الأبناء- المتحاربون والمتشاكسون- ليزيحوا الرماد ويجددوا مكان المقام فإذا بثعبان يخرج لهم من بين الرماد ويهجم عليهم فهربوا من المكان، وتكرر الأمر مرات ومرات، في أيام الجمعة والإثنين وفي غير أيام الزيارة، لا تبرّك للزوار ولا نذور للأبناء.

ذهب وفد منهم للشيخ منعم وحكى له الأمر، وبعد أن لامهم على عدم توقير الوالد قبل الولي وعلي الاختلاف من أجل رزق الدنيا وهو مكتوب نصحهم بالذهاب إلى (الشريف الناجي عبد الحق) وهو رجل دين ورع قدم إلى دار حمر فاراً من الهجمة الوهابية على آل البيت على طريق موريتانيا ومن لا يعرفه. والكل لا يعرفه، يحسبه من متديني الشناقيط. طلب منهم الشريف الناجي أن يجمعوا أربعين رجلاً طاهراً يوم الجمعة صباحاً لابسين اللون الأبيض ومعهم (خروف أو تيس) ويحضرون إلى مكان الضريح . تقدمهم الشريف الناجي يحف به أبناء أبو الساري وخلفهم الرجال الأربعون وهم يرددون (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ظهر الثعبان أمامهم وكلما تقدموا تراجع إلى أن اختفى. أحاط الرجال الأربعون بالشريف وأبناء الساري في شكل دائرة وبدأ الشريف والأبناء في إزالة الرماد إلى أن اتضحت

معالم القبر وحدوده. وهنا جاءت الكرامة الكبرى التي رواها والدي الشيخ منعم عن الشريف الناجي وأولاد الساري : ثم ذكرها لي الشريف الناجي بنفسه.

قال فجأة خرجت يد أبو الساري وشدت يد الشريف الناجي حتى رآها كل الحضور: غير أن بعضهم لم يحتمل المفاجأة فهرب. بعضهم وقع على الأرض. بعضهم ظل واقفاً وركبتاه ترتجفان، ثم عادت يد أبو الساري إلى القبر وأمر الشريف الناجي بذبح (الكرامة) وتقسيم العمل بين الرجال الحضور لإعادة بناء (الكرنك) والسور والأهم من ذلك ألهم الله الأبناء باختيار الخليفة بالإجماع وكذلك وكيله. عندما عرفت الشيخ الناجي بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً سألته عن الواقعة كما حكاها لي الوالد فضحك وقال لي: أنا حكيتها للشيخ منعم لكن أسأل الأربعين راجل الحضروها.

أوصاني والدي أن أقيم علاقة مع الشريف الناجي فهو من الأشراف بحق ورجل دين، وبدأت أزوره كلما قدم إلى الخرطوم في نزله الذي كان غالباً (زاوية) صغيرة بضواحي أم درمان بحي اسمه (فُنقُرْ) إلى أن أقسم عليه أحد مريديه في مدينة الثورة بأنه ضيفه كلما جاء العاصمة. فجأة قال لي تاني ما تبحث عني ولا تزورني، إنت (أصبحت حاكم) ، أنا سوف أصلك في دارك. ولو قصدتك سوف أجدك . لم أفهم الإشارة إلى أن (أصبحت حاكم) إلاّ بعد أن أذيع اسمي بعدها بأسبوعين (وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية).

ثم جاء وأبلغني بحصول قلاقل في الخرطوم وناسكم (يتلجلجوا) لأن النميري خارج السودان لكن ما بيحصل شيء حتى قبل أن يرجع.

وكانت تلك حوادث شعبان ١٩٧٥م وعندما كان الرئيس نميري يحضر مؤتمر قمة في المغرب وألح عليه زملاؤه ليعود وعاد ووجد أن كل شيء قد انتهى قبل وصوله. وفي يوم

أخبرني الشريف أن (مُلكِي) سوف يتوسع ويسبب لي غيرة وسط زملائي تجعلني أترك الحكم، وسوف لا أندم (لأن الله سوف يعوضك وتغنى مالاً وذرية) : وكنت وقتها لم أرزق بذرية من زوجتي الأولى عائشة حمزة هيبة كما أن مدخراتي الوفيرة من دخلي في مؤسسة الخليج. وقد كان راتبي الأعلى في السودان. قد تآكلت إذ كان مرتب الوزير قد وصل بعد سنتين حوالي ٢٥٠ جنيهاً في حين كنت أتقاضى ألف جنيه زائداً بدلات تزيد عن ثلثه في الشهر الواحد.

وفعلاً عدت من زيارة عمل للولايات المتحدة لأجد مسألة مستعجلة في مجلس الشعب عرفت بقضية (شركة وادي النيل) تقدمت على أثرها باستقالتي بعد أن صوّت المجلس ضدي بأغلبية كبيرة فدخلت سوق المقاولات والاستشارات واستردت مدخراتي واقتنيت أكثر من دار ورزقت ثلاث بنين وبنتاً من زوجتي الثانية فاطمة مهدي الحلو.

غير أن الشريف الناجي بهر موسى عوض بلال في واقعتين: الأولى شخصية والثانية عامة. كنا مع الأخ موسى في مناسبة بالنهود وذهبنا في طريق العودة لزيارة الشريف. لم يكن موسى يعير اهتماماً لأمر الخوارق ربما لأنه لم يشاهدها ولم يعشها.

أراد الشريف إكرامه كضيف في (الدار - دار حمر) يذبح خروف لإفطاره ولما اعتذرنا بضيق الزمن إذ قد لا نلحق بالطائرة إلى الخرطوم أهدى موسى مبلغ أربع جنيهات ثمن الخروف ولما تردد موسى في قبولها قال له (الأربعة جنيه لا بتغنيك ولا بتفقرني. لكنها هدية والهدية مودة بين الناس) وكان كلاماً مقنعاً جعل موسى يطلب مني أن أخبره بأي زيارة يقوم بها الشريف للعاصمة لكي يرد له التقدير.

ولما أخبرت موسى بوصوله تأسف لأن لديهم مناسبة فرح في الأسرة وليس في داره من يكرمه ولكن الشريف قدر موقفه وعذره وأخبره أنه مسافر في اليوم التالي ولكن سوف يعطيه (ورقة) يضعها في جيب (القميص) تقبلها موسى على استحياء للمرة الثانية. وقال ببشاشته المعهودة الشريف عاوز (يجندني) ولا شنو.

وفي اليوم التالي أخبرني موسى أنه أوقف سيارته بعيداً عن الطريق أحنى رأسه ليرفع زجاج الباب فإذا به يسمع صوتاً مدوياً اتضح أنه بسيارة مسرعة فقد سائقها توازنها فخرجت عن الطريق واصطدمت بسيارته في الوقت الذي كان فيه يهم بقفل الزجاج وانقلبت سيارة موسى من عظم الضربة وأخرجه رواد المناسبة دون أن يمسه شيء سوى قطع الزجاج الأمامي التي تناثرت داخل جيب القميص، ولما هم بإخراجها وجد (ورقة) الشريف ناجي، فتأثر موسى لدرجة كبيرة وأصر أن أعطيه أول فرصة يحضر فيها لتكريمه: إذ بدأ إيمانه بالخوارق.

كانت الفرصة في مارس ١٩٨٥م في عشاء بمنزلي دعوت له موسى لأني- وقد قلتها معتذراً- علمت مؤخراً بحضور الشريف وكنت مسافراً في اليوم التالي إلى مؤتمر برلماني وبسماحته المعهودة أيضاً قبل عذري.

وأثناء العشاء أشار موسى إلى حالة الاستياء العامة في البلاد بسبب التطبيقات الخاطئة لقوانين سبتمبر، وأن الرئيس نميري أصبح أسيراً لمجموعة صغيرة لا تعلم ما يدور في البلاد، قال له الشريف الناجي النميري مسكين عيان، وبعد ما يمشي أمريكا ما برجع حاكم تاني.تساءل موسى : يعني نستعد لحكم عمر محمد الطيب، ضحك الشريف وقال : لا البلد تنقلب فجاييكم حاكم اسمه (سوار الدهب) وبسرعة قلت له : أنت بتعرف سوار

الذهب؟ دا ما يقلب تربيزة، ضحك وقال يا إبراهيم دا كلام فقراء ساكت. أنت بتصدق كلام الفقراء كمان. قلت له انت بالذات كلامك بصدقه، ثم تغير الحديث لموضوع آخر.

وفي الصباح حاولت بكل ما أستطيع إبلاغ ما دار إلى محمد الحسن أحمد الحاج وزير رئاسة مجلس الوزراء، وبما أني لم أكن وزيراً وقتها فلم يكن عندي (تليفون سري) وعند الاتصال بمكتبه أفادتني السكرتيرة بأن معه أحد السفراء وكما هي العادة يتم الاتصال بمجرد خروج السفير، ثم أفادت السكرتيرة بأن محمد الحسن وهو يودع السفير طلبه رئيس الجمهورية وذهبا سوياً للاتحاد الاشتراكي. وفي الاتحاد الاشتراكي أفادتني السكرتيرة (سهير) بأنها سوف توصله بي ولو في غرفة كبار الزوار بالمطار.

وجاء موعد الإقلاع ولم أتحدث مع محمد الحسن أحمد الحاج إلا ونحن داخل سجن كوبر إثر عودتي من الخارج واعتقالي بصفتي (وزير المالية) التي كنت قد أعفيت منها قبل الانتفاضة بأربعة شهور ولم يكن النائب العام عمر عبد العاطي على علم بذلك عندما أصدر أمر اعتقالي.

محمد الحسن أحمد الحاج تعجّب من عدم تمكني من الاتصال به إذ قال لي أن شيخ عبد الرحمن- (لا يزال موجوداً في قريته كُلبُس بدارفور) أبلغ الرئيس نميري إذا ذهب إلى الولايات المتحدة فلن يعود رئيساً ولم يفلح إقناع الرئيس بعدم السفر.

كان محمد الحسن يتوقع أنه إذا وصلته إشارتي نقلاً عن الشريف الناجي الذي يعرفه الرئيس نميري حق المعرفة ربما، ربما، تعزز تلك الإشارة من رأي شيخ عبد الرحمن،ولكن (المكتولة ما بتسمع الصايحة) كما يقول المثل.

... وشيخ جلود (غير عبدالسلام جلّود رئيس وزراء ليبيا):

ومن عجب فقد تذكرت وأنا في سجن كوبر وصية كلفني شيخ تونسي اسمه (شيخ جلود) لكي أبلغها لعمر محمد الطيب النائب الأول ورئيس جهاز أمن الدولة في ذلك الوقت (١٩٨٤م). كنت وزيراً للمالية وفي طريقي إلى إجتماع في تونس عندما كانت الجامعة العربية قد إنتقلت اليها عقاباً لمصر على توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام مع إسرائيل.

سلّمني عمر محمد الطيب خطاباً أوصاني بالحفاظ عليه وتسليمه يداً بيد لشيخ في تونس هو (الشيخ جلود) وسيقوم بتوصيلي إليه في منزله (محمد) رئيس جهاز الأمن بالسفارة. لا السفير موسى عوض بلال، قال لي موسى أن شيخ جلود- باعترافه له- رجل عالم بعلم النجوم Astronomy لكنه ليس منجماً Astrologist وبمقابلته شرح لي الفرق بين الإثنين دون أن أسأله باعتبار أن الأول علم مثل الكيمياء والرياضيات والنحو- أما الثاني فهو بالغيب.

سلمته الخطاب وانسحب رجل الأمن، وبعد فترة من التأمل قال لي لا أستطيع أن أعطيك رداً مكتوباً وسيكون ردي الشفوي قصيراً يمكنك حفظ كلماته وتقوله للأخ عمر وحده: "في أبريل القادم (١٩٨٥) النميري بطيخْ"، خمس كلمات فقط. رددتها أمامه مرتين ولما اطمأن لذكائي طلب مني أن أخبره بأنه سيحضر للخرطوم في طريقه للحج وسيخبره بالتفاصيل ثم سألني هل تعرف شخصاً سودانياً اسمه (دفع الله) قلت أكثر من شخص، قال دفع الله الحاج يوسف، قلت نعم أخ وصديق وزميل عمل سابق، قول له النميري سوف يعرض عليك منصب كبير كبير، أقبله سوف يفيدك في مستقبلك.

في يوم عودتي للخرطوم كانت هناك جنازة عسكرية للفريق إبراهيم عبود حمل جثمانها الجيش ومشت فيها القيادات السياسية لثورة مايو وقابلت دفع الله الحاج يوسف

وكان وزيراً للتربية وأبلغته (الوصية) وتعجّب إذ إنه لم يكلف شيخ جلود بأي أمر ولم يقابله منذ فترة. أكد لي أن الرئيس عرض عليه أن يكون رئيس القضاء ثم أخبرت عمر محمد الطيب بالوصية الشفوية، وطلب مني- وقد أكدت له- أن يكون الأمر بيننا فقط، تذكرت أنه قد تطابق حديث الشيخ مع حديث الشريف مع عالم النجوم، لم أذكر الوصية لأحد إلاّ في هذه المسيرة (الذكريات... المذكرات).

....وعودة للشريف الناجي:

بعد ذلك قامت انتفاضة أبريل ١٩٨٥م واعتقلت لفترة ذهبت بعد الإفراج عني إلى النهود حيث تم الاحتفال ببراءتي، وفي طريق العودة زرت الشريف الناجي ومعي أخي منصور منعم وابن عمي محمد صالح منصور والد المحامي صلاح الدين. وكانت التحضيرات للانتخابات على أشدها وأشارت كل الدلائل إلى احتمال فوز الصادق المهدي وتولي رئاسة الوزارة وحدوث استقرار للبلاد.

غير أن الشريف الناجي قال في معرض (الونسة) الصادق يفوز لكن البلد تعمها (فوضى) لا يصدقها أحد وما يقدر يعمل شيء واحد لحد ما يتسلمها (عسكري) وفي عهد (العسكري) يعم البلاد الظلم بقدر لم يسبق له مثيل ولا يصدقه أحد ويشمل كل مناحي الحياة: قتل أبرياء وسجن وتعذيب وقطع معايش لكن (يخلص البلد منه واحد يتفق مع الأمريكان ويطلع الزيت والحالة تتبدل إلى أحسن والناس تغني وترتاح).

ابن عمي محمد صالح منصور كان حاضراً كما ذكرت ويمزح مع الشريف الناجي من وقت لآخر وسأله : إن كان يحضر الزمن دا، رد عليه إنت يا محمد صالح إن شاء الله تحضره.

ثم بسرعة أدار الحديث إلى موضوع آخر... ومع ذلك فقد كان الشريف الناجي يتحاشى مقابلة الحكام، وفي زماننا الرئيس جعفر نميري بالذات، وعندما أعلن قوانين (سبتمبر ١٩٨٣م) كان رأيه عدم تطبيق الحدود في ذلك الوقت لأن (البلد يا دوب طلعت من مجاعة ومَحَل أهلك الحرث والنسل).

سمع الرئيس بقدومه للعاصمة فأرسل في طلبه وقال له أنه أعلن الشريعة ويتوقع من رجال الله أمثاله أن يقفوا بجانبه ويعززوا حكمه حتى يعمل على تعميم شرع الله في كل أنحاء السودان، رد الشريف الناجي بأن موضوع الحكم بالذات من أخص خصوصيات المولى الذي قال (يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء)، لذلك يا السيد الرئيس إذا جاءك رجل من أولياء الله وقال لك إنك ستبقى في الحكم خمسين سنة حتى تعمم حكم الله فإنك إذا بقيت في الحكم تلك المدة (تفتكر إنه دا من كرامات الفكي لكن لو ما بقيت في الحكم فإنك سوف لا تقابل ذلك الشيخ ولا هو هيقابلك) لذلك فاترك أمر البقاء في الحكم للمولى الذي يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وتفارقا.

من النوادر التي يحكيها عن الشريف الناجي صديقه وزميله في (السياحة- وهي التعبد في الأراضي الخلوية غير المأهولة) الشيخ أحمد البدوي من رجالات ضاحية أم درمان وكان تاجر (جلود) مرموقاً ثم تحول إلى تجارة الدمورية والدبلان إذ إن الشريف الناجي حذره من تجارة (الجلود) لأن بها (جهالة وغُرَرْ) ، فالجلد الجاف لا يعرف أحد ما بداخله من ثقوب أو أخطاء أثناء عملية السلخ. استجاب أحمد البدوي لنصيحة زميله وجاءني في مصنع النسيج السوداني بتوصية منه ليعتمد ضمن تجار قطع الدمورية والدبلان.

كان للشيخ البدوي علاقة بالأستاذ محمد أحمد محجوب المحامي واستمرت العلاقة إلى أن أصبح المحجوب رئيساً للوزارة، وفي مرة سأله المحجوب إن كان يعرف شيخاً- هو أو غيره- يمكنه أن يكتب (حجاباً) ضد الرصاص لجلالة الملك حسين بن طلال القرشي الهاشمي ليحميه من تهديدات الفلسطنيين لاغتياله فهو صديق عزيز وحاكم عربي شجاع ومن الدوحة النبوية الشريفة. وعد أحمد البدوي بالاتصال بأخ له في الله وهو أيضاً قرشي هاشمي ومن الدوحة النبوية الشريفة.

إتجه أحمد البدوي إلى دار حمر- إلى مدينة الخوي التي تقع بين الأبيض والنهود.ووصل إلى أخيه في الله وقص عليه القصص. بعد تمنع استجاب الشريف الناجي لطلب أخيه في الله ولحماية أخيه في الدم وكتب- كما أكد لي الشريف الناجي (الحجاب) وقام بربطه على رجل خروف ثم جمل ثم ديك ولم يؤذى أياً منها الرصاص الذي وجه إليه من مسدس ومن بندقية خرطوش. سافر أحمد البدوي وأكد نجاح المهمة.

اتصل محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء بالشريف ناصر خال الملك حسين وأبلغه النبأ السار. وفي عمان تم اختبار(الحجاب) هذه المرة بسلاح أقوى من النوع الذي يستخدمه الفلسطينيون وذهبا لجلالة الملك الذي أصر بعدم اعتماد الاختبار إلاّ على شخصه لأن الفلسطينيين سوف لا يصوبون سلاحهم نحو خروف أو جمل. وفي شجاعة نادرة صوّب رئيس الحرس مسدس جلالة الملك نحو قدمه اليسرى وأطلق ست رصاصات خمس منها أصابت القدم دون أن تحدث بها أذى والسادسة لم تنطلق.

تسلم أحمد البدوي جائزته نصف مليون دينار طلب من الشريف ناصر أن يشتري له بها ذهباً: جنيهات وسبائك من بيروت وأن يضمن صعوده للطائرة ويخطر المحجوب برقم الرحلة وتاريخ الوصول.

على لسان أحمد البدوي وبحضور الشريف الناجي- الذي رفض استلام أي جزء من الجائزة- اشترى عدداً من المنازل في حي الثورة وتزوج مجدداً. ثم منزلاً في الخرطوم استأجره بنك باركليز.

يبدو أن أحمد البدوي قد أسر للشريف ناصر خال الملك باسم الشريف الناجي. وقد حدثني الشريف الناجي أنه كان في زيارة وعمرة للملكة العربية السعودية وفي فندق متواضع عاد ليجد الفندق يزيد من الاهتمام به لأن سيارة ملكية حضرت وأخبره سائقها أنه سيأتي لكي يذهب بالنزيل إلى الشريف ناصر للعشاء معه.

كان الوقت بعد الظهر وقال الشريف إنه جلس على سجادة الصلاة يفكر في أمر الدعوة وجاءته إغفاءة رأى فيها خال الملك يحمله محاولاً إجلاسه على كرسي مذهب قاعدته من نار. خرج من الفندق تاركاً حقيبة يده وعلى المنضدة ما يكفي ويزيد عن حسابه بالفندق وأخطر المدير أنه ذاهب لزيارة صديق وسيعود قبل المغيب ليلبي الدعوة.

اتجه رأساً إلى مطار جدة ووجد سودانياً من رجال الطيران توسّم فيه الخير وأبرز له تذكرة توسل إليه أن يجد له أي مقعد في أي طائرة متجهة إلى الخرطوم سواء بنفس التذكرة أو بتذكرة جديدة على خط طيران. وقد كان. وعندما أقلعت الطائرة قال لي أن الشريف ناصر حرصاً على ملك ابن اخته يريد أن يورطني في عمل من أعمال الحكم لا يرضاه الله- تخيلت أن العمل ربما كان اغتيالات لقيادات فلسطينية.

ثم شيخ الصحراء :

ومن المشائخ الذين قابلهم الرئيس جعفر في أول رحلة له بالسيارات في بداية عهد ثورة مايو فيما عرف بحملة مكافحة العطش شملت أجزاء من مديرية النيل الأبيض ومديرية كردفان أن التقى شيخاً يعيش في (قطية) في منطقة شبه صحراوية من أعمال مدينة بارا.

جلس الرئيس أمام الشيخ وبعد التحايا قدم له الشيخ كمية من البلح فأخذ الرئيس ثلاث بلحات. ولكن الشيخ طلب منه أن يملأ يديه الإثنين. ففعل. ثم طلب منه أن يحسب العدد فوجدها ستة عشر تمرة.فقال له الشيخ (يا هن سنين حكمك يا ولدي). روى القصة شاهد عيان من موظفي وقاية النباتات- مكافحة الجراد الصحراوي. وقد كان حاضراً بحكم تردده على الشيخ أثناء عمله. وقد روى لي ذلك في عام ١٩٧٢م . بعد أن توليت الوزارة بشهور.

...وبله الغائب:

ولعل العديدين من أقطاب مايو (السدنة كما يحلو للقوى الحديثة تسميتهم) يذكرون أحد المشايخ والذي امتد وجوده في الحياة العامة حتى عهد الإنقاذ (وقت كتابة هذه الذكريات أو المذكرات في مايو ٢٠١١م) وهو الشيخ بله الغائب محمد : من أبناء كردفان أبوزبد وقبائل البقارة.

دخل على الرئيس نميري في مكتبه الحصين في القيادة العامة لقوات الشعب المسلحة إذ رفع رأسه من القراءة ليجد شخصاً جالساً على الأرض ينظر إليه، نادى على مدير مكتبه محمد المنير حمد ليسأله ففوجئ بالمدير يشاركه العجب. وبسؤال الضيف أفاد بأنه مظلوم: كان

يعمل في القيادة الشرقية وأتهم زوراً بسرقة ذخيرة وأرسل إلى حامية الخرطوم حيث وضع في زنزانة وعليه القيد والسلاسل، وبقى عدة أيام لم يسأله أحد.

وبالاتصال بالحامية جاءت الإفادة مؤكدة وجود المتهم مقيداً في الزنزانة، ثم جاءت الإفادة بعد قليل بأن الزنزانة ليس بها سوى السلاسل وقد هرب المتهم. لكن العجيب أن باب الزنزانة مقفل بالقفل الثقيل والترباس من الخارج. وهكذا نمت علاقة بين الرئيس وشيخ بله الغائب كما عرف فيما بعد.

وكما يذكره السدنة يذكره (السندكاليون) أيضاً عندما أحضر لأحد (الأمريكان) زهرية من داره في الولايات المتحدة في ثوان مؤكداً قول من عنده علم من الكتاب الذي قال لسيدنا سليمان عندما يسأل من يأتيه بعرش سبأ بلقيس: (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك).

وشيخ بله الغائب يذكره ويتعامل معه بعض رجال ثورة الإنقاذ الوطني. أو لو شئت الدقة المؤتمر الوطني ولعل من حضروا المؤتمر الاقتصادي عند بداية الثورة يذكرون العرض الذي تقدم به باستخدام (الجن) لتنزيل الثروة (ذهباً أو دولاراً) ولئن لم يأخذه البعض بالجد في العلن الله وحده يعلم من أخذه بالجد في السر، ولا يزال . أما الوسيط مع رئيس الجمهورية فهو كما ذكر لي الشيخ بله الغائب : الأستاذ رئيس تحرير الرأي العام كمال حسن بخيت والذي يمت بقرابة مع الرئيس. ومن أقوال الشيخ بله انفصال الجنوب وعودته بعد ٣ سنوات. وبقاء عمر البشير في الحكم ٣١ عاماً و٢٥ يوماً. وانقلاب عسكري في أريتريا يطيح بالرئيس أسياسي أفورقي. وسبب علاقتي به أنه كان في بداية عهده يتاجر في الأراضي

الزراعية ويعمل (سمساراً) لها في نفس الوقت. وقد اشتريت منه بضعة قطع لا أزال أتعيش من ريعها بعد أن تقدمت بي السن.

انفصل الجنوب. ولم يعد بعد ٣ سنوات. ومع تأكيده باستمرار حكم الرئيس عمر وهو ما نعيشه اليوم (٢٠١٧) إلاّ أن الإطاحة بالرئيس أفورقي لم تتم حتى الآن(٢٠١٧م).

....والشيخ النور:

ومن الشيوخ الذين ظهروا مع ثورة مايو ١٩٦٩م وفي بداياتها الشيخ النور الخليفة الشيخ جودات من قبيلة سليم في منطقة كوستي والمعروف اختصاراً باسم الشيخ النور. وكانت له معاملات مع الرئيس نميري ومع جهاز الأمن بقيادة عمر محمد الطيب في كشف العديد من خطط وشخصيات المعارضة لم يحن الوقت لكشفها.

تميّز أنه استخدم إحدى عملياته أو بالدقة استخدم أهله بعض الأسرار في إطلاق سراحه من سجن كوبر عندما تم اعتقال (السدنة) وقد كان بينهم.

تقول الرواية أن نفراً من رجال (القوى الحديثة) ذهب إلى منزله في مدينة كوستي وطلب مفاتيح سيارته ذات الدفع الرباعي ماركة نيسان باترول لأنها حسب ما وصلهم من معلومات اشتراها جهاز أمن مايو مكافأة له على بعض خدماته.

قاد النفر السيارة من كوستي وتوقفوا بعد كوبري كوستي لدى نقطة الشرطة للتزود بالوقود للرحلة إلى الخرطوم. ولما كان الوقت صباحاً فقد وجّهوا السيارة نحو الغرب، نحو كوستي لحين بدء الرحلة حتى تكون مقاعد السيارة بعيدة عن حرارة الشمس. ثم تحرك الركب وعندما دارت السيارة على اتجاه الخرطوم توقفت عن السير، ولم تفلح كل المحاولات لدفعها للأمام.

أحد أفراد الشرطة، ويبدو أنه من أتباع الشيخ، اقترح أن توجه السيارة نحو كوستي وبمجرد تحريك عجلة القيادة تحركت السيارة بضعة أمتار نحو كوستي ولكن ما أن توجه السائق نحو الخرطوم حتى توقفت مرة أخرى. نصح المسئول عن نقطة الشرطة وفد الخرطوم بأن يترك السيارة في حفظهم والعودة لإبلاغ من أرسلهم بالواقعة.

كنا جلوساً نتسامر في السجن بعد انتهاء نشرة أخبار التليفزيون في العاشرة مساءً عندما فتح باب سجن كوبر الداخلي لا لإدخال معتقل جديد. بل لإخراج شيخ النور لأنه مطلوب للتحقيق، ولما كانت التحقيقات كلها تنتهي في الثانية ظهراً ويعود المعتقلون إلى السجن ولا يخرج أحد بعد ذلك إلاّ في صباح اليوم التالي كان الأمر عجيباً وظللنا ساهرين إلى أن عاد شيخ النور وعلمنا منه أن الطلب كان من رئيس المجلس العسكري للانتفاضة المشير سوار الدهب.

ثم حكى لنا الواقعة التي حدثت في نقطة شرطة الكوبري، وبعدين قال له المشير لابد أن يكون هناك خطأ ما أدى إلى اعتقاله وأمر بالإفراج عنه فوراً.... وليلاً وقبل أن يصبح الصبح وتفتح أبواب المكاتب، وأنا أودعه قال لي: إنت شغل واحد ما جاييك، ممسوك ساكت، والعساكر. يقصد: خالد حسن عباس وبقية زملائه ضباط مجلس قيادة الثورة) إعدام واحد ما جاييهم وبعد كم سنة يتفكوا. صدقته وقد كان الإفراج عنهم من انقلابيين مثلهم هم رجال ثورة الإنقاذ.

وبعد الإفراج توطدت علاقتي مع الشيخ النور وقد أسر لي يوماً أثناء الحكم الديمقراطي الإئتلافي (الديمقراطية الثالثة) أن الجيش تاني يقلبها على (الصادق)- الصادق المهدي رئيس الوزراء. وبعد ثلاث سنوات من انقلاب الجيش ودعني مسافراً للسعودية

والخليج وقال لي كان عمر (عمر حسن أحمد البشير) تم السنة الثالثة دي في الحكم يكون نجمه صاعداً أكثر من السيدين يستمر أقله عشرين سنة. لو كان الصادق ومحمد عثمان الميرغني بسمعوا كلامك قول ليهم معارضتكم دي خلوها واتفاهموا معاه وصالحوه قبل ما يصالح جون قرنق. قلت له أنا شخصياً مصدقك لكن إذا قلت لهم هذا الكلام سيكون ردهم: ده نظام منتهي ، إذا عاوز تتعاون معاهم ما تفتش ليك عن مبررات. وبالفعل هم المعارضة خلوها. وصالح هو جون قرنق. وظل أكثر من عشرين عاماً حاكماً لم (ينزع) من الملك خلالها.

وبعد غزو الكويت أتاني شيخ النور وأبدى أسفه لما حدث وطلب مني أن أعد له لقاء مع دكتور عبدالله السريع سفير الكويت بالخرطوم والذي نزعت منه ثورة الإنقاذ اللقب باعتماد اسم الإمارة صلاح الدين رقم ١٩ الذي أطلقه الرئيس صدام على الكويت.

قابلنا السفير الكويتي وتعهّد له شيخ النور بالعمل على خروج القوات العراقية من الكويت بسلام وهدوء في ظرف ٢١ يوماً على شرط أن يأخذه إلى المملكة العربية السعودية لمقابلة سمو أمير الكويت. راوغ السفير في ذلك وأخبره أن سمو الأمير محاط بقوة أمنية لا تسمح له هو السفير بمقابلته ناهيك عن مواطن لدولة (السودان) أيدت الغزو.

رد عليه شيخ النور بأن التأييد من الحكومة. وليس من كل البلد. فما كان من السفير إلا أن ارتكب غلطة العمر كما يقولون إذ قال للشيخ باختصار أنت عاوز كام عشان تطرد قوات صدام؟.

صدم شيخ النور، فليس من عادته (المقاولة أو المفاصلة) في القيام بخدمات ورد على السفير في ذلك المعنى وأفاده بأنه بعد أن يتم الجلاء سيقبل أي شيء يدفعه صاحب السمو.. ثم استدرك : وهنا ذهل السفير: لا أقبل ولا مليم والله العظيم وهذا قسم.

ولما رأيت غضب الشيخ، ثم إصراره على العملية أردت الانسحاب لعلهما يتفقان على انفراد، لكن السفير استبقاني. وقام شيخ النور بأخذ (فتاحة الظروف) المعدنية من أمام السفير وتمتم ببعض الأدعية ووجهها نحو السفير فإذا بها (تلتوي) وتصبح في شكل دائري وتركها على المنضدة. وهنا خرجت، وبعد قليل عدت خشية أن ينفعل شيخ النور مرة أخرى إذ هو سريع الغضب فوجدت السفير جاثياً على الأرض عند قدمي الشيخ.

ما دار بينهما في الدقائق القليلة التي غبت عنهما كان حديثاً خاصاً بحياة السفير أراد به شيخ النور أن يؤكد للسفير أنه ليس دجالاً أو طالب مال وإنما استثاره تصرف العراق نحو بلد عربي ومسلم وجار.

بعد فترة من اللقاء اتصل بي الدكتور عبدالله السريع وطلب مقابلتي عاجلاً وعند اللقاء وقبل السلام ابتدرني: فين الشيخ؟ بسرعة هاتهولنا، صاحب السمو يريدا. أقسمت له بأنه منذ لقائنا معه ودعني مسافراً إلى عمرة ثم إلى الخليج ولا أدري عنوانه. لم يصدق واستحلفني فحلفت له. ما قالك شيء. قال السفير أضاع فرصة، صدام سوف يرحل لكن بعد أن يدمر الكويت وكنت عاوزه يرحل في ظرف شهر وبسلام. حاولت جهدي أن أبحث عن شيخ النور فقد كان قلبي على الكويت مثله ولم أفلح إلى أن هبت عاصفة الصحراء واحترقت أبار البترول ثم تدمير الكويت وكذلك تدمير جيش وكرامة العراق.

وحكاوي شيخ النور لا تنتهي وقد استحلفني ألا أبوح بالعديد منها، وها أنذا لا أقول.

.... وآخر من بربر:

محمد أحمد جحا الشهير باسم (دقيس) تربطني به، بجانب الزمالة والصداقة، علاقة مصاهرة إذ إن والده متزوج من أختي حليمة وله منها كما سبق أن أوضحت عبد المنعم العقيد مهندس بالجيش ومحمد الماحي المهندس الزراعي والدكتور حيدر الطبيب الأخصائي الحائز على جائزة علمية في الطب في تخصص نادر.

بعد وفاة والده، أحمد جحا، حضر للعزاء شيخ من أهلهم (ناس بربر) يعمل إمام مسجد في قرية من ضواحي بربر بالجانب الغربي للنيل. وقد حضرت للتعرف عليه وتحيته.

كنت وقتها وزيراً ولكن بعد لحظات من الجلوس معه طلب من (دقيس) أن يحضر (كورة) بها ماء وغطاء للكورة. وقال مخاطباً (دقيس) أخوك دا مكبل بمصايب لا يعلمها إلا الله.

وسألني بتشتغل شنو. وزير. الله يحفظك. طلب مني أن أضع يدي اليمنى على غطاء (الكورة) ثم بدأ يقرأ سراً وشفتاه تتحرك. ثم بدأ العرق يتصبب من جبهته وكنا في فصل الشتاء. ثم أصبحت أنفاسه تعلو وتهبط. ثم هدأ وهو لا يزال يقرأ سراً ثم طلب مني أن أرفع يدي من (الكورة) وقام بفتح الغطاء فإذا بالماء الذي في الكورة ملئ بالطين وتغير لونه.

غسل يده اليمنى وأدخلها ليخرج علبة من صفيح يغطيها الطين وعندما قام بفتحها أخرج منها قطعة قماش ملفوفة وبداخلها شعر ومسامير وأسلاك وورقة مكتوبة لم أستطع قراءة شيء فيها غير اسمي إبراهيم، وداخل الورقة (عروق) أشجار. وضع كل المحتويات على غطاء الكورة وطلب ناراً وحرقها.

لم تبدو الدهشة على وجه (دقيس) الذي اعتاد على رؤية أمثال هذه الخوارق ولكن بالنسبة لي كانت المرة الأولى. وسألته من قام بهذا العمل، فقال لي حسادك كثيرين لكننا خشية الفتن لا نبوح بالأسماء. هل لا يزال هناك شيء، قال نعم وإن شاء الله في مناسبة أخرى سترى.

حضرت بعد عدة أيام فوجدت الرجل قد عاد إلى قريته. نسى (دقيس) أن يخبرني للحضور لوداعه وربما لجلسة أخرى. وفاتت عليّ المناسبة الأخرى فتركني- كما قال- مكبّلاً بما تبقى.

... وآخر من شمبات:

قرأت مرة، قبل عشرات السنين، للأستاذ إنيس منصور مقالاً شيقاً في آخر ساعة عن تحضير الأرواح في الشرق الأقصى، ولم أكن أتوقع أن أقابل التجربة في داري بضاحية الصافية عام ١٩٨٣م إلا عندما زارني الأخ الطيب محمد خير سرور وأخبرني أن معه بالخارج (شيخ كمال- من شمبات) ويستأذنني إذا كنت أرغب أن يقوم بتحضير (روح) أي شخص من الموتى.

رحبت بالفكرة ودخل شيخ كمال ومعه (سلة) صغيرة يمكن أن تحمل بأصغر أصابع اليد- الخنصر- وطلب مني إحضار ورق كثير وأن أضئ الأنوار حتى تكون ساطعة. ثم ربط قلماً في طرف (السلة) وطلب مني ومن الطيب أن نمسك بكل قوة ثم أنوي في (سري) شخصية من أريد أن يتم تحضير روحه.

وبدأ يقرأ دون أن نتبين الكلمات ثم سرعان ما بدأ وزنُ السلة يزداد. وثقلت ثم أفلتت من يدينا نحن الإثنين وطارت إلى أعلى ثم سقطت على الأرض. نبهنا شيخ كمال أن نمسك بقوة لأن الروح بدأت تنزل في السلة.

ثم بدأ القلم يتحرك ويكتب بسرعة فائقة أشبه في زماننا بشريط (التلكس) وبعد عدة دقائق توقف القلم وخف وزن السلة وجمع شيخ كمال الأوراق العديدة التي تمت كتابتها ورتبها ثم سلمها لي وبدأت في القراءة السلام عليكم يا أخانا إبراهيم. هذه روح شيخ مهيب قابلته في (البرزخ) وأخبرني أنه والدك الذي طلبت تحضير روحه. ويقرؤك السلام ويوصيك بزوجته حواء وبناتها وابنها إذ إنهم جميعاً أصغركم. وتوصي إخوانك المقيمين في النهود على تزويج البنات. هناك في غرفتي بنادق تخص أولاد شيخ منصور إسماعيل (قراض القش) وحسب وصيتي تسكن زوجتي حواء وذريتها في غرفتي وملحقاتها. ثم ذكر معلومات أخرى خاصة عن الأسرة قبل أن يقول ونستودعك الله.

ثم استمرت قراءتي للكتابة: بأنني سألت والدك عن العبادة التي أوصلته هذه المنزلة فقال: إن أكثر ما أفادني هو عطاؤنا للناس فأوصي إبراهيم بذلك.

وهنا توقفت الكتابة بعد أن اختتمت بالعبارة التالية : لولا أنني مرتبط بأمر هام لبقيت أكثر ولكنني أعلم أنك تأتي إلى الإسكندرية كثيراً فأرجو أن تزورني: المرسي أبو العباس.

وعلمنا من شيخ كمال أن الذي أتى بالروح وكاتب الرسالة هو ولي الله المرسي أبو العباس ساكن الإسكندرية وأنه- كما أكد لي شيخ كمال- المسئول عن أفريقيا من الإسكندرية حتى رأس الرجاء الصالح. ما كتبه عن والدي وزوجته وذريتها والغرفة وما لم أذكره ما كان يعرفه أحد. وكنت منذ ذلك التاريخ ١٩٨٣م أزور (الضريح) كلما حضرت إلى الإسكندرية بينما كنت قبل ذلك أصلي فقط في المسجد. والضريح يقع تحت أرض المسجد ويعلوه صندوق يتبرك فيه الزوار باعتباره الضريح.

وهناك من تعرفونه: الشيخ عبد الرحيم البرعي:

عوض الله حسين بابكر للذين يعرفونه شاب متدين. كان أقرب إلى جماعة الأخوان في فترة دراسته الجامعية (١٩٦٧-١٩٧٠م) ولا يؤمن بخوارق رجال الدين رغم نشأته في بيئة بها كل الخوارق التي ذكرتها في منطقة (النهود) وهو ابن أختي (الملكة) كان يستقل في رحلة من الأبيض إلى الخرطوم سيارة لا تحتمل حرارة الجو لعطب فيها وتستهلك المياه أكثر من المعتاد وخرج مبكراً بعد صلاة الفجر من الأبيض حتى يقطع قدراً من المسافة في جو الصباح البارد قبل أن تقابله شمس الضحى.

كان يقود السيارة خاله (أحمد منعم) والذي أفاده بأن يسلكوا طريق (قرية الزريبة) لكي يزوروا (الشيخ البرعي) في طريقهم إلى أم درمان. اعترض عوض الله بأن الزيارة سوف (تؤخرهم) خاصة إذا أصر الشيخ على استضافتهم إلى إفطار أو حتى شاي.

وبما أن عوض الله لا يعرف مسالك الطرق فإن أحمد منعم بعد أن أبدى موافقته على رأيه سلك طريق (الزريبة) وكان أن وجد عوض الله نفسه داخل حوش الشيخ البرعي. ثم جاء (الحيران) وتعرفوا على أحمد وهرعوا إلى مولانا بأن أحد أبناء الناظر منعم قد وصل.

جاء الشيخ مرحباً وقبل أن يطلب منهم أن يتفضلوا سأل عوض الله (إنت مابينا مالك يا ود حسين. نحن أهلك). وكانت المفاجأة التي جعلت عوض الله يعتذر بموضوع السيارة وحرارة الجو. واستهلاك المياه. واستقبال الشمس في الطريق شرقاً. رد عليه الشيخ البرعي ببشاشة: أشرب الشاي وتأكل معانا فطور الحيران لكن كنا دايرين نضبح ليك يا ود بت الشيخ منعم. تعجب عوض الله من معرفة الشيخ لاسم أبيه وأمه.رد عوض الله : كنت عاوز أصل الساعة خمسة مساء لأرد السيارة إلى شركتها قبل المغيب. لكن بعد التأخير دا إن

شاء الله أصل قبل ما تضلم. رفع الشيخ البرعي يديه وضرب الكفين وقال له إن شاء الله الساعة خمسة. ورفع اليدين وضرب الكفين هو أسلوبه في الدعاء و (الفاتحة) دون أن يقرأ.

عندما وصلني عوض الله في ضاحية (الصافية) ونزل للسلام كانت الإذاعة تعزف موسيقى أخبار الساعة الخامسة مساء. لم تتوقف العربة منذ أن غادرت (الزريبة) حتى وصلت (الصافية) إلا للتزود بالوقود وليس بالماء. ظل عوض الله منذ ذلك اليوم يردد: كنت فاكر أهل الله انتهوا والموجودين كلهم دجالين. لكن الشيخ عبد الرحيم البرعي أقنعني بوجودهم.

ومن لا تعرفونه: الشيخ صباح الخير:

في الطريق بين مدينة النهود ومدينة الضعين في جنوب دارفور يوجد (مسيد- خلوة قرآن) شيخها يدعى (صباح الخير) وهو دينكاوي من (أبيى) جاء (صباح الخير) إلى حوش الشيخ منعم منصور صبياً صغيراً دون العاشرة من العمر وانضم إلى منظومة (عيال الحوش) كما يسمون أنفسهم: بعضهم من دار حمر وبعضهم من خارجها مثل صباح الخير بل أن بعضهم من خارج السودان وانتموا إلى حمر فيما بعد.

دار حمر كما وصفها مكي أبو المليح مؤسس الدار (فروة النمر- يعني جلد النمر: كله نقط وكل نقطة قبيلة وكلهم حمر) كان صباح الخير ومنذ أن دخل الحوش مولعاً بصوت (النوبة) التي تضرب وترن كما قال المجذوب في قصيدته عن المولد. ترن كل ليلة إثنين وليلة جمعة.

ولكن صباح الخير لم يكن ينتظر قدوم الليلتين بل كان يعلق على رقبته(صفيحة) فارغة ويضرب عليها مثل النوبة ويردد الجلالة (الله أكبر ولا إله إلا الله) ويخرج بها من

الحوش عصر كل يوم متجهاً إلى خارج مدينة النهود يتبعه الأطفال وهم يرددون (الذكر) ويعود بهم قبيل المغيب.

أصبح الصبي شاباً. ثم حضر رجل من الدينكا وقابل الشيخ منعم وتوسل إليه أن يقنع ولده بالعودة معه إلى بلده إذ إنه هرب منه في المجلد قبل سنوات رغم تحذير (كجور الدينكا) له بأنه إذا لم يحافظ على ولده هذا فإنه سيهرب ويصبح (كجور مسلمين) رفض الشاب العودة مع والده ثم اختفى من الحوش ومن النهود وقال لي فيما بعد أنه ذهب إلى (الشيخ المكاشفي) في قرية الشكينيبة.

كيف عرفتها ووصلتها. ضحك وضحك والضحك عند صباح الخير هي إجابته على كل سؤال. ثم عاد إلى النهود وذهب إلى بلدة (غبيش) جنوب غرب النهود وجاء صباح يوم إلى جدي ورئيس المحكمة محمد عبيد الله مكين وقال له بحزن الشيخ منعم مات في الخرطوم وسيحضرون الجثمان بالطائرة وأنا ذاهب إلى النهود لأحضر الدفن.

لم يكن هناك (١٩٨٢) تليفون بين الخرطوم وغبيش ولم توجد الموبايلات بعد. شرب الجميع الشاي وأذيع الخبر في نشرة أخبار السادسة والنصف صباحاً. وصل الجثمان بالطائرة الساعة السابعة وشيع من المطار إلى مسجده وأثناء الدفن كان صباح الخير ضمن الذين عزوني و (شال الفاتحة) حضر محمد عبيد الله بعد العاشرة صباحاً بالسيارة من غبيش ووجد صباح الخير أمامه وسألني وأخبرته أنه كان ضمن المشيعين ثم حكي لي الواقعة.

صباح الخير يدير الآن (المسيد) وبه بضعة آلاف من الطلبة (الحيران) يحفظون القرآن ويغادرون الخلوة مبشرين في القرى. كيف تعيش يا صباح الخير؟. ضحك ثم ضحك وقال أنا عندي (زرع وبهائم) وثلاثة نسوان وبضعة أطفال. لكن المسيد والحيران يعيشون على الله.

على تبرعات وهبات المحسنين. واحد يجيب شوال عيش.واحد يرمي شوال سكر. واحد يجيب تور وآخرون وهكذا.

صباح الخير من دينكا(أبيى).

هذا ما كان من أمر رجال الدين : لكن هناك آخرون:

نهينا من الذهاب إليهم ولكنهم معنا :

قابلتني حوادث من ضاربي(الودع) و(الرمل) وغيرهم ولو لا أنني واقف عليها (رغم أني لم أسعى إليها) وأخرى لو لا أن رواتها ثقاة لما صدقتها ولا رويتها.

وأنا في صقع الجمل- حدث صغير- زارتنا إمرأة كانت صديقة لوالدتي قبل وفاتها واستمرت صديقة لخالتي فاطمة بعدها. اسمها (حواء بت عبد القادر) يخشى الجميع أن ترمى لهم (الودع) لأن رميتها (شوف عين) وأحياناً (محرج). لكنها، ومن تلقاء نفسها. قالت لي أخوك منصور رجع من (دار الريح) صححتها خالتي بأن منصور في (دار الصباح) لكنها أصرت أنه في دار الريح وقالت أنه رجع فاذهب إلى النهود ستكون أول من يقابله.

(دار الصباح) المقصودة هي أي بلد شرق النهود أو السودان وقد كان منصور الجندي فعلاً في (دار الصباح): في أثيوبيا. ثم انتقل بعد استرداد أثيوبيا من إيطاليا بواسطة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية إلى ليبيا. وهي (دار ريح- إى شمال) ولم تكن خالتي على علم بذلك. شهلتني خالتي بسرعة وفي أول قافلة جمال متجهة إلى النهود كنت معها ووصلت مساء اليوم الثاني وفي الصباح خرجت مبكراً ووقفت أمام (الدهليز) وهو الاسم الذي كان يطلق على البوابة الرئيسية لحوش الشيخ منعم بالنهود.

وفجأة ظهر منصور ومعه مساعد لوري يحمل شنطتين. وبكيت وأنا على صدره، وتذكرت (حواء بت عبد القادر).

وأنا في إدارة مؤسسة الخليج العالمية وعلى رأس مصنع النسيج السوداني كنت أسكن في ضاحية الصافية غرب فنطاس المياه الحالي. على شمال منزلي كانت هناك مساكن عشوائية عرفت باسم (حلة الكرتون) إشارة للمكونات الرئيسية لمواد بنائها وهي في أماكن المنازل الحالية لبدر الدين سليمان ومحي الدين صابر.

لم تكن هناك إمدادات مياه لسكان حلة الكرتون وكانوا يعتمدون- في صفوف منتظمة كل صباح- على (ماسورة) مياه على مدخل منزلي لري ميدان (النجيلة).

وفي عصر يوم ١٩ يوليو ١٩٧١م أعلن الرائد هاشم العطا البيان الأول مطيحاً بثورة ٢٥ مايو ومعلناً ثورة التصحيح. وفي اليوم التالي خرج العمال في موكب تأييداً لثورة التصحيح. وتلاه إعلان موكب لأساتذة الجامعات في اليوم الذي بعده. وفجأة دخل مكتبي رئيس نقابة العمال والأمين العام وأمين المال دون استئذان وطلبوا أن يأمر مدير أمن المصنع والمسئول عن شئون العاملين سائقي البصات بنقلهم للإشتراك في الموكب وعبثاً حاولت اقناعهم بالاشتراك في موكب ٢٢ يوليو الذي دعا له اتحاد عمال السودان بدلاً عن موكب أساتذة الجامعات في اليوم الذي قبله. رفضوا وقالوا انهم سيشتركون (ويدينون) وهي اللغة التي كانت تستخدم عدم تعاون الإدارة. ولما سألتهم إذا كانوا استأذنوا في الخروج سحب سكرتير النقابة ورقة من أمامي وكتب عليها بهذا نخطر الإدارة بأننا سوف نشترك في الموكب.

في يوم ٢٢ يوليو سمحنا لهم بالاشتراك في موكب اتحاد العمال. ونسبة لعدم الانضباط الذي ساد الأيام الثلاثة الماضية فقد قررت قفل المصنع لأجل يحدد ويعلن بالإذاعة والتليفزيون.

وبقيت ومعي مدير أمن المصنع عمر علي حسن حتى خروج آخر عامل وأشرف مع طاقم (الحراس) في الوردية على تنفيذ الأمر. وعند عودتي للمنزل مرهقاً إذ قضيت وردية الليل التي تبدأ في العاشرة مساءً واستمر وجودي في المصنع حتى نهار اليوم التالي وجدت تحت شجرة (ماسورة الماء) إمرأة وقورة أمامها مقصف (قفة) وخاطبتني بلهجة حانية (يا ولدي الله يستر الحكومة انقلبت) أردفت حديثها بأن (رمت) سبع ودعات على الأرض.

قلت لها أنت عرفك شنو بالحكومة. ردت بسرعة قبل أن أتركها (قول بخلت عليّ بالبياض: كله عشرة قروش) فنفحتها المبلغ ولكنها ألحت: الحكومة دي يومها دا ما بتمو. بس شوف الودعة الواقفة دي. أصبح الأمر مثيراً.

وقفت ورأيت الودعة الواقفة. قالت تمها خمسة وعشرين قرش. قلت لها أتمها جنيه لكن لو طلع كلامك كذب ناس الكرتون ديل كلهم يشربوا من الماسورة إلا أنت. ردت بثقة: يا ولدي الودع بكضب وبصدق لكن قسماً بالله كان الحكومة دي تمت يومها دا أنا تاني ما أخت ودع.

ذهبت متأهباً لنوم عميق ولكن التليفون رن بإصرار جعلني أرد فوجدت المتحدث المستر (بيانا لارسن) مدير مصنع الملبوسات الجاهزة المعروف باسم (سلوى بوتيك) على معرض الملبوسات بقلب الخرطوم. طلب مني المستر (لارسن) بتوسل شديد أن أحضر فوراً لمقابلته لأن سيارته ذهبت بها زوجته لشراء (أناتيك كذكرى Souvenirs) ولما كان هو

الدينماركي الوحيد وسط الجنسيات العديدة من الأجانب في مؤسسة الخليج لبيت الطلب وأنا شبه نائم.

قابلني حزيناً وتكاد دموعه تسبق حديثه طالباً العفو لأنه كان سيهرب دون استئذان مني إلى كينيا هو وزوجته ومن هناك إلى الدينمارك على طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كان من المقرر أن تصل صباح اليوم مقلة رأس الدولة: بابكر النور سوار الذهب ووزير الداخلية فاروق حمد الله لو لا أن العقيد القذافي قد أجبر الطائرة على الهبوط في ليبيا. عجباً. لم أكن قد سمعت الخبر بعد.

واستطرد أن مدير محطة الخطوط البريطانية بالخرطوم أعاره هو وزوجته ملابس طاقم الضيافة Crew وأراني الملابس. ولماذا فكرت في الهروب؟ والدتي أوصتني ألا أعيش في بلد يحكمه الشيوعيون لأنها في شبابها عاشت بضع سنوات في شرق أوروبا قبل أن تنتقل إلى بلدها الدينمارك. وتنفيذاً لوصية والدته فكر في الهروب رغم أني كنت دائماً أطمئنه أن المظاهر اليسارية التي يراها بعد ثورة مايو في الخرطوم وفي المنطقة الصناعية حيث المصنع لا تعكس واقع السودان ولكني كنت مشغولاً بخبر الطائرة وأكده لي من مصدره وهو مدير مكتب الشركة بالخرطوم.

في ذلك الوقت كان موكب اتحاد العمال قد حشد له مؤيدون بعضهم يحمل الأعلام الحمراء قد بدا في التفرق بعد انتهاء الخطب. وطلبت من المستر (لارسن) أن يسمح لي بالنوم قليلاً على كنبة صالونه واستغرقت في نومي إلى أن سمعت صوت (دانة) وطلقات من أسلحة لا أعرفها وفجأة دخلت زوجة المستر (لارسن) وهي تصيح : خرج الرجل خرج النميري رأيته يقفز من حيطة القصر الجمهوري في جلابية زرقاء اللون حاسر الرأس حافي القدمين

وركب سيارة لونها بنفسجي كانت تسير بالصدفة قرب القصر ثم جاءت دبابة وركب فيها وطلبت من عمي عثمان(السائق) متابعته حتى وصلنا ميدان(السجانة) حيث وجدنا مظاهرة تهتف له وخاطبها كما قال عمي عثمان بأن يفسحوا له الطريق لأنه ذاهب إلى (الشجرة). معقل المدرعات. وسيعود إليهم.

أكد عمي عثمان الرواية بحذافيرها وزاد عليها أن العربة (البنفسجية) الأولى التي كانت تسير بالصدفة تخص الفنان سيد خليفة وترجل منها نميري عندما وجد الدبابة.

اتصلت تليفونياً بمنزلي. ومن عجب كانت التليفونات تعمل كالعادة لأننا في اليوم الثالث لثورة التصحيح وجاءني الخبر بأن أتصل برقم معين بأسرع فرصة وعند الاتصال وجدت (عمر علي حسن) مدير أمن المصنع متلهفاً للقائي وأكد لي بأن (الراجل) خرج وهو الآن في (الشجرة) بعد أن أطمأن على ولاء المدرعات وفي طريقه إلى أم درمان حيث محطة الإذاعة ودار التليفزيون.

ثم اتصل عمر مرة أخرى وطلب مني أن أدير مؤشر الإذاعة على الموجة ٦٠ حيث صلاح عبدالعال يذيع في بيان بعودة ثورة مايو وبأنه عما قليل سيوجه الرئيس نميري نفسه كلمة إلى الشعب. سقطت الحكومة وما تمت يومها. وكذب المنجمون ولو صدقوا.

هذا عن الودع وماذا عن الرمل:

كان الزعيم الأزهري في سجن كوبر وأفرج عنه أيام المأتم لتلقي العزاء في وفاة أخيه علي. والإمام الهادي المهدي في الجزيرة أبا يحيط به أنصاره ومجموعة من الأخوان المسلمين ويمدهم الشريف حسين الهندي بالسلاح من إثيوبيا.

ثلاثة جمعتهم صداقة الجهاد يلتقون كل يوم يحللون المواقف وقرب سقوط النظام وهم: محمد عثمان صالح، عبدالله محمد أحمد وعثمان جاد الله.

حكى عثمان وهو من الأخوان المسلمين أنهم في الجو الذي كانوا يبحثون عن أي شيء يزيل الملل ويبعث روح الأمل، رأوا على البعد شخصاً يجلس على الأرض وبدأ لهم من على البعد أنه (رمالي- يضرب الرمل) ولما استجاب لدعوتهم أكد لهم أنه (رمالي) ومن أمس شايف الحال ما عاجبني.

طلبوا منه- كنوع من تزجية الفراغ- أن يضرب لهم الرمل. وبعد مرة أو مرتين تجهّم وجهه وقال لهم (التقل. في لغة الرمل الشخص الكبير المقام) في الخرطوم مات قبل شوية. فقلنا له نحنا دايرنك تشوفنا في الجزيرة أبا. ضرب الرمل مرة وثانية وثالثة وقال: الجزيرة دي جاياها نار من فوق ومن تحت قسماً بربي الليلة مابايت فيها. لكن إنتو الثلاثة تمشوا على الخرطوم تعزّوا في (التقل): إنت يا الكبير. يقصد محمد عثمان صالح دربك أبيض مرق من بلاد السودان. إنتو الإثنين تقوموا من الجزيرة وتفترقوا في الدرب.وتتلاقوا في السجن. الله يستر عليكم.

وفي دهشتنا من كلام الرجل جاءنا رسول يدعونا من قبل الإمام الهادي الذي أخطرنا بوفاة الزعيم الأزهري وأنه ينتدبهم للذهاب إلى أم درمان وتقديم العزاء باسم الإمام والأنصار والجبهة الوطنية التي كانت تضم أحزاب المعارضة: الأمة والاتحادي وجبهة الميثاق الإسلامي (الأخوان المسلمين).

كانت لدى محمد عثمان صالح سيارة روسية ماركة (فولقا Volga) وطلب من زملائه السفر معه عليها لكنهم حذروه بأن سيارته (معروفة للأمن) ويقترحون السفر جميعاً

بقطار الأبيض- الخرطوم الذي يقوم قبل المغرب من كوستي أو ربك ويصل الخرطوم الساعة السادسة صباحاً.

لم يقتنع محمد وسافر بالسيارة وعند وصوله صيوان العزاء كما حكى لهم فيما بعد، وجد فيه رجل الأمن عبد الوهاب إبراهيم وأطلعه على أوراق طبية لمواصلة العلاج في بيروت فما كان من عبد الوهاب إلاّ أن استدعى أحد أعوانه وطلب منه مباشرة إجراءات سفر السيد محمد عثمان صالح دون اعتراض من جهته.

ركب عبد الله محمد أحمد وعثمان جاد الله القطار في الدرجة الأولى وقبيل تحركه من محطة (ربك) سمعوا صوت شخص يمشي على رصيف المحطة ويهمس السيد عثمان جاد الله، السيد عثمان جاد الله فاستجاب عثمان متأكداً أنه أحد زملائه الأخوان المسلمين ليبلغه رسالة، فإذا به رجل أمن يحمل (أمر قبض وكلبشات) فاقتاده رغم توسلاته بالمرض من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثالثة التي يستقلها رجال الشرطة وصغار موظفي الدولة.

كان عبد الله محمد أحمد يقظاً فنزل من القطار في محطة قريبة من الخرطوم واستقل حافلة متواضعة ثم تاكسي إلى منزل في حي ودنوباوي وبعد أن استعد للذهاب إلى سرادق العزاء عرّج في طريقه إلى دكان (ترزي) من معارفه للسلام والسؤال عن الأحوال ثم جاءت سيارة فلوكسواجن أغنته عن التاكسي إذ بها رجل أمن اصطحبه معه إلى جهاز الأمن ثم إلى سجن كوبر.

كان أول من التقى به بعد اجتياز البوابة الداخلية للسجن زميله عثمان جاد الله تعانق الرجلان. ضحكاً. ثم جاءت (الفَكْرَة) كما يقولون وقالا: الله يستر على الجزيرة أبا. ثم جاءت

الأخبار بعد أيام بالنيران التي ضربت الجزيرة أبا من تحت ومن فوق وكذب المنجمون ولو صدقوا.

(ولا يفلح الساحر حيث أتى):

في أول زيارة لي إلى النهود وأنا وزير في حكومة ثورة مايو انفرد بي أحد خفراء المجلس الريفي من أقاربنا واسمه محمد علي ود فارس. وهنأني بالوزارة وأكد لي أن كل حاكم محسود سواء من زملائه أو من عامة الناس. ويصل الكيد من بعضهم إلى درجة القتل.

ولذلك وحماية لي من أمثال هؤلاء ، أحضر لي (حَبِلْ بَندْة) لاستخدامه عند اللزوم دفاعاً عن النفس وربما عند اللزوم في الهجوم على الغير استباقاً لحدوث الضرر.

حَبِلْ بَندْة عبارة عن أربعة أعواد صغيرة تربط بطريقة معينة بخيط متين من (الدوبارة أو التيل) وفي أحد جوانبه عقدة يمكن أن تشد أو تترك مرسلة.

قال لي إذا قام شخص بإحداث ضرر بك قم بتحذيره، فإذا لم يرعوي شد العقدة بدرجة بسيطة فيمرض. وكلما جذبت العقدة أشد اشتد عليه المرض فإذا أصر على أذاك أجذب العقدة إلى الآخر وهنا تفيض روحه غير مأسوف عليه.

اقشعر بدني رفضت العرض. ولكنه ظن أنني غير مصدق فقال إن اختبار (حَبِلْ بَنْدَة) هو أن توضع الأعواد الأربعة مع الحبل في مكان مشمس- تقع عليه الشمس- فتمشي الأعواد مع الحبل إلى الظل. وكرر أمامي العملية أكثر من مرة. وقمت بنفسي بوضع الأعواد والحبل في الشمس وجلست على الظل فتحركت إلى أن وصلت الظل.

كررت رفضي وقلت له يا عم محمد علي دا ما قتل. فرد علي. العاوز يكتلك أو يأذيك تعمل ليهو تعظيم سلام ولا تحمي نفسك. عجبت من منطقه وعجبت أكثر من (حَبِلْ بَنْدَة) وشكرته رغم أنه كرر بأنه جاء به (هدية) لا يطلب عليه مالاً. كان هذا في عام ١٩٧٢م.

ولما سألته عن (سر) الحبل أجاب بأنه (سحر) وحمدت الله أني رفضت الهدية فالسحر كما هو معلوم من الكبائر ومن الموبقات ونسأل الله السلامة إذ إن عاقبته كما يقال تظهر في الدنيا قبل الآخرة.

موضوع (السحر) ورد في أكثر من موقع في القرآن الكريم في أمر (سحرة) فرعون ولكنه أتى إلى الأرض مع الملكين (هروت وماروت) مما يؤكد أنه حقيقة وهما اللذان علماه للبشر ومن يومها استمر حتى الآن. قال تعالى : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ) ((البقرة ١٠٢).

وللتدليل على ذلك أروي عن شخص ثقة هو (الشريف محمد الخاتم محمد- مدير الضرائب فوزير دولة بالمالية- ثم وزيراً للمالية ومدير بنك الغرب الإسلامي: تنمية الصادرات حالياً) أرويها لأؤكد سوء خاتمة السحر على الساحر (فالسحر حقيقة وردت في القرآن: (ما جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَّ سَيُبْطِلُهُ) (يونس ٨١) كما قال سيدنا موسى مخاطباً السحرة).

قال الشريف الخاتم أن منطقة (كركوج- حيث يقيم ولي الله الشريف الخاتم الذي سمى عليه) أصابها مَحْل شديد وتأخرت الأمطار مما هزّ إيمان الكثيرين بعد أن أقاموا كل الطقوس المأثورة من (بليلة بسبع حبات من بقول، ثم عصيدة بملاح روب، ذبيحة وتلاوة

٤١ مرة لسورة يس) وختموا ذلك بصلاة الاستسقاء أكثر من مرة. كل ذلك في وجود الولي الشريف الخاتم وبقيادته.

استأذنه بعضهم في الذهاب إلى منطقة (الأنقسنا) لإحضار (كجور) مشهور قام بعلاج رجل مشهور هو محمد عوض يوسف البرلماني والقيادي في مايو بعد أن فشل في ذلك الطب الحديث في السودان ومصر. (هل هو والد الأستاذ عوض محمد عوض يوسف: أعتقد ذلك).

وقد أكد لي الشريف الخاتم أن محمد عوض رفض علاج الكجور لأن ذلك شرك بالله لكن بعضاً من أهله احتالوا شفقة عليه وقام (الكجور) بعلاجه بالفعل.

وبالطبع رفض الولي مجرد الفكرة ونصحهم بالصبر والاعتماد على الله. رغم ذلك تسلل بعضهم وأحضر (الكجور) الذي أقام احتفاله يوم (السوق) وأحضروا له كطلبه تيس أسود اللون و (ديك) أبيض اللون تم تقييدهما وسط الحلبة ثم بدأ في طقوسه وضرب (التيس) بالحربة فطار الدم ومسح جسده به وأطار رأس (الديك) ومسح بدمه وجهه وصار يترنم بصوت عال ويرقص في نشوة زادتها تجمعات الرجال والأطفال وزغاريد النساء.

وبعد قليل ظهرت لأول مرة بعض السحب. ثم إزدادت وعندها ذهب بعضهم للشريف الولي وأخبروه فقال لهم: وقعتم في الفتنة جعلها الله في كيد الساحر. وتوجه إلى (القبة) ودخل فيها وعند خروجه كانت الأمطار قد بدأت في الهطول وأسعفه بعض المريدين بغطائه إلى أن عاد لمنزله وهو يسأل الله ويستعيذه من شر الفتنة رغم هطول المطر بغزارة فإن الجمع حول (الكجور) لم ينفض بل ازداد.

وفي قمة الفرحة تلألأ برق غير عادي وصوت مدو لصاعقة ضربت من دون كل الحضور (الكجور) أردته بجانب ضحاياه من (تيس وديك) وتفرّق الجمع فراراً وتركوا الثلاثة في مضاجعهم إلى أن توقفت الأمطار وجاء حواريو الكجور وأخذوا الجثمان والقربانين وغادروا المنطقة بهدوء. لقد استجاب الله لدعاء الشريف الولي بأن جعل المصيبة في كيد الساحر.

لقد سقت هذه الحادثة لتكون فارقاً بين (السحر) وبين ما شهدته من (كذب وصدق العرافين) وبين ما تم بفعل آيات الله التي جاء في الأثر أنها (تهد الجبال) ومن رجال كان بعضهم أحياء إلى وقت (٢٠٠٨) وبعضهم لا يزال يتمتع بصحة وعافية (٢٠١١) أدامها الله عليهم.

وكما ذكرت فإن وجود أسرتنا في مدينة (النهود) كمحطة في الطريق إلى الحج وإلى العمل في مشروع الجزيرة لسكان غرب أفريقيا. بالإضافة إلى تديُن والدنا وتقبله لأبناء السبيل وترحيبه بمن ينتسبون إلى الدوحة النبوية الشريفة أو الذين تبدو على سيماهم علامة الصلاح جعلنا نعيش في بيئة تتقبل الكثير مما يظهره ضيوفنا من خوارق.

كما أن بعض هؤلاء قد تابعنا في مسيرة حياتنا بعد أن استقروا في السودان وفي دار حمر بالذات وأصبحوا (حمر) وأبناؤهم وأحفادهم الآن ينتسبون إلى (قبيلة حمر) رغم أصولهم غير السودانية وبعضهم قد كانوا أصدقاء للوالد أصبح علينا- بحكم الوصية النبوية- أن نبرهم بعد وفاته. وقد فعلنا.

ومن الغيبيات في عالم السياسة: الدكتور

والدكتور الألوسي: خليط من دين ودنيا

في عالم الغيبيات- سواء التي أقرها الدين (آلَمـ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (البقرة الآيات ١/ ٢/ ٣) أو تلك التي يلجأ إليها البشر من وقت لآخر بعضهم تزجية للوقت كما يقولون وبعضهم بحثاً عن (أمل) وآخرون عن يقين بأن للبعض قبساً من الدين يهديهم لبعض المعرفة وهناك من يعتبر أن هناك علوماً دنيوية لها أصول ومعاهد ترشد للتعرف على المستقبل خاصة في قراءة (الكف) وفي (الضرب على الرمل) من أهل (الأمل). دكتور الاقتصاد والوزير المصري السابق حسن عباس زكي الذي صار بعد الوزارة مستشاراً لكل من سمو الشيخ زايد في الأمارات والرئيس نميري في السودان. ويزور سيادته أضرحة أولياء الله في ولاية الجزيرة ويحمل علبة من معدن داخلها (رمل) يضرب به بخبرة تتحدى أي (رمالي) يجلس تحت شجرة في شارع القصر بالخرطوم.وقبل أن أفتح فمي متعجباً يبادرني (ما تستغربش يا منعم بيه. دا علم أخذته من أستاذ هندي في إحدى جامعات الهند التي تعلم ضرب الرمل) وفي عالم قراءة (الكف) كان هناك إعلان في الصفحة الأولى في جريدة (العرب) التي تصدر في لندن لشيخ وقور يدعى (الألوسي) يقصده العرب والعجم لمعرفة طوالعهم من واقع الكف. ولا يتهمه أحد بالدجل أو الشعوذة أو .. الكفر.وحسب علمي لا يزال يمارس عمله ويظهر في صفحة جريدة (العرب).

حكى لي الوالد الكبير الدكتور عبد الحميد صالح أنه في أثناء وجوده في لندن عندما حكمت عليه محكمة (الثورة) الشعبية برئاسة عبد الله الحسن الخضر بالإعدام والمصادرة لاشتراكه في تدبير (الغزو الليبي عام ١٩٧٦) أن طلب منه السيد الصادق المهدي الذهاب إلى الألوسي لمعرفة طالعه سأله: هل ذهبت إليه أنت؟. أجابه بالنفي ولكنه على استعداد لتحديد

موعد معه والذهاب معه حتى باب (العيادة) وعند الباب استقبلهما نفس الشخص ذو الصورة الظاهرة في الإعلان ودعاهما للدخول غير أن السيد الصادق المهدي اختفى ودخل الدكتور وحده. وبقراءة كفه أخبره بالآتي: أنه شخص مهم في بلده ورغم أنه حاليا (طريد) إلاّ أنه سوف يعود قريباً في ظرف شهور. ويجد أن أملاكهَ قد زادت. كما أنه سوف يتقلد منصباً (أكبر) من منصبه السابق. قاطعه الدكتور بأنه كان وزيراً (للصحة) ولا يتوقع أن يعود لمنصب رئيس وزراء. رد عليه الألوسي بأن هذا هو ما يبدو على كفه وهو لا يجزم أن يكون المنصب هو رئيس الوزراء ولكنه (أكبر) من المنصب الذي كان يشغله.

ثم التفت الألوسي وسأله عن (زميله) الذي كان معه بالباب. وقبل أن يرد الدكتور فاجأه الألوسي بقوله (مسكين. يجري وراء الحكم. ولكن ليس له نصيب في الحكم. يمسكه بيده ثم يفلت منه). أخبرني الدكتور عبد الحميد قائلاً أخبرت أخوك (أخوك: يعني السيد الصادق) بكل ما قاله الألوسي إلاّ الجانب الأخير- وليته فعل. وقد حكى أنه: بعد فترة وجيزة من نبوءة الألوسي جاء وسطاء (المصالحة الوطنية) وعاد السيد الصادق وصحبه ومن بينهم بالطبع الدكتور عبد الحميد. وبعد أسبوع السلام والكرامة ذهب إلى مستشفاه (مستشفى دار الشفاء) وحياه العاملون والمرضى ووقف أمام باب مكتبه وتأمّل الجالس على كرسيه فإذا هي (ليلى) ابنته. كان يتوقع أحد رجال (الأمن) أو طبيباً من مؤيدي ثورة مايو. أخبرته ليلى أنه بعد صدور القرار بإعدامه ومصادرة ثروته جاء ثلاثة من رجال الأمن وسألوا عن المدير المسئول فقيل لهم إنها ليلى عبد الحميد فدخلوا عليها المكتب وطلبوا منها أن تستدعي رئيس الحسابات وأصدروا الأوامر بأن تفتح صفحة جديدة في حسابات المستشفى ويتم جرد وقفل الحسابات السابقة للقرار وتدوّن كل المصروفات والإيرادات بعد المصادرة

وتقفل كل آخر شهر لحين تعليمات أخرى. سألها الدكتور وكيف حال المستشفى والموقف المالي فردت عليه أفضل بكثير من زمنك لأنك كنت تعفي فلاناً من ثمن الدواء وتخفض لعلان من تكاليف السرير وآخر من أتعاب العملية ولكن في زمن (المصادرة) كنا نعتذر لهم بأن المستشفى الآن من أملاك الحكومة ولا يمكننا ذلك إلاّ بأمر رسمي مكتوب: فزادت الإيرادات والأرباح. طيب و(الخزنة) مفتاحها عندك ولم يلتفت إليها فريق الأمن. المفتاح في أقصى أركان الدرج الأخير من المكتب. أدخلت ليلى يدها وأخرجت المفتاح وعند فتح الخزنة تفاجأ الإثنان بأن محتوياتها من أرطال- وليس أوقيات- الذهب كما هي. تحققت النبوءة الأولى : زادت أملاكه.

ثم أضاف: أنه ذهب إلى مسجد القوات المسلحة لصلاة الجمعة وعلى أمل السلام على الرئيس نميري إذا وجد فرصة. لمحه الرئيس بعد الصلاة وأسرّ إليه أنه تسلم قائمة من السيد الصادق تشمل مرشحي حزب الأمة للمشاركة وقد وقع اختياره عليه ليكون(رقيب مجلس الشعب) يعني إيه رقيب مجلس الشعب. هو ما كنتم تسمونه (زعيم المعارضة) ولكن عندنا مركزه أقوى إذ إنه الشخص الوحيد بموجب الدستور الذي يحرك اقتراحاً في مجلس الشعب بعزل الرئيس وتقديمه للمحاكمة. والمنصب يلي في البروتوكول نائبي رئيس المجلس ومرتبته أعلى من الوزير. شكرت الرئيس وتذكرت الألوسي. أعلى من الوزير؟ يا سبحان الله وقلت في سري (ربنا يحفظ أخوك- يعني الصادق المهدي) وصدقت النبوءة الثانية أعلى من وزير.

ولعل دعاء الدكتور عبد الحميد قد وجد الاستجابة فما لبث السيد الصادق وبعد عشر سنوات أن أمسك الحكم بيديه ثم جعله طوال الأربع سنوات خطباً. ولجاناً ومذكرات

وابتكار تعبيرات ومناورات وبعدها (فلت) من بين يديه كما تنبأ (الألوسي) في يونيو ١٩٨٩ بانقلاب ثم بدلاً عن مقاومة الانقلاب ليضع سابقة تخلّد اسمه اختفى بحثاً عن أمان. كانت لدى وزارة الداخلية في زمنه أسلحة ومركبات ورجالاً مدربين كانوا كفيلين بوقف التحرك العسكري من بضعة (جنود) بعضهم فنانين من سلاح الموسيقى وبعضهم مساعدين طبيين من السلاح الطبي وتقودهم أقلية من ضباط وأغلبية من (مثقفين) ارتدوا الزي العسكري. ثم بدأ بعد اعتقاله وخروجه من المعتقل سالماً رحلة الجري وراء الحكم (تهتدون) (ونسأل أن يمسكه بين يديه ولكن لا (يفلت) منه للمرة الثالثة).

وحتى في المدينة المنورة:

هناك غيبيات أتركها عندما أتعرض لما قابلني في زيارتها أنا والفكي مصطفى نائب محافظ بنك السودان آنذاك. رواها الذي يتولى مرافقة الزوار الرسميين نيابة عن حكومة المملكة.

الفصل السابع

- بداية التمرد في الجنوب
- الانهيارات الدستورية
- مستقبل السودان بعد الاستقلال

اتفاقية السودان ودور الحاكم العام- والحاكم العام في الاستقلال

اختيار الحاكم العام (سير روبرت هاو) والحاكم العام (سير نوكس هيلم)

التمرد الأول

الفرقة الإستوائية في توريت

الانهيار الدستوري (الأمني) الثاني

بعد أول مارس

الانهيار الدستوري (الدستوري) الثالث

بعد أول مارس

وبعد تمرد الجنوب

الانهيار الدستوري الرابع (التحلل من إتفاقية السودان)

بعد أول مارس

وبعد تمرد الجنوب

وبعد سقوط الوزارة في مجلس النواب

عدم التقيد ببند الاستفتاء الوارد في اتفاقية السودان لعام ١٩٥٣م

بين الاستقلال والاتحاد مع مصر

ثم دخول الخدمة العامة

عين على الكتاب وعين على السودان

أتحدث في هذه الصفحات بصفتي شاهداً حاضر الذهن ولا أقول أو أدعي بأني مؤرخ. وسيكون – كالعادة- سرداً للأحداث كما عشتها وأترك للقارئ الاستنتاج والحكم: خاصة وقد قرأت لبعض الإخوة الصحفيين مقالات ليست بالدقة- ولا أقول بالموضوعية.

ونحن في مصر نترقب وعود و(بشارة) الرئيس الأزهري لنواب البرلمان بأنه سوف يعلن جلاء آخر جندي بريطاني من السودان يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٥م إذ بنا نفاجأ بأن تمرداً قد حدث يوم بشارة الأزهري-١٦ أغسطس ١٩٥٥م- في جنوب السودان من الفرقة الإستوائية في توريت وأنه ربما ينتشر فيشمل بقية أجزاء الجنوب وإذا حدث فإن الحاكم العام سوف يستخدم سلطاته التقديرية فيعلن انهياراً أمنياً ودستورياً فيوقف تنفيذ الاتفاقية وكل ما بنيناه من آمال. ولكن الحاكم العام- بناء على توصية رئيس الوزراء- أعلن حالة الطوارئ في الجنوب فقط وليس في كل السودان وقامت القيادة الوليدة للجيش السوداني- اللواء أحمد محمد باشا القائد العام- اللواء إبراهيم عبود باشا نائبه ومعاونوهم طلعت ورضا فريد- أحمد عبد الوهاب- ومحمد عثمان وحسن بشير نصر وزملاؤهم من احتواء الموقف بخسائر قليلة حسب تقديرات العسكريين ولكن بخسائر أكبر من كل تقدير من الكوادر من الدرجة الأولى في الإدارة والشرطة والحكم المحلي التي قذف بها الحكم الوطني للجنوب لتسريع الارتقاء به نسبة لحالة التخلف التي كان يعيشها مقارنة بشمال البلاد. وكان هذا الاختبار الرابع لمعالي الحاكم العام سير روبرت هاو في عدم استغلال حوادث الانهيارات التي أوردتها الاتفاقية وألقت بمسئوليتها عليه. الحادث الأول كان (أول مارس ١٩٥٤م) كما ذكرت والحادث

الثاني هو تصويت مجلس النواب ضد ميزانية الحكومة في يوليو ١٩٥٤م وكان سقوط الميزانية يعني بلغة الديمقراطية سقوط الحكومة. ولم يتردد الزعيم الديمقراطي مؤلف كتاب (الطريق إلى البرلمان) حتى قبل توليه السلطة بسنوات: لم يتردد في تقديم استقالته للحاكم العام، وكان من الممكن أن يتحين معالي الحاكم فرصة لإعلان انهيار اقتصادي أو دستوري ويكلف شخصاً آخر بتأليف الحكومة ولا يجد الشخص الأغلبية ثم يعلق تنفيذ الاتفاقية. وبمثل ما قام به إسماعيل الأزهري من تصرف ديمقراطي من الدرجة الأولى قابله سير روبرت هاو بمثله إذ قبل الاستقالة ثم طلب منه إعادة طلب الثقة من البرلمان (ربما لعلمه أن النواب الثلاثة الذين صوتوا ضد حكومتهم وأسقطوها لم يكونوا واعين لتبعة الأمر رغم أنهم من خيار المثقفين: محمد جبارة العوض- محمد عبد الجواد- أحمد جلي) وبصحوة النواب من غفلتهم عادت الحكومة وعاد الأزهري. أما الاختبار الرابع والأهم فقد كان لخليفة سير روبرت هاو في المنصب الذي إستقال منه بسبب مرض زوجته- أو كما قال- أو كما برز فيما بعد بسبب اختلافه مع معاونيه في الإدارة البريطانية من البريطانيين بتراخيه كما عبروا وأيدتهم وزارة الخارجية البريطانية التي- يتبعونها- في تنفيذ بنود الاتفاقية. الحاكم العام سير نوكس هيلم الذي خلف سير روبرت هاو كان على علم بمجريات الأمور وفيما يبدو كان مؤيداً لخطوات وأسلوب سلفه. أظهرت الوثائق التي مضت عليها فترة ثلاثين عاماً أن الصاغ صلاح سالم كان على علم بالتمرد الذي حدث في الجنوب بل إن بعض الضباط وصف الضباط الجنوبيين الذين اشتركوا في التمرد اعترفوا لقاضي التحقيق- القاضي قطران البريطاني الجنسية الفلسطيني الأصل- بأن الضباط المصريين من أعوان صلاح سالم الصاغ أبو نار وزملائه أجزلوا لهم العطاء ثم الأماني في الترقي وفي حكم الجنوب، إذ إن الجيش

المصري سيعود للسودان وسوف يحميهم من حكم الشماليين. كان القاضي الذي حاكم المتمردين هو اللواء إبراهيم عبود باشا وأرسل الحكم إلى معالي السير نوكس هيلم الحاكم العام بصفته القائد الأعلى في حالة الطوارئ، وبعد أن قام بالتصديق على الأحكام أرسل في طلب الزعيم الأزهري رئيس الوزراء- في نفس الوقت وزير الدفاع- ووزير الداخلية وأبلغه بالتدخل المصري الموثّق قضائياً وإنه ينصحه بأن تحفظ كل أوراق التحقيقات والقضايا والأحكام في الخزينة السرية لوزارة الداخلية وأن الرأي العام السوداني إذا علم بذلك سوف تسوء العلاقات بين مصر والسودان وسوف تكون الحكومة السودانية تحت وابل من المؤامرات والدعاية المصرية التي قد تشغل الحكومة عن مهامها في هذا الظرف الدقيق. لقد علمنا فيما بعد أن الرئيس الأزهري كرجل ديمقراطية أصيل أطلع الأستاذ محمد أحمد محجوب زعيم المعارضة على السر كله، وكتمه الرجلان وكتمه رئيس الحكومة والبلاد فيما بعد إبراهيم عبود. وهكذا كان الرجال الذين قادوا ولا أقول حكموا السودان. لم يعرف الأمر إلاّ في عام ١٩٧٩م في كتاب أصدره بروفيسور بيتر وودوارد إذ حصل على الأسرار من خزينة وزارة الداخلية عن طريق تلميذه وزميله في البحث جعفر محمد علي بخيت الإداري بوزارة الداخلية والذي أطلع عليها بدوره أستاذه وعميد الطلاب إبراهيم أحمد القطب الاستقلالي ووزير المالية والاقتصاد فيما بعد. وقد علم أن إبراهيم أحمد ذهب إلى الرئيس الأزهري وزير الداخلية وأخبره أن(السر) قد وصله ونصحه بإحكام الرقابة على الخزينة، وعندما حاول جعفر بخيت الحصول على وثائق أخرى وجد أن مفتاح السر قد تم تغييره. والمهم أيضاً في هذا الصدد أن كلاً من إبراهيم أحمد وجعفر بخيت قد ماتا بهذا السر أسوةً بزعمائهم الأزهري ومحجوب وعبود. وقد كشف كتاب بيتر وود وورد أن الصاغ صلاح سالم ذهب إلى المندوب

السامي البريطاني في مصر (السفير) وأخبره بأن تمرداً وقع في السودان وأنه يرى أن تقوم السفارة بإبلاغ وزارة الخارجية البريطانية لتنقل إلى الحاكم العام ضرورة إعلان حالة الطوارئ في كل أنحاء السودان وإعلان إيقاف العمل بالاتفاقية وإعادة الجنود البريطانيين ومعهم جنود مصريون وحل البرلمان ومجلس الوزراء.كما تقول الوثائق فإن السفير البريطاني أفاد بأنه لم يصله علم رسمي من الحاكم العام بالمعلومات التي أوردها الصاغ، وإذا وصله علم رسمي فإنه يحيله لوزارة الخارجية وينصح بأن يترك الأمر لمعالي الحاكم العام ليتصرف حسب الاتفاقية وتقديره للموقف. أعلن الحاكم العام كما سبق حالة الطوارئ في المديريات الجنوبية الثلاث ورأى أن يحتوي التمرد والحادث في نطاقه الجغرافي خاصة أن الجيش السوداني استعاد الأماكن التي احتلها التمرد في الإستوائية وبعض أجزاء من بحر الغزال كما أن التمرد لم يصل إلى أعالي النيل.

يسجل التاريخ لرجلين من رجال الإدارة في الجنوب وتحت إمرة أحدهما ضابط من الجيش- بل في السودان- أنهما أنقذا الأرواح والممتلكات في كل من مديرية بحر الغزال وعاصمتها واو ومديرية أعالي النيل وعاصمتها ملكال. داؤود عبد اللطيف كان مديراً لبحر الغزال وقد سمع بحوادث التمرد والأضرار التي ألحقها الجنود بحقد على كل شيء جمع كل رجال الحكم في واو بمن فيهم قيادة وجنود الجيش وأصدر أمره لهم بصفته الحاكم العسكري للمنطقة بعد أن أعلن الحاكم العام إعلان حالة الطوارئ في كل الجنوب بأن يغادروا مدينة واو على متن باخرة نيلية كانت ترسو في مينائها، وقد أطلق على الأمر: الأخلاء السلمي للمدينة The Peaceful Evacuation وقد كان. وعندما دخل المتمردون المدينة لم يجدوا فيها (الحكومة) فغادروها بعد أن أوصوا عليها شخصين لم يلحقا بالركب أحدهما باشكاتب

المديرية وهو قبطي أمه جنوبية ويدعى (اوتو أنطون- أخ شارلي أنطون أول مدير سوداني لمصلحة المساحة في السودنة) والآخر شمالي من مواطني النهود العركيين: يلقبه أصدقاؤه بلقب (ود النل- ود الدينكا) شديد سمار اللون وطويل فارع لا تصدقه إذا قال لك غير (دينكاوي) وهكذا اعتبره المتمردون عندما رأوه ورحبوا به رغم أنه كان يرتدي الزي الرسمي كنائب مأمور بالمديرية إنه عبدالله عمر عبد الرحمن الإداري المتميز ومدير مديرية كردفان فيما بعد، وهو الأخ الأصغر لأحمد عمر الإعلامي الأشهر بالسفارة الأمريكية بالخرطوم. انفعل أوتو أنطون وعبدالله عمر بأمر (نسيانهم) في واو وأرسلا برقيتين للخرطوم واحدة تحمل مدير المديرية أي مكروه يصيبهم والثانية ساخرة إلى قائد حامية الجيش محمد أحمد عروة (يا الحارس مالنا ودمنا نسيتنا ما ودعتنا) كان هذا في أغسطس عام ١٩٥٥م. وفي نوفمبر ١٩٥٩م كان اللواء عروة عضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة- ورأس الدولة- وجاءنا وزيراً لوزارة التجارة والصناعة والتموين- كما كانت تسمى- وعند مروره على الأقسام للتعارف سمعنا ضحكات مجلجلة وأسرعنا نحوها لنجد الوزير في عناق وضحك مع باشكاتب الوزارة أوتو أنطون مرسل البرقية. وعندما انتقل اللواء عروة بعد وزارة التجارة والصناعة والتموين إلى وزارة الداخلية وجد أمامه- نائب المأمور ثنائي البرقية – عبدالله عمر عبد الرحمن، وإنصافاً للواء عروة فإنه كان تحت إمرة مدير المديرية وهو في المديرية، وقام بتنفيذ أوامره بصفته القائد الإداري والحاكم العسكري بعد إعلان حالة الطوارئ في الجنوب كله. وقبل وصول مدير المديرية داؤود عبداللطيف إلى الخرطوم هاجمه البعض وأشاد بتصرفه آخرون، وبعد جلوسه إلى رؤسائه وشرح موقفه لهم وافقوه على كل ما قام به ولكن حسب القانون عقد له مجلس تأديب من شخصين وكيل الداخلية مكاوي أكرت

ومدير المعارف عبد الحليم علي طه وتمت تبرئته وأشادوا بموقفه. وبعدها ألحق برئاسة الوزارة في القسم السياسي نائباً للوكيل ثم مديراً لمديرية كسلا فيما بعد- فمسئولاً عن تهجير أهالي وادي حلفا بعد إبرام اتفاقية قيام السد العالي مع مصر ثم محالاً للمعاش بالمادة ٣٢(ب) من قانون الخدمة المدنية (عدم التعاون) لاتهامه بتحريض مواطني وادي حلفا- وهم عشيرته- بمقاومة التهجير إلى منطقة خشم القربة.

ومع ذلك فقد عقد مجلس تحقيق لداؤود عبد اللطيف من وكيل الداخلية مكاوي سليمان أكرت ووكيل المعارف (التربية والتعليم) عبد الحليم علي طه وأصدر قراره ليس فقط بتبرئته والإشادة بموقفه وموقف القائد العسكري محمد أحمد عروة الذي اتسم بالانضباط لقرار الحاكم العسكري وتنوير جنوده بسلامة القرار مما أوجد ترابطاً تاماً في القيادة.

الإداري الآخر الذي أنقذ مديرية أعالي النيل ومدينة ملكال من دخول المتمردين إليها هو مدير المديرية محمد عثمان يس- خريج الاقتصاد من جامعة لندن والذي أصبح فيما بعد أول وكيل لوزارة الخارجية في السودنة وأرسى قواعد الدبلوماسية السودانية واستمر في الخارجية حتى ١٩٦٤م حيث اقتلعته رياح (التطهير) في ثورة أكتوبر، جمعتني به ظروف كان فيها رئيس الجانب السوداني في مباحثات بين السودان والاتحاد السوفيتي في عام ١٩٦١م وكنت أمثل البنك الزراعي السوداني في مشروع الصوامع القائمة حالياً في القضارف وبورتسودان وقد تعلمت منه الكثير في الوقت الذي يسبق بدء اكتمال حضور كبار الأعضاء سناً ووظيفة فقد كنت أواظب على الحضور في الميعاد بالضبط: الساعة التاسعة صباحاً. سألته عن حادثة التمرد فحكى لي أنه بمجرد سماع الخبر لم يكن يخشى من حضور متمردين من الفرقة الإستوائية بقدر ما كان يخشى تمرد كل أو جزء من الفرقة التي كانت بملكال. وكانت

ترسو أكثر من باخرة في ملكال فطلب من (الريس) في إحدى البواخر أن يستعد للإبحار بأقصى سرعة مستفيداً من تيار النهر نحو الشمال عندما يعطيه الإشارة، ثم طلب من قائد الحامية أن يقوموا بتدريب عادي في الجري لمسافة بزي الرياضة (رداء وفنلة فقط) ويدخلوا الباخرة ثم يخرجوا منها ويعيدوا المشوار، وعندما دخلوا الباخرة وتسلق بعضهم إلى سقفها أعطى الإشارة إلى (الريس) الذي سحب (السقالات) وأبحر يساعده التيار بأقصى سرعة إلى عرض النهر حيث يخشى الجميع التماسيح وفرس البحر. والذين غامروا وكانوا قلة لا تذكر وقفزوا إلى النهر تم إلقاء القبض عليهم بواسطة قوات الشرطة والسجون أما أسلحة الجيش فقد نقلت إلى (المديرية). تم الحدث صباح يوم (السوق) وتناقله الجميع ولا شك أنه عم كل المديرية لمن يعرفون كيف تنتقل الأخبار في أقاليم السودان.وعندما كان السوق (عامر) والناس شماليون وجنوبيون يتبادلون المنافع كانت قوة من الشرطة والسجون قد اعتلت سطح مبنى المديرية بتعليمات من محمد عثمان يس ثم أمرها بأن تطلق مجموعات من الذخيرة الحية فوق منطقة السوق فحدث ذعر وهرج ومرج خاصة عندما وقعت كمية من (ظروف الذخيرة الحية الفارغة) في فناء السوق وأصبح المكان خالياً في لحظات أوى فيها التجار والمتعاملون إلى داخل الحوانيت أو هرع فيها المواطنون إلى خارج المدينة. المهم أن الخبر قد انتشر- كما جاءني الحديث والحديث لمحمد عثمان يس- أن المتمردين قد علموا بأنهم إذا فكروا في الوصول إلى ملكال- وهي بعيدة- فلن يجدوا مسانداً إذ أبحر إلى الشمال كما ان القوة الموجودة استولت على أسلحته وتتعامل بالذخيرة الحية.وبما أن التمرد لم تكن له جذور أو خلايا تذكر في أعالي النيل وحاصر الجيش الذي وصل من الخرطوم غالبية عناصره إلاّ أنه

كان لابد- كما قال محمد عثمان يس- أن أتصرف بطريقة جعلت أعالي النيل خالية وبعيدة من التمرد.

نعود لمعالي الحاكم العام الجديد سير نوكس هيلم والذي وصل السودان والبلاد أصبحت تتحدث همساً وعلناً عن (الاستقلال) ليس فقط بتصرفات الثورة المصرية في البلاد التي اتسمت بالتعالي على رجالات الحركة الوطنية الاتحاديين وتحديهم بدرجة أدخلتهم في مواجهات مستترة وعلانية- ليس بسبب الموقف في مؤتمر باندونج- أو اتهام الزعيم الأزهري عند تلبيته لدعوة لزيارة بريطانيا بأنه دخل في صفقة نالت وطنيته- وإنما أيضاً بتنامي شعور عقلاني شاع بين السودانيين بأن السودان إذا أصبح مستقلاً يمكنه أن يتحد مع مصر في الوقت الذي يريد وبالصيغة التي يتفق عليها أما إذا دخل في استفتاء أفضى إلى (وحدة) مع مصر بتصرفات حكومتها وضباطها الذين يجوبون البلاد فإن الرجوع عن الوحدة عند ذلك سيكون أصعب من الحصول على الاستقلال اليوم.

قام الرئيس الأزهري بعدة زيارات لبعض مديريات شمال السودان ووجد من بعض زعمائها العشائريين والسياسيين نصحاً بأن يفكر في الاستقلال كما أن تصرفات الحاكم العام كانت توحي بذلك في كل مناسبة تجمعهم كما ذكر مستشاره السير (لوس) فيما بعد. وأذكر أن هناك تجمعاً قبلياً في منطقة (فوجا) بمركز غرب كردفان- النهود، كان مفتش المركز قد أصبح بيتر هوق قبيل السودنة- نائب مدير المديرية مكاوي سليمان أكرت والمدير المستر هوكسوبرت الشهير، وكان من المخطط قبل سنتين أن يحضره كالعادة معالي الحاكم العام ويستعرض فيه رجالات القبائل على ظهور الهجن والخيول ويتقدمهم (النحاس) رمز عز القبيلة- كما يتم في (الزفة) كما كان يطلق عليها تدارس المشاكل بين القبائل والمديريات

المجاورة إذا وجدت. ولما كانت المنطقة منطقة (أنصار- وحزب أمة) وقد فاز في دوائرها حزب الأمة المناوئ للوحدة فقد رأى الحاكم العام رغم هذه المحاذير أن يحضر (الزفة) رأس البلد: رئيس الوزراء إسماعيل الأزهري وليس الحاكم العام المنتهية ولايته عن قريب، ولقد رأى مكاوي أكرت ومستر بيتر هوق المفتش الأول ومستر هنتر مفتش حمر والناظر منعم تحدياً كبيراً لهم جميعاً في الحفاظ ليس فقط على سلامة الزعيم الاتحادي بل في إظهار (الزفة) في كامل هيبتها وهيبة الدولة التي ظلت تصاحبها دوماً بحضور الحاكم العام. وعندما وقف الزعيم الأزهري لاستقبال واستعراض القبائل فوجئ الجميع بأحد المشاركين يهتف عاش السودان حراً مستقلاً، وبدلاً من أن يقوم أحد عناصر المباحث (الأمن) باعتقاله ثم حدوث ما لا تحمد عقباه من تشويه جلال المناسبة قام مسئول الأمن الأول بالإسراع نحو الشخص (وهزّ) فيه وهتف المستر بيتر هوق عاش السودان حراً مستقلاً (وهزّ) في الموكب وعمّ الهتاف الجميع بما فيهم الزعيم الأزهري. ويقال أن (زفة فوجا) في عفوية تصرف موكبها وحسن تصرف مفتشها والسلم والنظام الذي سادها وما تبعها من جلسات عمل في جو إداري مسئول يقال أنها أعطت إشارة خضراء أقوى للزعيم الأزهري للسير في اتجاه الاستقلال خاصة أن (الزفة) رغم تنظيمها بواسطة القبيلة الاستقلالية (حمر) ضمت قبائل اتحادية مثل الكبابيش والكواهلة والجوامعة والمجانين وغيرهم من قبائل شمال كردفان التي عرفت عبر التاريخ الحديث بمعاداتها للمهدية وجنوحها نحو مصر.

سألت المستر هوق عام ١٩٨٠م عن تصرفه وهتافه وعما إذا كان قد تم بتنسيق مع الشيخ منعم منصور الذي زاره وهو يستشفي بلندن نفى ذلك وقال إنه كان مسئولاً عن أمن الرئيس أزهري وعن نجاح (الزفة) فكان لابد من احتواء التصرف العفوي بتصرف عفوي

مثله بدلاً من معارضته وقد فوجئ بالتجاوب الذي وجده الهتاف والفرحة التي عمت الجميع. وقد عرف مستر بيتر هوق بسرعة البديهة والتصرف في اللحظات الحرجة. ففي أول (مظاهرة) في النهود رتبها بعض طلبة الأزهر في إجازتهم من مصر فوجئ بالحدث مفتش حمر المستر هنتر ومفتش المسيرية المستر تيبس وكذلك المأمور يوسف مصطفى تكونة وضباط البوليس بل كل النهود رسميين ومواطنين، وكان لابد من إخطار المفتش الأول الذي لم يتردد في الحضور- دون حراسة- سائقاً العربة (الكومر) ثم أوقفها أمام المظاهرة ووقف عليها وصفق بيديه قائلاً: يا ناس النهود أنا المفتش بتاعكم اسمعوا اسمعوا فسكت الجميع بمن فيهم قادة المظاهرة وقد كان على رأسهم طالب من أصل نيجيري ولكنه سوداني بكل المعاني، غير أن مستر هوق ببديهته استغل المناسبة وقال إنه سينقل رأي ناس النهود لسعادة السكرتير الإداري ومدير المديرية. وإنه يؤكد لهم أن الإنجليز سوف يجلون عن السودان ولكنهم يريدون أن يذكروكم بأنهم بسطوا الأمن والتعليم والصحة- وركز على موضوع الصحة إذ كان مرض(الجدري الكاذب) قد انتشر وأشيع أنه قد جاء به مواطنو نيجيريا الذين يزورون السودان في طريقهم إلى الحج، فقال المستر هوق والله نحنا ما عايزين بعد ما نطلع نخليكم للفلاته وأنه يأسف أن يقودكم وأنتم سودانيين أصليين واحد فلاتي. أنتو ما فيكم سوداني كيف يقودكم واحد أهلوا جابوا ليكم الجدري والملاريا بكره ما عارف يجيبوا ليكم شنو.. معاكم سلامة أنا ماشي أبلغ كلامكم ومطالبكم لسعادة المدير بالتلغراف. وقبل أن ينصرف المستر هوق التفت ناس النهود لبعضهم البعض وتفرقوا. وبعدها لم تقم مظاهرة تستحق الاسم إلا بعد فترة طويلة استعد فيها السودانيون لقيادتها. اسم الفلاته كان يطلق على كل القادمين من غرب أفريقيا للحج ولا تقصد به القبيلة السودانية المعروفة بهذا الاسم.

وكانت مظاهرة بحق وحقيقة بقيادة العم راشد والد مصطفى كمال راشد الشهير باسم كيشو (وأخيه حسن وأختهم فاطمة رائدة التعليم النسائي لأهل النهود). وتتابعت المظاهرات بعد ذلك بقيادة العم راشد وإدريس الصوييم ومحمد إبراهيم دبوجة ونقابة الممرضين- وصل النهود لأول مرة- محامي ليدافع عن المتهمين ويناقش ويهزئ برجال البوليس أمام القاضي ويخطب في المحكمة ويلبس بدلة كاملة يعلوها ثوب أسود . إنه صاحب فكرة مؤتمر الخريجين في واد مدني عام ١٩٣٨م: أحمد محمد خير الشهير باسم أحمد خير المحامي. تمت براءة المشاركين لاضطراب أقوال ممثل الاتهام الذي فوجئ بأسئلة المحامي.

وأثناء زيارة المستر هوق لوالدي الشيخ منعم وهو يستشفي في لندن سأله الشيخ منعم عن واقعة تداولتها قيادة مديرية كردفان بأن ترقية مستر هوق قد أجلت سنة عقاباً له. ولذا بقي في النهود سنة رابعة. أكد مستر هوق الخبر وذكر بأن السبب هو تحاشي محاكمة متهم بقتل ١٤ شخصاً دفنهم في جحر (أبو نضلاف) وأبو نضلاف هذا حيوان صحراوي عرف بالعيش داخل جحر كبير يسع فيها يقال بعيرين من الإبل. قال المستر هوق إنه تحاشى محاكمة المتهم لأنه كان يخشى الله إذا أخطأ في الحكم بالإعدام وكان الرجل بريئاً كما أصر حتى آخر لحظة. ثم أردف يا شيخ منعم راجل يقتل ١٤ بني آدم أنا أمشي من الله وين لو أخطأت في الحكم عليه. تعجب شيخ منعم ولكنه رد على المفتش: أتاريك إنت بتخاف من الله قدر دا. والله لو ما كنت نصراني تسبقنا للجنة، ولم يسكت مستر هوق بل رد: يعني تفتكر نحن النصارى ما حنذخل الجنة، أجابه دون تردد: بعضكم. وتغير موضوع الحديث.

ونحن بدورنا نغير موضوع الحديث ونعود إلى حياتنا في مدينة وجامعة الإسكندرية كانت المدينة- وربما لا تزال- مقسومة إلى جزئين: الرمل وهو المنطقة التي كان يسكنها الأجانب والقليل من أثرياء البلد، وكان الأجانب يمثلون كل بلاد أوروبا تقريباً من إنجليز وفرنسيين وإيطاليين وأتراك وألبان وبلجيك وكان حتى إلغاء ما يعرف بالامتيازات الأجنبية التي صاحبت قيام صندوق الدين بسبب إفلاس مصر- كان لكل دولة قنصل، وكل قنصل يمكن أن يحمي أو يحتمي به أي مصري في دفع إتاوة معتبرة. وكان يفعل ذلك كبار المجرمين من تجار ومهربين وأحياناً قتلة كما يقال، ويسمى الواحد منهم (حماية) وتعود ملكية غالبية العقارات في منطقة الرمل إلى الأجانب من هذه الدول والقليل منها إلى أغنياء المصريين والأقل إلى من يطلق عليهم (حماية) أما ما عدا الرمل فأحياء يسكنها المصريون العاديون ومبانيها أقل ارتفاعاً وشوارعها أقل نظافة. كليات جامعة الإسكندرية تقع كلها في منطقة الرمل حيث ساحل البحر الأبيض المتوسط والبلاجات والشاليهات، ويسكن الطلبة السودانيون مع أسر من بقايا الأجانب- أغلب الأسر نساء فقدن أزواجهن في حروب أوروبا أو بالأجل المحتوم وتتكون شقة كل أسرة وفقاً لحجم العمارة من ٤ أو ٥ غرف تسكن الأسرة في غرفتين وتؤجر الغرف الأخرى للطلبة مفروشة وعلى أساس: السرير زائداً الإفطار الذي يتكون في العادة من شاي بالحليب مع طبق فول وجبنة، ويتولى الطالب أمر غدائه وعشائه. وكان الإيجار الشهري لا يتعدى ٣ أو ٤ جنيهات على الأكثر وعندما حضرنا- صالح محمد عبدالله- أحمد عبد الحليم - عبد المطلب إبراهيم وشخصي من القاهرة حيث السكن في شقق غير مفروشة ويتولى الطالب خدمة نفسه وجدنا أن نظام السكن مع الأسر لا يناسبنا، وبالسؤال عرفنا أن قلة الطلبة المقتدرين تسكن في شقق مفروشة مثل عيسى مصطفى

سلامة- فاروق أبو عيسى- مأمون محمد عيسى- عباس المصري- أحمد محمد نور فاتجهنا لاستئجار شقة وتطاولنا فقمنا باستئجار(خدامة) أو شغاله كما أسموها فيما بعد لتطبخ وتغسل وتنظف الشقة وكل ذلك في حدود ست جنيهات في الشهر.ووجدنا في ذلك توفيراً كبيراً لنا إذ إن إعداد الأكل في المنزل للثلاث وجبات لا يكلف مبلغاً يذكر على مدار الشهر.كان غالبية الطلبة ممن لا يتناولون غداءً مدعوماً في مطعم الكلية- ٣ إلى ٥ قروش بما في ذلك فاكهة وشاياً- كانوا يأكلون في مطعم بمحطة ترام كامب شيراز يملكه خواجه يوناني يدعى (يني) والميزة التي تجذب الطلبة إلى مطعم خواجه يني بجانب أكله الشهي أنه يمكن فتح حساب للأكل حتى نهاية الشهر، فكان لكل طالب (نوتة) يدوّن فيها حسابه. ومن الوجبات الشهية التي عرف بها مطعم (يني) والتي كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة في السودان بقدر كاف أطباق:المكرونة بالفرن- البسلة الخضراء- البوفتيك وهو قطعة مستطيلة من لحم البقر المشوي الذي تحفه بضعة قطع من البطاطس المحمرة- إذ إن السودانيين- ربما حتى الآن لا يأكلون لحم البقر مشوياً، وكان خواجة يني حصيفاً إذ يتتبع نجاحات زبائنه الطلبة ومن يجتاز امتحان الفصل الأول من السنة النهائية يفاجأ بأن حسابه (مقفول) فقد دخل في تجارب من بعض الطلبة في السنوات النهائية إذ غادروا إلى السودان وعليهم استحقاقات الشهر الأخير. ولكن والحق يقال أن الغالبية كانت تأتي بعد سنة أو أكثر في زيارة للإسكندرية فتدفع المتأخرات مع (البقشيش) يسر له خواجه يني، والقلة التي لم تقم بواجبها كانت لم تحصل على عمل كما كان دأب بعض خريجي الجامعات المصرية الذين قابلتهم حرب منظمة لفترة ليست بالقصيرة بسبب أن معرفتهم قاصرة باللغة الإنجليزية التي كانت لغة المكاتب والتخاطب في الاجتماعات في ذلك الوقت.

وفاجأ حياة الطلبة أول وزير سوداني:

وفي أثناء دراستنا علمنا أن أول وزير للمالية في السودان السيد حماد توفيق سوف يزور الإسكندرية يجتمع في محاضرة عن السودان مستقبله الاقتصادي مع الطلبة السودانيين من كل الكليات وقد كان (حماد) في القمة حديثاً ومنطقاً ألهب الحضور- سودانيين ومصريين وطلبة وأساتذة- وفي وداعه طلب أن يتقدم إليه بعض الطلبة الذين كانوا في المسار العلمي- المصري- ويجيدون اللغة الإنجليزية لكي يلحقهم بالبحرية المصرية ليكونوا فيما بعد نواة للإسطول البحري السوداني أو سلاح البحرية السودانية. وبالفعل تقدم إليه طالبان هما البخيت حسن بشير من أبناء الحلفايا- وسيد حسن طنون ابن الداعية السوداني الشهير. فكانت تلك نظرة متقدمة ثاقبة من حماد توفيق، وحماد توفيق كان أول سوداني يترقى إلى درجة مفتش حسابات في حكومة السودان.وقد تم تحذيره أكثر من مرة في عدم المشاركة في العمل السياسي خاصة وأنه من (كبار) الموظفين ولكنه كان لا يلتفت إلى التحذيرات وفي مرة ألقى عليه القبض في إحدى المظاهرات وقدم لمجلس (تأديب – محاسبة) مصلحي وطلب منه أن يعتذر وأن يتعهد كتابة بعدم الاشتراك في العمل السياسي، رفض كلا الطلبين، وتم فصله من الخدمة دون معاش رحمة به من أن يسجن. ولكن بعد ذلك اشترك ودخل السجن وعندما راجعه زملاؤه وأصدقاؤه بأن يعتذر ويتعهد عاتبهم وقال حديثه الذي سارت به ركبان الحركة الوطنية: أنا حماد أبو الجهاد، لئن أكون ضحية للإنجليز خير من أن أكون مطية للإنجليز. ترك حماد العاصمة المثلثة واتجه نحو قريته (العيكورة) التي تقع في الجزيرة بالقرب من واد مدني وأصبح مزارعاً يحمل حصاده من الخضروات ويتجه به إلى سوق مدينة واد مدني ثم يشارك رغم ذلك في الأعمال السياسية. وفي إحدى المناسبات المصرية عام ١٩٥٠م

أنعم عليه جلالة الملك فاروق الأول برتبة (البكوية) فأصبح لقبه حماد بك توفيق وفي نوفمبر ١٩٥١م. وبعد فترة وجيزة أقدم رئيس الوزراء المصري مصطفى النحاس باشا بإلغاء اتفاقية عام ١٩٣٦م التي تحكم العلاقة بين بريطانيا ومصر - والسودان- ثم اتجهت الحكومة المصرية إلى تشجيع متطوعين من المواطنين أطلق عليهم لقب (الفدائيين) لمهاجمة الجيش البريطاني المرابض في قناة السويس وتطورت الأحداث فقام حريق في القاهرة في يناير ١٩٥٢م جعل جلالة الملك يقيل حكومة النحاس باشا التي فازت بها يشبه الإجماع في انتخابات مصرية حرة. قرار الملك خلق استياء عاماً وسط القوى الوطنية في مصر والسودان- وفي الجيش المصري مما جعله يسرع بالثورة في ٢٣يوليو ١٩٥٢م. وقبل قرار الجيش كان القرار الشجاع والوطني للسيد حماد توفيق بأن أرسل برقية بلغة غير معهودة موجهة إلى صاحب الجلالة وأعاد إليه لقب البكوية رافضاً أن يحمله من شخص لا يحترم الديمقراطية ويقيل الحكومة الوطنية ذات الأغلبية والتي ألغت الاتفاقية مع بريطانيا. وفي أول حكومة وطنية بعد الاستقلال كان حماد أول وزير للمالية - ثم للمواصلات- ثم للتجارة والصناعة والتموين ثم أول مدير ورئيس مجلس إدارة للبنك الزراعي السوداني إلى أن تقاعد وظل فقيراً كاد أن يرحل من الدنيا في بيت مستأجر لو لا لمسة وفاء من أصدقاء ثلاثة : إبراهيم أحمد- إبراهيم عثمان إسحق- منصور محجوب وهذه قصة أخرى.

كان حماد توفيق منظماً للغاية وله توقيع باللغة الإنجليزية كان يتحدى من يستطيع تقليده، لدى حماد توفيق مكتبه بها كل أوراقه الشخصية ومذكراته عن الموضوعات الوطنية ومحاضرة شهيرة كانت معلماً فيما بعد للتعامل في مشروع الجزيرة بجانب الحركة التي قادها أحمد خير لعدم تجديد امتياز(الشركة الزراعية السودانية Sudan Plantations Syndicate).

بعد انتهائه في ١٩٥١م. كانت المحاضرة بعنوان(مشروع الجزيرة) ومكتوبة باليد وبخط جميل واضح. طلب حماد توفيق مني - حيث أصبحت سكرتيره كما سيجئ - بأن اتصل بأمين مكتبة جامعة الخرطوم لكي يرسل إليه - فنياً- بأجر لتنظيم وتبويب المكتبة، الفني كان أحمد عبد الحليم طالب في السنة النهائية بكلية التجارة بجامعة الإسكندرية والذي ظل يعمل في إجازته منذ سنوات في المكتبة، كنت أحياناً أساعد أحمد عبدالحليم في إحضار المستندات وقد وقع في يدي مستند كادت عينا حماد توفيق أن تدمع عندما رآه. كان المستند مذكرة موقعة من الخمسة الكبار في وزارة المالية عندما كان حماد أول وزير سوداني لها تؤكد له أنهم لا يمكنهم تولي المسئولية وتحمل تبعة إدارة مالية البلاد إذا تمت (سودنة) منصب الوكيل سيرجون كارمايكل، الموقعون هم: حمزة ميرغني- منصور محجوب- مأمون بحيري-عبد الهادي حمدتو- السيد الفيل- ووافقهم على ذلك إثنان دخلا حديثاً في المسئولية هما: عبدالله عبد الوهاب وعبد الرحيم ميرغني. تذكر حماد توفيق المناسبة إذ توقفت الشركات البريطانية خلال العامين الأولين من الفترة الإنتقالية - ١٩٥٤م و١٩٥٥م - من شراء القطن لأسباب فسرتها الحكومة السودانية بأنها سياسية إذ سعت الشركات لزيادة مشترياتها من نفس القطن- طويل التيلة- من مصر. هبطت الأرصدة السودانية الخارجية والتي تسلمها السودان من الحكم الإستعماري من (٦٠ مليون جنيه إسترليني إلى ٤٠ مليون جنيه إسترليني) وتكدس القطن في المخازن ببورت سودان. ثم بدأ الموقف في التحسن بعد اتفاقية تجارية مع الهند لشراء القطن مقابل احتكار إستيراد الشاي ومنتجات الجوت(جوالات وخيش) منها.ذهب سيرجون كارمايكل في إجازته السنوية إلى بريطانيا وقبل أن تنتهي الإجازة أفاده الوزير بأنه أعفى من منصب الوكيل وتم تعيينه (مستشاراً للوزير- وليس للوزارة- لما تبقى من عقد

عمله)، فوجئ كبار رجال المالية وكلهم حديثو عهد بالمسئولية الكبيرة بالقرار فجمعهم حماد توفيق وأفادهم أنه لا يستطيع إبقاء رأس الحية على رأس الدولة إذ إن اتفاقية السودان تحوي بنداً يخول للحاكم العام السلطة في إعلان انهيار دستوري إذا كان هناك إنهيار إقتصادي يمكنه عندئذ تعليق الاتفاقية والرجوع بالسودان إلى ما قبل يناير ١٩٥٦م ثم قرأ عليهم قراره بتعيينهم جميعاً في منصب (وكلاء متضامنين Joint Under Secretaries) يرأسهم ميرغني حمزة ويتولى منصور محجوب- يساعده عبد الرحيم ميرغني- الشئون المالية الداخلية والميزانية ثم مأمون بحيري الشئون المالية الخارجية يساعده عبدالله عبد الوهاب ثم السيد الفيل مديراً للضرائب ثم عبد الهادي حمدتو للإنشاء والتعمير وخطب فيهم- كعادته- بأن هذه بلادهم ولابد لهم أن يتولوا ويتحملوا المسئولية وإلا فإنهم ستحل عليهم لعنة الأجيال والتاريخ إذا فشلوا.أما مذكرتهم فسيحتفظ بها ولن ينشرها وقد كانوا في مستوى المسئولية إذ إن الأرصدة لم تصل إلى ٣٠ مليون جنيه إسترليني التي اعتبرها حداً أدنى يجعله لا يستغني عنهم جميعاً فحسب بل يلقى عليهم تعطيل الاستقلال- معذرة للتخريمة كما يقول أستاذنا عبد اللطيف البوني- مع انها طويلة شوية: وفي موضع آخر نرى كيف حملوا التكليف وأنقذوا البلاد بعد خطبة عصماء كما يقولون من حماد توفيق.

عشنا في الإسكندرية في رفاهية نسبية إلى أن جاء الفصل الأخير من السنة الدراسية فقد توقفت كل سبل الاستلاف فالجميع يعلمون كل شيء عن كل طالب: البواب والبقال والمكوجي والجزار وخواجه (يني) وكل الذين تراهم في الكاريكاتير بالصحف المصرية وهم يحاصرون الموظف المسكين أول الشهر. وقد كان لنا زميل بالكلية ظهر لنا في السنة الدراسية النهائية إذ كان يمتحن من منزلهم ولكنه اضطر ليختلط بإخوانه السودانيين في آخر عام

خاصة وأن هناك تباشير استقلال للوطن وسوف يعود إليه لأن أهله من (عبري) وله أقارب في وادي حلفا (القديمة) وفي الخرطوم٣، اسمه حسن فرح وله أخ يكبره اسمه إبراهيم يعمل (باشكاتب) في بلدية الإسكندرية ومعنا- من منازلهم في نفس الكلية ولكن في قسم المحاسبة كعادة معظم الطلبة بمصر الذين يعتبرون (المحاسبة) الجسر الذي يعبرون عليه إلى الوظيفة في الشركات وفي ديوان الضرائب والمصالح الحكومية الأخرى. كلا الأخوين نجحا وعادا للسودان وتم استيعابهما في وزارة التجارة والصناعة والتموين. حسن فرح قدم لنا نصيحة ونحن في السنة النهائية أن وضعنا يتطلب منع (سياسة افقار الجميع) وهي استقبال الزملاء السودانيين في شقتنا لتناول الوجبات إذ إن هؤلاء (الضيوف) الذين ينتقلون من شقة إلى أخرى يقضون على أكل اليوم واليوم التالي وفي الوقت الذي تعتبر سلوكك معهم (كرم وضيافة) هو في الحقيقة (افقار) لك فأنت طالب، وإذا كنت في السنة النهائية فلابد من أن تنتظر ظهور نتيجة الامتحان لتعرف أمر مستقبلك في حين يكونون فيه قد سافروا للسودان في الإجازة وتركوك تواجه الموقف. كانت - ولاتزال- إيجارات الشقق المفروشة في الإسكندرية تختلف في شهور الشتاء أيام دراسة الطلبة سبتمبر- أكتوبر- نوفمبر- ديسمبر- يناير- فبراير- مارس- أبريل- مايو-منتصف يونيو تختلف عن الفترة من منتصف يونيو حتى نهاية سبتمبر حيث تتضاعف الإيجارات إلى خمسة وستة أمثالها حسب موقع الشقة وحجمها. وعندما انتهيت من الامتحان النهائي أنقذني وجود طالب بالكلية البحرية لفترة ثلاثة أسابيع حتى أواخر يونيو. سكن معي البخيت حسن بشير وجمعنا ما لدينا من (مدخرات) فدفعنا الإيجار (مقدماً) حتى لا نفاجأ بإخلاء- واشترينا مؤونة الفترة مقدماً أيضاً: علب ساردين- علبة طحينة كبيرة-علبة عسل أسود كبيرة- وقليلاً من السكر

والشاي. كان الإفطار من الطحينة والعسل وأحياناً علبة ساردين ندخر نصفها للعشاء وكل يومين أو ثلاثة نأكل وجبة فول مع قطعة جبنة بيضاء كنوع من الرفاهية الطازجة. كنا قنوعين ولم نتبرم إلى أن ظهرت النتيجة بالنسبة لي كنت أول الدفعة ولكني لم أخطر بالخبر السار الذي علمته من مساعد المسجل السوداني الأصل والذي أخبرني أن الاسم الذي سيعلن هو (عبدالله طايل) لأنه مصري ولقد كنا مع عبدالله طايل في علاقة طيبة طوال فترة الدراسة فهو صعيدي وودود. وقد نجح في الحياة العامة المصرية إلى أن وصل إلى منصب رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب لبنك مصر- اكستيرير Misr Exterier واعتقد أنه بنك مشترك بين مصر ورومانيا.

ودعت الإسكندرية والبخيت حسن بشير الذي عاد إلى داخلية الكلية البحرية وفي طريقي إلى السودان وجدت أن البواخر التي تبحر بين الشلال ووادي حلفا والمزودة بكل التسهيلات الذاتية قد توقفت لانتهاء الموسم وتوجد باخرة صغيرة في الخدمة. كنا ثلاثة طلبة: واحد قبطي من الخرطوم بحري اسمه فانوس على ما أذكر وآخر قبطي من عطبرة اسمه يوحنا جرجس له جذور في مصر إذ إن أخته متزوجة من رجل أمن مصري وكان له قريب يتلقى العلاج في مستشفى عسكري فيما يبدو صادف أن أحيل إليه سيد قطب المفكر الأخواني- يقضي يوحنا الليل- وقد كان موسم الامتحانات يستذكر دروسه، ويبدو أنه وهو يجلس في البلكونة في إحدى الليالي أبدى تبرماً من مذاكرة مادة القانون التجاري مما لفت نظر جارهم- سيد قطب- ولما استفسره قام بشرح ما استشكل عليه غير منتبه إلى رجل الأمن المكلف بحراسة سيد قطب. وفي الصباح وهو يغادر المستشفى إلى الكلية أستوقفه حرس المستشفى وقادوه إلى غرفة ثم سألوه بعد أن تلقى إفطاراً دسماً من الضرب واللكم والشتم

عن علاقته بالاخوان وسيد قطب. ولم يشفع له إنكاره ولا جواز سفره الذي كان يحمله باسم يوحنا جرجس. ثم رجح رجل الأمن المصري أنه لابد أن يكون شيوعياً ويعمل حلقة وصل مع الأخوان المسلمين إذ شاع أن التنظيمين- وكليهما في عداء مع الثورة- ربما يدخلان في جبهة ضدها. زوج أخت يوحنا حضر للإطمئنان على المريض وأسرّ إليه أحد الحراس أن صهره في قبضة الأمن. ولو لا تلك الزيارة- كما يروي يوحنا لأصبح في خبر كان كما غنى نجيب الريحاني. وبعد أن تسلمه زوج أخته عرف منه أن المتطوع الذي شرح له القانون التجاري هو المعتقل سيد قطب.

ولولا أن الظرف كان أول الشهر ويحمل يوحنا جوازه لصرف حوالة بريدية متوقعة من السودان لما صدقه أحد.

وقد نصحنا (الريس الذي يقود الباخرة) بأن نشتري زادنا من ميناء الشلال لأن الباخرة ليس بها مطعم وسمعنا النصيحة فاشترينا كالعادة الساردين والجبنة البيضاء والزيتون والطحنية والرغيف الشمسي الكبير من القمح الخالص والذي لا يجف خلال يوم أو يومي الرحلة إذ الباخرة ستسير ضد التيار- جنوبا- كما إنها قد تتوقف لتسليم (البوستة) في قرية (عنيبة) في الطريق إلى حلفا وعندما تقاسمنا التكاليف تبقى عندي أكثر من جنيه مصري يكفي لشراء عشاء في محطة (أبوحمد) مكوّن كالعادة من كسرة وملاح ملوخية لم نطعمها منذ شهور. ثم تبقى منه ما يشكل مصروفاً عند وصولي الخرطوم.

ونحن نتأهب لتناول الإفطار صباح اليوم التالي شعرنا بشخص عملاق كاد يقفل باب (القمرة) وبادرنا بالتحية وبالتعريف بنفسه: أنا عبد العزيز محمد داؤود ومعي برعي محمد دفع الله وقد فوجئنا أن الباخرة ليس بها أكل لكن (الريس) دلانا عليكم. فطبعاً- رحبنا

بهما وجلس عبد العزيز بالقرب من (كرتونة الزاد) وجعل يخرج محتوياتها واحدة وراء الأخرى ويمزج (الونسة) بنكتة إلى أن انتهينا معه من كل (الزوادة) ولما رأى دهشتنا- وحسرة خفية- بشرنا بأنه علم من (الريس) أنه بحلول موعد الغداء سوف نصل إلى(عنيبة) وفيها بقال شهير اسمه (عياد) لديه كل ما نحتاج إليه بها في ذلك (الطفية) و(الطفية) نوع ردئ من (النبيذ) أشبه بما يعرف لدى الذين يحتسون (المريسة) باسم (المشك) الحثالة ولكنها أي الطفية لديها نكهة النبيذ وسواده الشديد وأثره الأشد في حالة الإكثار منها وقد تعهد عبدالعزيز ليس فقط بتعويضنا بل بإحياء ليلة ساهرة على سطح الباخرة ودعوة (الريس) وبعض البحارة. وقد أوفى الرجل بما وعد وزاد وأبدع في تلك الأمسية. وامتد كرمه ليشملنا في وجبة غداء في بوفيه القطار ونحن نتجه من حلفا إلى أبوحمد ثم الخرطوم. وبعد حوالي عشرة أيام حضر لزيارة صديقه نائب مدير وزارة التجارة والتموين محمد المكاوي مصطفى فكانت المفاجأة لكلينا أن تقابلنا في مكتب نائب المدير الذي دخلته برسالة من رئيسي. ولم يدع الفرصة تفوت دون أن يقدم لي دعوة عشاء وسهرة بصحبة نائب المدير وأنا الموظف الصغير. ولكن بشاشة النائب جعلتني ألبي الدعوة التي أمدت جسوراً من المودة مع كليهما.

بوصول القطار إلى محطة الخرطوم في السادسة مساء- موعدها المحدد- وجدت في استقبالي بالمحطة عبد الرحمن عمر عبدالله البرلماني والتجاني محمد أحمد الصحفي. فذهبنا إلى دار عبد الرحمن في ود نوباوي وفي الطريق أخبرته بأني أود أن يكون أول لقاء لي مع شخص هو السيد/ إبراهيم أحمد الذي كان مكلفاً بإلحاقي بمدرسة البوليس والإدارة ولم يستطع ملاحقتي لأكثر من أربع سنوات. عاد عبد الرحمن من جلسة الأربعاء في البرلمان وأخبرني أن السيد إبراهيم أحمد كان مسروراً للغاية بعودتي سالماً وناجحاً من مصر وأنه سيقابلني عصر

الخميس ٢٢ يوليو ١٩٥٦م بداره بالخرطوم. وفي الموعد المحدد وجدناه جالساً في فناء الدار وأمامه مشروب مثلج وطاقم شاي بالحليب وبعض الكيك كما هي العادة في شراب شاي العصر في ذلك الزمن. قابلني ببشاشة واعتذرت له عما بدر مني فقبل اعتذاري ونصحني بألا أتقدم للخدمة في وزارة المالية والاقتصاد التي يعمل فيها وزيراً لأنها (مليانة) بالخريجين الجدد وتقل فيها فرص التدريب- وهو أمر هام- وطلب مني أن أتقدم لوزارة التجارة والصناعة والتموين التي تكاد تكون (فاضية) كما علمت منه أن السيد حماد توفيق- الوزير- يبحث عن سكرتير جامعي كما كان في وزارة المالية والاقتصاد- التقط عبد الرحمن عمر الإشارة وفي التاسعة صباحاً- وكان يوم الجمعة ٢٣ يوليو ١٩٥٦م- كنا في مكتب الوزير الذي عرف عنه أنه يعمل حتى وقت صلاة الجمعة. ذكرتُ السيد حماد بمحاضرته التي ألقاها في جامعة الإسكندرية والإستقبال الذي وجده هو وزمرته في المحاضرة مما أثلج صدره. ثم ناولني ورقة وقلماً وطلب مني أن أكتب طلباً باللغة الإنجليزية موجهاً إلى مدير الوزارة للخدمة في أي وظيفة تناسب مؤهلي في الاقتصاد والعلوم السياسية. قرأ الطلب بإمعان ثم ابتسم قائلاً: انجليزيك كويس.وبعد قليل دخل علينا شخص تحدث إليه قائلاً: يا إبراهيم الحمد لله وجدت سكرتير جامعي فأرجو العمل على إنهاء إجراءات تعيينه. تبعت إبراهيم عثمان إسحق مدير الوزارة- كطلبه إلى مكتبه وسألني بضعة أسئلة بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة الإنجليزية- ثم سألني سؤال: إنت عندك معرفة بالسيد حماد- نفيت له ذلك وذكرت له ببراءة القصة من شاي العصر بمنزل السيد إبراهيم أحمد حتى دخولي مكتبه فابتسم- وهو أمر نادر عنده فيما علمت وتعلمت من بعد- وقال لي أن السيد حماد شخص صعب وعصبي ويثور لأصغر الأخطاء ولكنه ذو قلب طيب سرعان ما يهدأ ويعود إلى طبيعته الودودة وأن

علي أن أتحمله إلى أن أتعود عليه. ثم طلب مني الجلوس في المكتب سكرتيراً للوزير منذ الآن لحين خروج السيد الوزير للصلاة ثم الحضور صباح الغد لكي تتسلم المكتب رسمياً من القائم بأعمال السكرتارية. كانت السرعة في اتخاذ القرار من صفات إبراهيم عثمان إسحق ولكنه في حالتي ما كان له أن يتخطى قوانين الخدمة المدنية فيقوم بتعييني دون إعلان ومعاينة ودون وجود وظيفة خالية ونحن في منتصف السنة المالية (شهر يوليو) إلاّ أنه كان يعتمد على قرار مجلس الوزراء أن لكل وزير الحق في اختيار (سكرتير) من داخل أو خارج الخدمة العامة ويحدد له مرتب حسب مؤهلاته وتكون خدمته مرتبطة بوجود الوزير في المنصب فإذا استقال أو أقيل تبعه السكرتير إلاّ إذا وجد مدير أو وكيل الوزارة في السكرتير ما يجعله يستوعبه في وظفية خالية بوزارته بعد استئذان ديوان شئون الخدمة بوزارة المالية والاقتصاد- أو إذا طلب من الديوان خلق وظيفة جديدة ووافق الديوان.

ليعذرني القارئ إذ إنني- لقلة أو قل انعدام- خبرة في الكتابة تنقلت به من مرحلة الطلبة إلى دهاليز بعض العمل السياسي ثم حياة سياسي ووزير ثم عودة إلى الدخول إلى الخدمة المدنية في تسلسل سرحت فيه دون لجام.



الشيخ منصور منعم منصور(١٩٢٥-١٩٨٥م)
ناظر عموم حمر (١٩٧٩-١٩٨٥م)



عبد القادر منعم منصور (١٩٤٠م)

نظار عموم حمر (١٨٥-

أمير أمراء عموم السودان



الزوجة: فاطمة مهدي الحلو



الوقوف: من اليمين: محمد المهدي- محمد المنصور – محمد المأمون

الجلوس: من اليمين: سارة- إبراهيم منعم منصور- سوسن



الدكتور خليل عثمان محمود

(دكتور خليل)

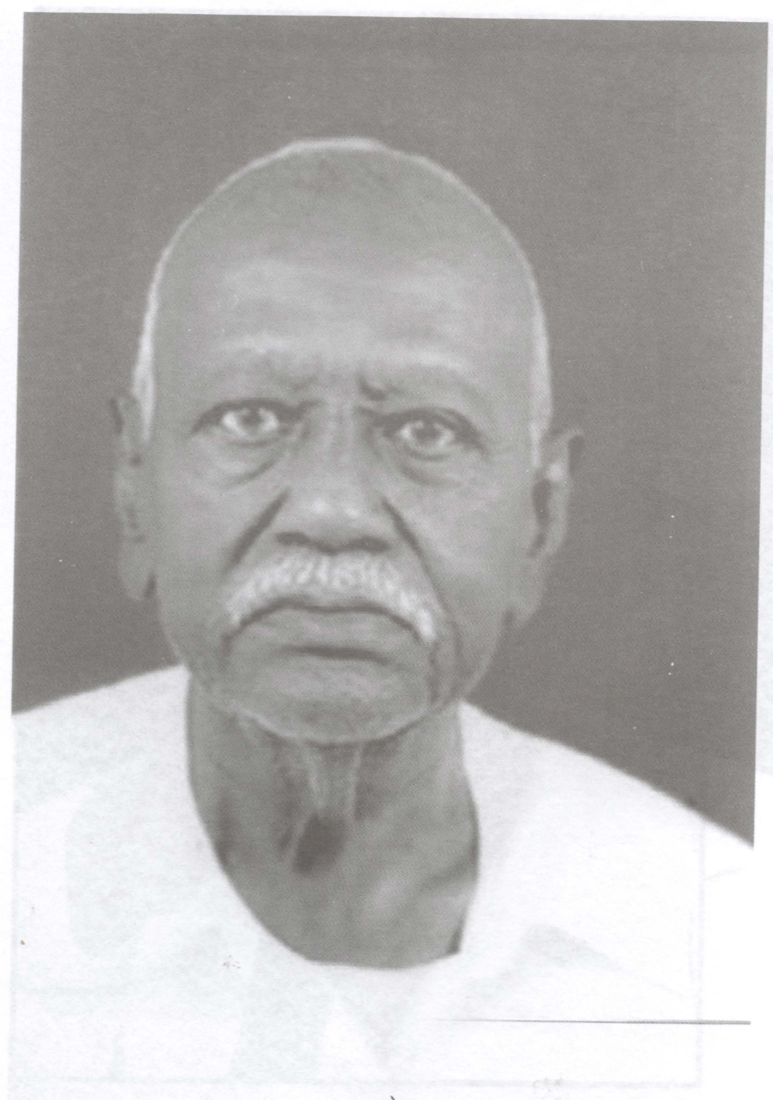


حماد توفيق



عبد الله زكريا إدريس

(عبد الله زكريا)



عبد الله حيدوب

أمين عام تجمع الدفعة (١٩٤٨-١٩٥١م)



الصف الأمامي من اليمين للشمال

محمد عثمان أبو زيد/ الدرديري إبراهيم/ أحمد علي الطيب/ أحمد علي بقادي

الصف الوسط

مصباح مكي/ إبراهيم منصور/ د. قدال / أبو سن/ عبد الله زكريا

الصف الخلفي

بدر الدين إبراهيم/ لطفي/ معاوية فريجون

رقم الإيداع (٢٥٣/ ٢٠١٧)